الصاحب بن عباد

حياته و أدبه

الشيخ محمد حسن آل ياسين

دار المعارف للتأليف والترجمة والنشر

الصاحب بن عباد

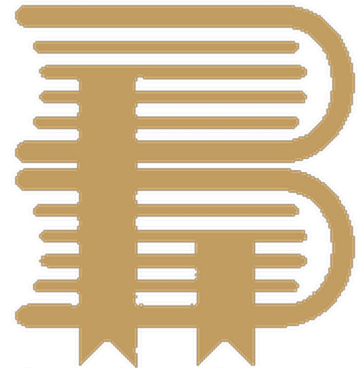
حياته وأدبه

تأليف

الشيخ محمد حسن آل ياسين

مكتبة الصاحب بن عباد

[١]



الطبعة الاولى

مطبعة المعارف ـ بغداد

١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م

تصدير

لمعالي الأستاذ الكبير العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي

ظهرت حتى الآن بحوث غير قليلة عن الصاحب أبي القاسم اسماعيل ابن عباد ـ رحمه الله ـ ، وهذه البحوث لجمهرة من الباحثين والمؤرخين والادباء متقدمين ومحدثين ، غير ان جميع ما كتب عن الصاحب حتى هذه الأيام الأخيرة يعوزه الإحاطة والاستيعاب ، الى أن جاءت نوبة الاستاذ الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ وهو ممّن شغفهم أدب الصاحب وفضله وطريقته ومنهجه حباً ـ فعمد الى هذه الخلة فسدّها بهذه الدراسة القيّمة على وجهٍ حالفه التوفيق فيها ، فهي دراسة وافية جامعة تناول فيها الاستاذ المؤلف ـ حرسه الله ـ نواحي انفرد بها مما يتعلق بابن عبّاد ورجع فيها الى عشراتٍ من المآخذ والمراجع التاريخية وغيرها ، ولم يكتف بذلك بل ناقش ما ناقش مما جاء في تلك المراجع حتى خاص الى رأيٍ اختاره ورجّحه ـ شأن الباحث المنقب ـ كما تجد ذلك ظاهراً في أكثر فصول الكتاب ، ومن ذلك فصول عقدها للبحث في سيرة الوزير العالم المترجم له قبل استيزاره وبعد ذلك ، واخرى خصّصها بالبحث عن نسبه وبلده ، وثالثة عن شيوخه وأساتذته وأصحابه ، وعن علومه وفنونه وأخلاقه ومكانه .

وخلاصة القول ما أكثر الطرائف والفوائد في هذا السفر الممتع ، ومن ذلك تلك المناقشة الحصيفة لبعض آراء أبي حيّان التوحيدي في

رسالته المعروفة عن « مثالب الوزيرين » ، وهي مناقشة خاص المؤلف منها الى أنّ الشيخ أبا حيان كان منطوياً على حسيكة من الحسد لابن عبّاد ، هذا ويطول بنا نفس القول اذا أردنا التوسع في التنويه بمميزات هذه الدراسة ، وإني لأرجو أن يحذو حذوَ الاستاذ المؤلف وأن يترسَّم خطاه في البحث سائرُ المنتمين الى الحوزة العلمية وأن يربأوا بأنفسهم عن خطة الجمود ، وإليه تعالى أبتهل أن يحالفه التوفيق سواء أكان ذلك في التأليف أم في نشر « نفائس المخطوطات » خصوصاً ديوان الصاحب المترجم له الذي ظفر المؤلف ـ فيما علمنا ـ ببعض نسخه وعني بدراستها ثم أضاف اليها ما عثر عليه من شعره في شتى الكتب والأسفار ، الى غير ذلك من رسائله فان الصاحب تفوّق في الصناعتين وجوّد في المنظوم والمنثور ، ولا يخفى ان الشيخ الفاضل أطرف المكتبة العربية حتى الآن بتحقيق طائفة من الرسائل والمخطوطات النادرة ونشرها ، وبذل في هذه الناحية جهداً يستحق العضد البالغ والتشجيع .

هذا وإنه ليسرني ـ في الختام ـ تقديم هذا الكتاب الى المعنيين بدراسة الموضوعات الأدبيـــة والتاريخية ، ولا يخالجني أدنى شك في الاقبال عليه وتقدير جهد المؤلف فيه من قبـــل محافلنا الأدبية أحسن تقدير ؟

جمادى الآخرة ١٣٧٦

٢٣ / ١ / ١٩٥٧

محمد رضا الشبيبي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى

— ١ —

ترجع معرفتي بابن عبّاد الى سنين خلت : يوم صمّمتُ على إصدار المجموعة الاولى من « نفائس المخطوطات » وتضمينها رسالتين له في بعض المباحث الكلامية والتاريخية ، وكان من واجبي في تقديم الرسالتين أن اعرّف مؤلفهما واشير الى موجز من ترجمته ، فرجعت الى المصادر الكبرى لهذا الغرض وقرأت سائر ما ضمنته هذه المصادر من أحاديث وتفاصيل تتعلق بالصاحب ، فاذا بها تدلني على شخصية تاريخية كبيرة كان لها يد بارزة وشأن جليل في عالم العلم والأدب ، والوزارة والإدارة ، والدين والدولة ، في القرن الرابع الهجري .

ورجعت الى مؤلفات القدامى والمحدثين فاحصاً عن كتاب مستقل يعنى بترجمة هذا الرجل الكبير فلم أجد سوى رسالة للسيد أبي القاسم القوبائي ألفها عام (١٢٥٩ هـ) ورسالةٍ اخرى للاستاذ المعاصر خليـــل

مردم ، وكلا الرسالتين - باختصارهما وايجازهما وتقليدهما للسابقين في آرائهم وجمعهما شتات الأقوال المدونة من دون تمحيص - لا تعطيان الصورة الكافية المطلوبة لهذا الوزير الأديب .

وأخذت - آنئذٍ - ما كان يحتاجه التقديم من ترجمة الصاحب عازماً على العودة ثانية الى الموضوع شرحاً وتمحيصاً وبحثاً وتحليلاً ، آملاً أن يتيسر لي تعريف هذا الرجل الملأ العربي تعريفاً قريباً الى الواقع بالمقدار المستطاع .

— ٢ —

وعدت الى صاحبي - مرة اخرى - قبل عام ، فبدأت بتصوير سائر كتبه ورسائله المخطوطة المبثوثة في خزائن الكتب في العالم ، ثم درستها بإمعان لأتخذ منها المصدر الأول لبحثي المفصّل ، وعرّجت - بعد الانتهاء منها - على المصادر القديمة والحديثة استقرؤها الواقع وأتساءل منها عن الحقيقة ، فرأيت فيها من الخبط والخلط ، ومن أمالي الحب الأعمى والحقد المتطامن ، ومن تأثيرات الميول والنزعات الدينية والسياسية والأدبية المختلفة ، ما مسخ الحقائق وشوّه الوقائع وضيع اللباب الغض بين أكوام مكدسة من القشور والحواشي والتعليقات .

رأيت الثعالبي - مثلاً - وقد ارتفع بالصاحب الى حد المبالغة الصارخة ، فنسب له ما يشبه العصمة في كل أفعاله ، وما يشبه الاعجاز

في كل أقواله ، وأحله من الرتب والمنازل ما تقصر عنه رتب الملوك ومنازل الخلفاء فضلاً عن الامراء والوزراء .

ورأيت أبا حيان التوحيدي ـ مثلاً ـ وقد أهوى بالصاحب الى الحضيض ، فنسب له سخف التفكير وركة التعبير وسلاطة اللسان وقلة العقل وسوء السليقة وضحولة المعلومات ، والى آخر ما شاكل ذلك من مفردات قاموس الشتم والسباب .

وكان لكل من الثعالبي وأبي حيان ـ بعدهما ـ من يحتج بأقوالهما ويعتبرها الحق والحق وحده ، كما كان بين هاتين الدرجتين من الافراط والتفريط درجات كثيرة من الآراء المتضاربة والأقوال المختلفة ، لم تسجل بشكل حر محايد إلا فيما شذ وندر .

— ٣ —

وكانت أهم محاولاتي في بحثي هذا أن أكون حراً محايداً بمقدار ما أستطيع ، فلم أغرف ـ مع المادحين ـ من بحرهم ، ولم أركض ـ مع الحاقدين ـ في ميدانهم ، بل رحت اؤيد هذا تارة واؤيد ذاك ثانية ، وأخالفهما ـ كليهما ـ مرة اخرى ، رغبة في استجلاء الحقائق وكشف الغوامض ، وحباً في بيان الواقع التاريخي بعيداً عن النزعات والأهواء والخضوع للعاطفة .

لقد وقفت عند كثير من الروايات والفروض موقف المشكك المتردد ، فلم أعبأ بالجلبة اللفظية وقوائم السند وأسماء المرويّ عنهم ،

ولم أكترث بجمال التعبير وتأنق السجع وبلاغة البيان ، وكان أبو حيان التوحيدي على رأس قائمة هؤلاء الرواة المحدّثين المكثرين ، فقد وقفت لديه طويلاً وتأملت كلامه مليّاً ، ورأيته كيف يتهم نفسه من طرفٍ خفي فيقول : « اني رجل مظلوم من جهته ، وعاتب عليه في معاملتي ، وشديد الغيظ لحرماني ، ولئن وصفتُه أربَيْتُ منتصفاً ، وانتصفتُ منه مسرفاً ، فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب أو عارياً منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق »(١) .

ثم رأيته يطلب من الوزير ابن سعدان كتمان الرسالة التي كتبها في « مثالب الصاحب وابن العميد » خوفاً من الصاحب وبطشه لأن « جانبه مهيب ولمكره دبيب » .

وعجبت جداً من خوف أبي حيان من الصاحب وهو بعيد عنه كل البعد ، وفي كنف دولة اخرى وحكم آخر ، وتحت حكم الوزير ابن سعدان وزير البلاط النافذ الكلمة في بغداد ، فما سبب هذا الكتمان ؟ ولم هذا الخوف ؟ وهل يرشدنا ذلك الى اشتمال الرسالة على كثير من الوضع والكذب والتلفيق عن ألسنة بعض الأحياء الذين يخشى تكذيبهم لما نسب اليهم ؟.

ووقفت مرة اخرى لدى روايات بعض المؤرخين في تعيين مذهبه ، حيث رأيتها خاضعة للعاطفة كل الخضوع ، بل كان لهذا البعض في تأويل

(١) الامتاع والمؤانسة : ١/٥٣-٥٤ .

كلمات الصاحب وحملها على تعيين ما لم يُرد وعلى النحو الذى لم يُقصد ، تمحل وتعسف وتكلف لا يلتئم مع روح البحث العلمي الصريح .

وهكذا كان منهجي في البحث هو الرجوع أولاً الى كلمات ابن عباد نفسه وتصريحاته ، ثم الى تحقيق النصوص الاخرى والأخذ بالراجح منها بلا تأويل أو تفسير أو تحميل لألفاظها ما لا تطيق .

ثم كان من منهجي أيضاً مخالفة عشاق الدراسات المنهجية في شأن النصوص التاريخية والأدبية ، حيث دأب اولئك على نقـــــل تلك النصوص بالمعنى والفحوى ، ليلمس القارئ مقدار بلاغتهم في التعبير ، وتمكنهم من البيان ، وجمال تنميقهم لتلك النصوص .

أما أنا فلست من الذاهبين هذا المذهب ، بل جعلت كل همي أن أنقل النصوص بحذافيرها ـ فيما يحتاج الى الاستشهاد بالنص ـ ، ثم التعليق عليها بما يرجح لديّ من تأييد أو تردد أو دحض ، وكل غرضي من ذلك أن اشرك القارئ معي في الاطلاع على الروايات التاريخية المتضاربة ، فلعله يصل ـ بعد اطلاعه ـ الى نتائج اخرى تتميز بالدقة والرجحان ، وإن خالفني فيها أو لم يرجح ما أذهب اليه .

أقول هذا ، ولا أقصد منه الطعن في أساليب المحدثين في البحث ، فلهم رأيهم في ذلك ، ولأسلوبهم خصائصه وميزاته المعروفة ، ولكني وددت أن أشرح للقارئ رأيي في الموضوع ، مع الاحتفاظ باحترام سائر وجهات النظر الاخرى في ذلك .

ويسرني أن اسجل في هذه المقدمة ان هذا الكتاب هو الأول في سلسلة « مكتبة الصاحب بن عباد » التي أرجو أن يوفقني الله تعالى فيها فأنشر سائر آثار الصاحب المخطوطة على التوالي ، وسيكون « ديوان الصاحب » هو الكتاب الثاني من هذه السلسلة ، وتتلوه كتبه الاخرى كـ « الاقناع في العروض وتخريج القوافي » و « كتاب الفرق بين الضاد والظاء » و « كتاب شرح المنظومة الفريدة » و « كتاب الروزنامجة » .

كما أرجو أن اوفق الى إعادة نشر بعض مؤلفات الصاحب المطبوعة بتحقيق أكثر وتدقيق أوفر ، بعد أن عثرت على نسخ خطية منها تدل على وقوع بعض الأخطاء في المطبوع ، ومنها : « كتاب الكشف عن مساوئ شعر المتنبي » و « كتاب الابانة عن مذهب أهل العدل » .

ولا يسعني ـ في الختام ـ إلا أن اسجل شكري لسائر من آزرني في تحضير مادة هذا الكتاب ، من هيئات ثقافية ومؤسسات علمية وأساتذةٍ كرام ، راجياً للجميع تسديد الخطى في ميادين العمل العلمي المثمر والجهد الثقافي البنّاء ، والله تعالى وليّ التوفيق .

الكاظمية ١٨/٧/١٣٧٦ هـ — محمد حسن آل ياسين

١٩/٢/١٩٥٧ م

فهرس الكتاب

القسم الاول

القسم الثاني

القسم الثالث

القسم الرابع

القسم الأول


سيرة

اسمه ونسبه وكنيته

هو اسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن ادريس .

هكذا ساق أكثر المؤرخين سلسلة نسبه [1] ، ولم نعثر على مايخالف ذلك إلا في بيتين من الشعراء بدل فيهما اسم « عباد » جد أبي اسماعيل بـ « عبدالله » ، وهما:

أ ـ بيت الشاعر السلامي :

يا ابن عباد بن عبـا　　　س بن عبد الله حرها [2]

ب ـ بيت الشاعر الرستمي :

يهني ابن عباد بن عباس بن عبـ　　　ـد الله نعمى بالكرامة تردف [3]

والظاهر أن هذين الشاعرين لم يقصدا من تسمية عبّاد بـ « عبد الله » أنّ اسمه كذلك ، ولكن استقامة الوزن وضرورة الشعر قد اضطرتهما لذلك . خصوصاً

(١) ومنهم : ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب : ٣/١١٣ ، وابن خلكان في وفيات الاعيان : ١/٢٠٦ ، والسيوطي في بغية الوعاة : ١٩٦ ، وعبدالرحيم العباسي في معاهد التنصيص : ٢/١٥٢ ، وابن كثير في البداية والنهاية : ١١/٣١٤ ، وأبو نعيم في أخبار اصبهان : ٢/١٣٨ ـ في ترجمة عباد ـ ، والقوبائي في الارشاد : ٨ .

(٢) يتيمة الدهر : ٣/٢٥٢ ، ومعجم الادباء : ٦/٢٣٦ .

(٣) يتيمة الدهر : ٣/٢٨٨ ، ومعجم الادباء : ٦/١٧٠ .

وان لفظ عبّاد مشتق من العبادة أوالعبودية ، وكلتاهما مرتبطةبالله تعالى [١] .

وأما كنيته فقد زخرت كتب التاريخ التي ذكرت اسماعيل ، ومعاجم الأدب التى روت ما قيل في مدحه ، بتكنيته بـ « أبي القاسم » ، ولما مدحه أبو الرجاء الضرير الشاعر بقصيدته العصماء ، وانتهى في انشاده إلى قوله :

إلى ابن عبادٍ أبي القاسم الـ ... ـصاحب إسماعيل كافي الكفاة

قال اسماعيل : « قد كنت والله أشتهي بأن تجتمع كنيتي واسمي ولقبي واسم أبي في بيت » [٢] .

وروي أنه « دخل إلى الصاحب رجل لا يعرفه ، فقال له الصاحب : أبو مَنْ ؟ فأنشد الرجل :

وتتفق الأسماء في اللفظ والكنى ... كثيراً ولكن لا تلاقى الخلائقُ

فقال له : اجلس يا أبا القاسم » [٣] .

وإذاً فتكنية اسماعيل بهذه الكنية أمر لا شك فيه ، ولكنّي لم أعثر على ولدٍ لاسماعيل يدعى « قاسماً » ليكنى به أبوه ، بل صرحت المصادر التاريخية انه لم يرزق إلا بنتاً واحدة ، وظني أن هذه الكنية قد كناه بها أبوه عبّاد تيمّناً وتبركاً بها حيث كانت كنية رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان من المتعارف جداً أن يكنى المولود ويلقب ـ عند ولادته وتسميته ـ بكنية ولقب يختارها الأب كما يختار الاسم له .

---

(١) وردت تسمية جد أبى اسماعيل باسم « عباد » فى عدة من الكتب التاريخية ـ غير التى ذكرناها فى الهامش الاول ـ ، ومن تلك الكتب : معجم الادباء : ١٦٨/٦ ، والمنتظم : ١٨٤/٧ ـ فى ترجمة أبى اسماعيل ـ ، والانساب : ٣٦٤ ، واللباب : ٧٧/٢ .

(٢) معجم الادباء : ٢٥٣/٦ .

(٣) معجم الادباء : ١٨٥/٦ .

لاسماعيل بن عبّاد لقبان مشهوران :

أولهما ـ الصاحب :

وقد لقّبه به سائر المؤرخين والكتاب والشعراء حتى بلغ حدّ الاسم ، فاستعاض بعض المؤرخين كما استعاض مشهور الناس عن ذكر اسمه بذكر هذا اللقب .

ويقول ابن خلكان في بيان سبب تلقيبه بذلك :

« هو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه كان يصحب أبا الفضل ابن العميد فقيل له صاحب ابن العميد ، ثم اطلق عليه هذا اللقب لما تولّى الوزارة وبقي علماً عليه »[1] .

ويؤيد ابنَ خلكان ـ في تعيين سبب اللقب وكونه مأخوذاً من مصاحبة اسماعيل لابن العميد ـ لفيفٌ من المؤرخين نذكر منهم :

أ ـ ابن العماد الحنبلي حيث يقول :

« صحب أبا الفضل الوزير ابن العميد ، وأخذ عنه الأدب والشعر والترسل ، وبصحبته لقب بالصاحب »[2] .

ب ـ أبو الفداء حيث يقول :

« وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل ابن العميد فقيل له صاحب ابن العميد ، ثم اطلق عليه هذا اللقب لما تولّى الوزارة »[3] .

---

(١) وفيات الاعيان : ١/٢٠٧ .
(٢) شذرات الذهب : ٣/١١٤ .
(٣) تاريخ أبى الفداء : ٢/١٣٠ .

وخالف لفيف آخر من المؤرخين في ذلك ، فعزوا اللقب الى سبب آخر غير السابق ، واليك بعض ما قالوا :

أ ـ قال ابن تغرى بردى :

« أول وزير سمي بالصاحب ، لانه صحب مؤيد الدولة من الصبا فسمّاه الصاحب فغلب عليه ، ثم سمي به كل من ولي الوزارة حتى حرافيش زماننا حملة اللحم وأخذة المكوس ! »[1] .

ب ـ وقال السيوطي :

« هو أول من سمي الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسمّاه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب »[2] .

جـ ـ وقال ياقوت الحموي :

« كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه أخي عضد الدولة بن ركن الدولة الديلمي ، ومؤيد الدولة حينئذٍ أمير ، وأحسن في خدمته ، وحصل له عنده بقِدم الخدمة قَدَم ، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة فلقبه بالصاحب »[3] .

د ـ ورجّح عبد الرحيم العباسي هذا السبب مضعّفاً ما روي من تلقيبه بذلك لصحبته لابن العميد[4] .

هـ ـ وقال الصابي :

« إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا وسمّاه الصاحب ، فاستمرّ عليه هذا اللقب واشتهر به ، ثم سمي به كل من ولي الوزارة بعده »[5].

---

(١) النجوم الزاهرة : ٤/١٧٠ .
(٢) بغية الوعاة : ١٩٦ .
(٣) معجم الادباء : ٦/١٧٣ .
(٤) معاهد التنصيص : ٢/١٥٢ .
(٥) وفيات الاعيان : ١/٢٠٧ نقلا عن كتاب « التاجى » للصابى .

وما كان لي من طريق لترجيح أحد السببين لولا كلمة الصابي وصراحتها في اختيار سببٍ معين لهذا اللقب ، والصابي ـ وقد عاصر الصاحب واتصل به واطلع على كثير من شؤونه وأخباره ـ حجة في هذا المقام لا يصح للمؤرخ أن يتجاوزها بقليل أو كثير ، وواضح أن المعلومات التي تستند الى المشاهدة والاطلاع لا تعارض ـ أو لا تطرح على الأقل ـ بمجرد قول يسند الى راويةٍ ؛ أو نقل ينقل عن كتابٍ متأخر وفي كتاب متأخر أيضاً ، ولامندوحة ـ إذن ـ من الأخذ بما يقوله الصابي في بيان سبب هذا التلقيب .

ومما يؤيد ذلك ما ذكره المؤرخون ـ ممن روينا نصوصهم فيما سبق ـ من صيرورة هذااللقب بعد اسماعيل لقباً لكل وزير ورئيس « حتى حملة اللحم وأخذة المكوس » ـ على حد تعبير ابن تغرى ـ ، ومعنى ذلك انه لقب رسمي منحه الأمير مؤيد الدولة لوزيره فورثته الأجيال بعد مؤيد الدولة واسماعيل لقباً كبيراً يلقب به صاحب السلطات ومدير شؤون الرعية ، ولو كان هذا اللقب مشتقاً من مصاحبة ابن العميد لما صحّ تلقيب الوزراء به بعد ابن عباد ، لأن مصاحبة ابن العميد كانت صحبة دراسة وكتابة وأدب ، وليس من الصحيح سحب الألقاب الأدبية من نطاقها الخاص الى نطاق المناصب السياسية الكبرى .

ثانيها — كافي الكفاة :

يقول ياقوت الحموي :

« كتب لمؤيد الدولة . . . . وأحسن في خدمته . . . . وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة فلقبه . . . . كافي الكفاة » (١) .

---

(١) معجم الادباء : ١٧٣/٦ .

ومن قول ياقوت ـ هذا ـ نعرف أن هذا اللقب سياسي أيضاً ، وقد منح من الأمير مؤيد الدولة ، وورد في الشعر كثيراً حيث جاء في :

أ ـ شعر العميري قاضي قزوين إذ يقول :

العميري عبد كافي الكفاةِ ... ومن اعتد في وجوه القضاةِ [1]

ب ـ وشعر أبي منصور الجرجاني إذ يقول :

قــل للوزير المرتجى ... كافي الكفاة الملتجى [2]

جـ ـ وشعر أبي القاسم ابن بابك إذ يقول :

كافي الكفاة إذا انثنت ... مقل القنا الخطي رمدا [3]

د ـ وشعر بعض من هجا الصاحب إذ يقول :

متلقب كافي الكفاة وإنما ... هو في الحقيقة كافر الكفّار [4]

هـ ـ وشعر أبي محمد الخازن إذ يقول :

كافي الكفاة المرتجى ... والسيد الهادي المفدّى [5]

و ـ وشعر أبي الحسن الجوهري إذ يقول :

كافي الكفاة بقصد من صرائمه ... حامي الحماة بحصد من مناصلِهِ [6]

الى كثير وكثير من أمثال ذلك .

والمؤسف جداً أننا لم نهتد الى نص يكشف لنا سبب هذا التلقيب، فنعرفه كمعرفتنا لسبب التلقيب بالصاحب ، ولكنه على كل حال لقب مشتق من

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٧٤ .
(٢) يتيمة الدهر : ٣/١٧٥ .
(٣) نفس المصدر : ٣/٢٠٩ .
(٤) معجم الادباء : ٦/٢٢٠ .
(٥) يتيمة الدهر : ٣/٢١٤ .
(٦) نفس المصدر : ٣/٢١٦ .

كفاءة اسماعيل السياسية والعلمية والأدبيـــة ، أو من اكتفائه عن المعونة والمشاركة في إدارة شؤون الدولة وتنظيم امورها .

وبالرغم من أن اللقب المشار اليه كان « كافي الكفاة » بهذا النص ؛ فقد ورد في بعض الكتب والمناسبات مختلفاً عن ذلك بتغيير بعض ألفاظه :

جاء في مقدمة كتاب الهداية والضلالة تلقيبه بـ « أكفى الكفاة » (١) .

وجاء في مرثية أبي القاسم الاصبهاني له :

يا كافي الملك ماوفيت حظك من وصفٍ وإن طال تمجيد وتأبينُ (٢)

وواضح أن هذه التعابير لم تكن القاباً أخرى غير لقب « كافي الكفاة » ، وإنما كان الغرض من استعمال صيغة التفضيل ـ في التعبير الأول ـ هو التعظيم والتبجيل ، وكان الغرض من التعبير الثاني بيان خدمة اسماعيل المُلك وكفاءته في ذلك ؛ فهي إذن تعابير مقتبسة من اللقب الرئيسي المشار اليه .

(١) راجع الصفحة الاولى المصورة عن المخطوط . ط طهران ١٣٧٤ هـ .
(٢) يتيمة الدهر : ٣/٢٥٣ .

تاريخ ولادته

ولد اسماعيل في اليوم السادس عشر من شهر ذي القعدة الحرام على ما اتفق المؤرخون عليه [1] ، ولم يخالف في ذلك غير أبي حيان التوحيدي الذي ذكر انه ولد لأربع عشرة ليلة من ذي القعدة الحرام [2] .

واذا لم تكن في الأصل كلمة « بقيت » بين لفظي « ليلة » و « من » ؛ وقد سقطت أثناء نسخ الناسخين ، فلا مجال لنا للترجيح بين القولين إلا اذا أخذنا الكثرة مرجحاً يلزم الرضوخ له ؛ وهي تذهب الى تحقق الولادة في اليوم السادس عشر من شهر ذي القعدة ـ كما ذكرنا قبل قليل ـ .

هذا كله في تعيين يوم الولادة ؛ وأما تعيين السنة فقد مني باختلاف كبير بين المؤرخين يجمل بنا أن ننقل نصوصه ثم نشرح القول الراجح وما يؤيد ترجيحه على سائر الاقوال الأخرى المتضاربة :

١ ـ ولادته عام ٣٢٠ هـ

قال شهاب الدين النويري : « اسماعيل بن عباد توفي في صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وعمره خمس وستون سنة » [3] .

٢ ـ ولادته عام نيف وعشرين وثلاثمائة :

نقل ذلك السمعاني في كتابه « الأنساب » [4] .

---

(١) وفيات الاعيان : ١/٢٠٩ ، وشذرات الذهب : ٣/١١٥ .
(٢) معجم الادباء : ٦/٢٠٩ .
(٣) نهاية الارب : ٣/١٠٨ .
(٤) ورقة : ٣٦٤ .

٣ ـ ولادته عام ٣٢٤ هـ :

ذهب الى ذلك : السيوطي [١] والسيد حسن الصدر [٢] والشيخ آقا بزرك الطهراني [٣] .

وعلل السيد محسن الأمين ذهاب الشيخ آقا بزرك الى هذا التأريخ : بأنه محاولة لتصحيح ما صرح به الثعالبي من بلوغ ابن عباد الستين من العمر حين وفاته ، ولا يلتئم ذلك إلا بتعيين ولادته بهذا التاريخ [٤] .

ولكنني لا أستطيع الاقرار بصحة هذا التعليل ، لأن قول الثعالبي لا يتم بهـــذه المحاولة ، بل بالقول بولادة الصاحب عام (٣٢٥) ولم يقل بذلك أحد ، فلابد ـ إذن ـ من حمل قول الثعالبي ـ ومن تابعه ـ على التقريب والتخمين لا النص والتحديد ، ويكون ـ بناء على ذلك ـ تاريخُ الشيخ آقا بزرك والسيد الصدر مجاراة للسيوطي فيما ذكره ، ويدلنا على ذلك ما ذهب اليه آقا بزرك في مناسبة أخرى من تعيين تاريخ الولادة عام (٣٢٦) [٥] .

٤ ـ ولادته عام ٣٢٦ هـ :

ذهب الى ذلك من القدماء : ابن العماد [٦] ، وابن خلكان [٧] ، وأبو الفداء [٨] ، وعبد الرحيم العباسي [٩] ، وأبو حيان التوحيدي [١٠] ،

---

(١) بغية الوعاة : ١٩٦ .
(٢) تأسيس الشيعة : ١٦١ .
(٣) الذريعة : ١/٥٦ .
(٤) أعيان الشيعة : ١١/٣٢٣ .
(٥) الذريعة : ٤/٢١ .
(٦) شذرات الذهب : ٣/١١٥ .
(٧) وفيات الاعيان : ١/٢٠٩ .
(٨) تاريخ أبى الفداء : ٢/١٣٠ .
(٩) معاهد التنصيص : ٢/١٥٢ .
(١٠) معجم الادباء : ٦/٢٠٨ .

وياقوت الحموي [1] ، وأبو نعيم [2] ، وابن حجر [3] .

كما ذهب الى ذلك من المتأخرين : الشيخ عباس القمي [4] ، وآقا بزرك [5] ، والأساتذة المستشرقون في دائرة المعارف [6] ، والزركلي [7] ، والبستاني [8] ، وآدم متز [9] ، والاسكندري ورفيقه [10] .

ومن التدقيق في هذه النقول المتضاربة نستخلص ما يلي :

أ ـ لم أجد في قول النويري قصد تنصيص على تعيين عام الولادة ، وأظن انه أراد بياناً تقريبياً لعمر الصاحب حين وفاته .

ب ـ عبارة السمعاني ـ باجمالها وعدم تعيينها ـ قابلة للانطباق على عـــدة أعوام ، فلا تكون مخالفة لبقية النصوص التي ذهبت الى عام ٣٢٤ أو ٣٢٦ .

جـ ـ ذكرنا ما رجحناه من عدم الاعتماد على ما اختاره السيد الصدر والشيخ آقا بزرك .

د ـ لا يصلح قول السيوطي لمعارضة القول المشهور الذي رجّحه أكثر المتقدمين والمتأخرين من المؤرخين ، وفي ضمن هؤلاء الثعالبي المعاصر للصاحب ؛ الذي يلتئم قوله ـ بالتقريب ـ مع القول الأخير الذي رويناه ، وفيهم أيضاً

---

(١) معجم الادباء : ٦/١٧١ .
(٢) أخبار اصبهان : ١/٢١٤ .
(٣) لسان الميزان : ١/٤١٤ .
(٤) الكنى والالقاب : ٢/٣٦٥ .
(٥) الذريعة : ٤/٢١ .
(٦) دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ : ١/٢٢٠ .
(٧) الاعلام : ١/١٠٦ .
(٨) دائرة المعارف : ١/٥٨٠ .
(٩) تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ـ الترجمة العربية ـ : ١/١٣٤
(١٠) الوسيط في الادب العربي : ٢١٢ .

أبو حيان التوحيدي الذي نقل روايته عن أحد المتصلين بالصاحب نفسه ، كما أن فيهم أيضاً جماعة من المتقدمين على السيوطي بمآت السنين كابن خلكان وياقوت وأمثالهما .

هـ ـ وإذاً فقد ولد ابن عباد عام ٣٢٦ هـ على أرجح الأقوال ؛ أو هو القول الراجح الذي لا يعارض بغيره .

يقول أبو سعيد الرستمي :

ورث الوزارة كابراً عن كابر   موصولة الاسناد بالاسناد [1]

ويقول أبو بكر الخوارزمي :

« الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها ، ودبّ ودرج من وكرها ، ورضع أفاويق درّها ، وورثها عن آبائه » [2] .

ويدلنا هذا البيت وهذه الجملة المنثورة على أن آباء الصاحب ـ ولا نعلم عددهم ـ كانوا من أقطاب الوزارة والحكم والادارة في عصرهم ، فانتهت الى اسماعيل موصولة الاسناد بالاسناد ، وموروثة من الآباء والأجداد .

ولكنّ المؤسف اني لم أعثر على تفاصيل وافية فيما يتعلق بآباء الصاحب وأجداده غير جده وأبيه القريبين ، ولعل فيما ضاع من الكتب وفقد من المصادر ودفن في زوايا المكتبات من المراجع المخطوطة ما يضم التفصيل المنشود في هذا الموضوع ومواضيع أخرى مما يتعلق بابن عبّاد .

ومهما يكن من أمر ؛ فنحن لم نعرف من آباء الصاحب غير عباس وعباد ، إذ حفظت لنا بعض المصادر نتفاً تتعلق بهما ، فترشدنا إلى بعض ما نريد على نحو الاختصار والاجمال .

ويدلنا على وزارة عباس ـ جد اسماعيل ـ ما نسجله في أدناه :

١ ـ قول محمد ربيع بن شرف جهان الأردستاني :

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٧٠ .

(٢) وفيات الاعيان : ١/٢٠٦ ، ويتيمة الدهر : ٣/١٧٠ .

« كان أبوه عباد وجده عباس بن أحمد بن ادريس الطالقاني وزيرين »[1].

٢ ـ قول الشاعر الرستمي :

يروي عن العباس عباد وزا رته واسماعيل عن عبّادِ[2]

٣ ـ ما يستشعر من كلام الصاحب نفسه إذ يقول :

« وجميع ما أنفقته من صغري الى وقتي هذا من مال أبي وجدي »[3].

هذا كل ما لدينا من النصوص المتعلقة بعباس جد الصاحب ، وأظنها كافية في الدلالة على تسنمه كرسي الحكم على الإجمال ، أما التفاصيل الاخرى فلا مجال للتخرص بها لعدم العثور على ما يشير اليها ولو من بعيد .

أما أبو اسماعيل « عباد بن العباس » فيظهر من التاريخ انه كان على جانب كبير من العلم والفضل ، والفهم والسياسة والكياسة ، والتقى والورع ، وبلغ من ورعه وزهده أن لُقّب بـ « الشيخ الأمين » ، دلالةً على طهارة ضميره ، ونزاهة يده ، وقوة ايمانه .

ولم نعثر فيما يتعلق بتاريخه في أول أمره إلا على نصين نقلهما أبو حيان التوحيدي في رسالته « مثالب الوزيرين » نسجلهما فيما يلي :

أ ـ « . والأمين كان ينصر مذهب الأشناني تديناً وطلباً للزلفى عند ربه ، والعميد كان يعمل لعاجلته ، وإن قلت : كان الأمين معلماً بقرية من قرى طالقان الديلم . قيل : وكان والد العميد نخالا في سوق الحنطة بقم »[4].

---

(١) الارشاد : ٨ .
(٢) يتيمة الدهر : ٣/١٧٠ .
(٣) معجم الادباء : ٦/٢٥٢ .
(٤) نفس المصدر : ٦/١٧١ .

ب ـ لما ظهر من أبي حيان عدم إعجابه برسائل الصاحب ـ في قصة طويلة ـ ، وبلغ ذلك الصاحب فغضب غضباً شديداً ، قال أبو حيان معلقاً على ذلك : « حتى كأني طعنت في القرآن ، أو رميت الكعبة بخرق الحيض ، أو عقرت ناقة صالح ، او سلحت في بئر زمزم ، أو قلت : كان النظّام مأبوناً ، أو مات أبو هاشم في بيت خمّار ، أو كان عبّاد معلم صبيان »[1] .

وكل ما نفهمه من هذين النصين ان عباداً كان من معلمي الصبيان في أول أمره ، ولعلّه كان كذلك في الواقع ، ولكننا لا نستطيع الجزم بذلك ، لعدم اعتمادنا على صحة ما يرويه أبو حيّان في كتابه « مثالب الوزيرين » على ما يأتي تفصيله .

وسواء أكان معلماً للصبيان أو لم يكن ، فقد تطورت الأمور بابن عباس وتقلبت به الأحوال ، حتى نال رتبة الكتابة ، فأصبح كاتباً لركن الدولة ابن بويه ـ أحد مؤسسي الدولة البويهية في ايران ـ كما صرّح بذلك ياقوت حيث يقول :

« كان ... مقدماً في صناعة الكتابة ... وكتب الأمين لركن الدولة »[2]

ثم علا ذكره ولمع نجمه فتقلد الوزارة لركن الدولة كما صرحت به النصوص التالية :

١ ـ يقول ابن العميد في رسالة يخاطب بها اسماعيل :

---

(١) معجم الادباء : ١٥/٣٤ـ٣٥ ، وقد روى الدكتور أحمد شلبى هذه القصة بتحريف ذيلها هكذا : « أو كان الصاحب معلم صبيان » ـ تاريخ التربية الاسلامية : ٢٠٤ ـ ، كما أن الاستاذ عبدالرزاق محيالدين روى هذا الذيل محرفا هكذا : « أو كان ابن عباد معلم صبيان » ـ أبو حيان التوحيدى : ٢٨٣ ـ

(٢) معجم الادباء : ٦/١٧١ .

« مولاي وإن كان سيداً بهرتنا نفاسته ، وابن صاحب تقدمت علينا رياسته »[1] .

ومنها :

« فمن هذ الدولة جرى ما فضّله وفضّل الشيخ الأمين من قبله »[2] .

٢ ـ يقول فخر الدولة مخاطباً ابن عباد :

« لك في هذه الدولة من إرث الوزارة كما لنا من إرث الامارة ، فسبيل كل واحد منّا أن يحتفظ بحقه »[3] .

٣ ـ صرّح بوزارة عباد كلٌّ من أبي الفداء[4] ، وابن الأثير[5] ، وأبي نعيم[6] ، وابن خلكان[7] ، والسمعاني[8] .

٤ ـ مرت قبل قليل كلمة أبي بكر الخوارزمي وشعر أبي سعيد الرستمي ، وفيهما صراحة في الدلالة على ما نحن بصدده .

وإذن فقد كان عباد وزيراً لركن الدولة ، ولكنّ شؤون الوزارة لم تكن لتصرفه عن النواحي الاخرى ، فلقد وصفه المؤرخون بالعلم والفضل ، وذكروا روايته الحديث عن أبي خليفة الفضل بن الحباب البصري ـ أحد شيوخ الحديث في عصره ـ ، وأبي بكر محمد بن يحيي المروزي البغدادي ، وجعفر بن محمد القرماني ، ومحمد بن حيان المازني ، وجماعة من البغداديين والاصبهانيين

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٢١ و٢٢٤ .
(٢) معجم الادباء : ٦/٢٢١ و٢٢٤ .
(٣) نفس المصدر : ٦/١٧٤ .
(٤) تاريخ أبى الفداء : ٢/١٣٠ .
(٥) اللباب : ٢/٧٧ .
(٦) أخبار اصبهان : ٢/١٣٨ .
(٧) وفيات الاعيان : ١/٢١٠ .
(٨) الانساب : ٣٦٤ .

والرازيين ، كما حدّث عنه لفيف من رجال الرواية ؛ كأبي اسحاق بن حمزة الحافظ ؛ وأبي الشيخ ؛ وابنه الصاحب أبي القاسم اسماعيل ؛ وأبي بكر بن مردويه [1].

ونقل بعض المؤرخين أن لعباد هذا كتاباً في أحكام القرآن « نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه » [2] ، وقد « استحسنه كل من رآه » [3] ، وكانت بينه « وبين الحسن بن عبد الرحمن بن حماد القاضي مكاتبات ومراسلات مذكورة مدوّنة » [4].

وفي تاريخ وفاة عبّاد اختلاف غريب ملفت للنظر يحسن بنا سرده قبل بيان ما نرجحه فيه :

١ ـ وفاته عام ٣٣٤ أو ٣٣٥ ه

صرّح بذلك ابن خلكان [5] ، والسمعاني [6] ، وابن الأثير [7] .

٢ ـ وفاته عام ٣٣٥ ه

ذكر ذلك الحافظ أبو نعيم [8] ، والحسن بن محمد بن الحسن القمي المعاصر للصاحب [9] .

---

(١) راجع فى تفصيل ذلك : المنتظم : ٧/١٨٤ـ١٨٥ ، والانساب : ٣٦٤ ، واللباب : ٢/٧٧ ، وأخبار اصبهان : ٢/١٣٨ ، ومعجم الادباء : ٦/١٧٢ ، والنجوم الزاهرة : ٤/١٧٢ .

(٢) معجم الادباء : ٦/١٧٢ ، وقد ذكر هذا الكتاب منسوبا لعباد سائر المؤرخين المذكورين فى التعليق المتقدم .

(٣) معجم البلدان : ٦/٨ .

(٤) معجم الادباء : ٦/١٧٢ .

(٥) وفيات الاعيان : ١/٢١٠ .

(٦) الانساب : ٣٦٤ .

(٧) اللباب : ٢/٧٧ .

(٨) أخبار اصبهان : ٢/١٣٨ .

(٩) تاريخ قم : ١١ ، وقد ورد تاريخ الوفاة فى هذه الصفحة وفيه سقط من قلم الناسخ كما تدل عليه ص ١٠١ .

٣ ـ وفاته عام ٣٨٥ هـ

روى ذلك ابن الجوزي [١] ، وابن تغرى بردى [٢] ، وياقوت [٣] .

ولدى التدقيق في الموضوع رأيت أن تحديد وفاته في عام ٣٨٥ عارٍ عن الصحة والصواب ، مسترشداً الى ذلك بأمور :

أ ـ لم يُنقل عن اسماعيل في أوج عزه ومجده وعظمته أي اتصال له بأبيه أو مراسلة معه أو تحدثٍ عنه أو ذكرٍ له .

ب ـ ان ركن الدولة قد توفي عام ٣٦٦ هـ ، ولم نعثر على نص يشير الى وزيره عبّاد وبيان ما أصبح عليه أمره ، وهل استوزر بعد ذلك ومَنْ استوزره ؟.

جـ ـ يقول فخر الدولة لابن عباد : « لك في هذه الدولة من إرث الوزارة كما لنا من إرث الامارة » وأي إرث هذا اذا كان عبّاد حيّاً ؟ وهل يورث الرجل وهو حي يرزق ؟

د ـ يقول ابن العميد : « فمن هذه الدولة جرى ما فضّله وفضّل الشيخ الأمين قبله » ، وأية قبلية لعبّاد على ابنه اذا ماتا في عام واحد ؟.

هـ ـ توفيت أم اسماعيل عام ٣٨٤ هـ فأين زوجها عنها ؟ ولِمَ لم يذكر بهذه المناسبة ؟

و ـ اذا كانت وفاته ووفاة ابنه في عام واحد ، فان كانت قبل ابنه فأين مجلس ابنه الذي أعده لتقبل التعزية بأبيه ـ كما فعل لأمه ـ ، وإن كانت

---

(١) المنتظم : ٧/١٨٥ .
(٢) النجوم الزاهرة : ٤/١٧٢ .
(٣) معجم الادباء : ٦/١٧٢ .

بعد ابنه فأين مجلس الأب الذي جلس فيه لتقبل التعازي بابنه العظيم ؟.
وأين عنه الشعراء والادباء والمعزّون وهو وزير يفجع بوزير ؟.

ز ـ الف الحسن القمي كتابه تاريخ قم عام ٣٧٨ هـ وقد روى فيه خبر وفاة عباد عام ٣٣٥ هـ .

من مجموع ما مرّ نعرف ان هذه الرواية غير قابلة التصديق ، وأظن ان الاشتباه قد ورد من تشاكل ثلاثين وثمانين في النطق والكتابة فسجّله بعض المؤرخين خطأ ثم تابعه على ذلك من جاء بعده ، وروى عنه من دون تأمل وتدقيق .

* * *

هذا كله في آباء الصاحب وأما امه فلم نعرف من تاريخها ما تجب معرفته ، بل لم تُذكر في كتب التاريخ إلا في مناسبتين ثنتين هما :

١ ـ ما رواه السيوطي فيما يتعلق بطفولة الصاحب وصباه إذ قال :

« كان في الصغر اذا أراد المضي الى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً في كل يوم ودرهماً ، وتقول : تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه ، فكان هذا دأبه في شبابه الى أن كبر » [١] .

٢ ـ ما رواه ياقوت الحموي فيما يتعلق ببيان جلالة الصاحب وسمو مقامه إذ قال :

« توفيت أم كافي الكفاة باصبهان ، وورد عليه الخبر فجلس للتعزية يوم الخميس للنصف من محرم سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ، وركب اليه سلطانه وولي نعمته فخر الدولة بن ركن الدولة معزياً ، ونزل وجلس عنده طويلاً يعزيه

---

(١) بغية الوعاة : ١٩٦ ، وروى مثل ذلك في معاهد التنصيص : ٢/١٥٤ ، والكنى والالقاب : ٢/٣٦٩ .

ويسكن منه . . . . فسمعته يقول حين أراد القيام : أيها الصاحب هذا جرح لا يندمل ... الخ »[1] .

ولا ترشدنا هاتان القصتان لما نود الاطلاع عليه من حياة ام اسماعيل وتاريخها الطويل ، بل لا تدل على أكثر من الحب المتبادل والعلاقة المتينة بين الأم وابنها ، وهو ما لا يستدعي أي برهنة أو بيان .

---

(١) راجع فى تفصيل ذلك : معجم الادباء : ٢٣٨/٦ ، ومنه نقلنا النص المذكور فى المتن .

في تعيين وطن اسماعيل ومحل ولادته أقوال متضاربة وروايات مختلفة ، ونقدّم - فيما يلي - قبل بيان الرأي المنتخب قائمةً بالأقوال التاريخية المتعددة :

١ - من إصطخر :

روى ذلك ابن خلكان [١] وابن العماد [٢] وأبو الفداء [٣] مرددين بينه وبين ميلاده بالطالقان ، ولكنّ تعبيرهم مشعر بترجيح إصطخر ، حيث رووا ذلك ثم اردفوه بقولهم : « وقيل بالطالقان » مما يدل على ترجيحهم للنقل الأول.

وروى ذلك صاحب سلم الوصول [٤] جازماً فيه .

كما روى أبو حيان التوحيدي عن الخليلي عن اسماعيل بن عباد انه أخبر عن ولادته باصطخر [٥] .

أما عبد الرحيم العباسي فقد روى القولين - إصطخر وطالقان - من دون أن يرجح أحد القولين على الآخر [٦] .

٢ - من الري :

نقل ذلك أبو القاسم القوبائي عن بعض كتب التاريخ - ولم يذكر اسمه - [٧].

(١) وفيات الاعيان : ١/٢٠٩ .
(٢) شذرات الذهب : ٣/١١٥ .
(٣) تاريخ أبى الفداء : ٢/١٣٠ .
(٤) معجم الادباء : ٦/١٧٠ فى الهامش .
(٥) معجم الادباء : ٦/٢٠٩ .
(٦) معاهد التنصيص : ٢/١٥٢ .
(٧) الارشاد : ٥ .

٣ ـ من قزوين :

نقل ابن حجر[١] ان الرافعي قد ترجم للصاحب في كتابه : « التدوين في علماء قزوين » ، كما نقل نصاً يتعلق بهذا الموضوع من الكتاب نفسه ، وكذلك لقّبه الشيخ آقا بزرك بالقزويني[٢] .

٤ ـ من كورة فارس :

روى ذلك أبو الحسن البيهقي في كتابه مشارب التجارب على ما نقل عنه[٣] .

٥ ـ من الطالقان :

والطالقان في كتب البلدان بلدتان : احداهما تنتسب لخراسان ، والاخرى تنتسب لقزوين ، وابن عبّاد من الطالقان الثانية على ما ذهب اليه ابن تغرى بردى[٤] ، والشيخ الاسكندري[٥] ، وآقا بزرك[٦] ، وياقوت الحموي[٧] ، والسمعاني[٨] والسيوطي[٩] .

٦ ـ من اصفهان :

عدّه أبو نعيم من الاصبهانيين[١٠] ، ولقّبه ابن شهراشوب بالأصفهاني[١١] ،

---

(١) لسان الميزان : ١/٤١٦ .
(٢) الذريعة : ١/٥٦ .
(٣) معجم الادباء : ٦/٢٥٧ .
(٤) النجوم الزاهرة : ٤/١٧٠ و١٧٢ .
(٥) الوسيط : ٢١٢ .
(٦) الذريعة : ١/٥٦ و٤/٢١ .
(٧) معجم الادباء : ٦/١٦٨ ، ومعجم البلدان : ٦/٨ .
(٨) الانساب : ٣٦٤ .
(٩) بغية الوعاة : ١٩٦ .
(١٠) أخبار اصبهان : ١/٢١٤ .
(١١) معالم العلماء : ١٣٦ .

وعبّر الثعالبي بأن اصبهان هي التي أخرجت الصاحب [1] .

٧ ـ من الديلم :

قال أبو حيان التوحيدي : « كان الأمين معلماً بقرية من قرى طالقان الديلم » [2] ، ولقّبه الشيخ آقا بزرك بالديلمي [3] .

ولدى نخل هذه النصوص ودراستها نرى ان الشيء الذي يمكن فهمه منها هو ما يلي :

أ ـ انه ولد باصطخر كما صرح به اسماعيل نفسه ، وكما أشار اليه بعض المؤرخين الاثبات جازمين أو مرجحين ، وبما ان اصطخر بلدة من بلدان ولاية فارس فلا تنافي حينئذ بين هذا الترجيح وبين ما رواه البيهقي من ولادته بكورة فارس .

ب ـ انه بعد ولادته بقليل سافر الى طالقان ، ولعلّ عباداً انتقل الى طالقان لغرض التعليم ـ كما روى أبو حيان ـ ، وبالنظر الى صغر سن الصاحب حين انتقال أبيه الى موطنه الجديد فقد فتح عينيه في طالقان واشتهر في كثير من الكتب التاريخية انه طالقاني حتى أصبح ذلك من أشهر ما يضاف الى اسمه ، ويروي أبو حيان في كتابه : « مثالب الوزيرين » انه سأل الخنبلي عن محل ولادة ابن عباد فأجابه : « كان عندنا انه ولد بطالقان ، وقال لنا يوماً : باصطخر » [4] .

وبالنظر الى قرب قزوين وطالقان الى جبال الديلم قال أبو حيان باشتغال

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/٢٦٧ .
(٢) معجم الادباء : ٦/١٧١ .
(٣) الذريعة : ١/٥٦ و٤/٢١ .
(٤) معجم الادباء : ٦/٢٠٩ .

عباد بتعليم الصبيان بقرية من قرى طالقان الديلم ، ثم تبعه آقا بزرك على ذلك فلقّبه بـ « الديلمي » .

جـ ـ ذكرنا سابقاً أن اسم طالقان يطلق على بلدتين : طالقان خراسان وهي « بين مرو الروذوبلخ . . . وهي مدينة في مستوٍ من الأرض . . . ولها نهر كبير وبساتين » [1] . وطالقان قزوين وهي « بلدة وكورة بين قزوين وأبهر ، وبها عدة قرى يقع عليها هـذا الاسم ، واليها ينسب الصاحب بن عباد » [2] ، واعتقد ان انتساب طالقان لقزوين هو الذي حدا الرافعي الى عد ابن عباد من علماء قزوين ، وحدا آقا بزرك الى تلقيبه بـ « القزويني » .

ولم يذكر المؤرخون ـ فيما رأيت ـ طالقاناً ثالثاً سوى ما قرأت للثعالبي من جملة كلام جاء فيه : « والصاحب من قرية الطالقان من قرى اصبهان » [3] ، وظني بل اعتقادي ان هناك قرية تسمى « الطالقان » كانت تنسب ـ أولاً ـ لاصبهان ـ كما يقول الثعالبي ـ ثم تغيرت نسبتها بتطور الأوضاع والشؤون العمرانية فنسبت لقزوين ، وقزوين واصبهان من اقليم واحد هو الاقليم الرابع [4] .

ويرجح هذاالرأي ان الثعالبي مؤرخ ثقة ثبت دقيق في معلوماته ورواياته ، ولا اعتقد انه ارسل كلمته هذه جزافاً وبلا تمحيص ، خصوصاً وهو من المعاصرين للصاحب بن عبّاد ومن المستقصين لأخباره وآثاره وأشعاره ، فلابدَّ انه سجّل كل ما سجّل مأخوذاً من أوثق المصادر وأصح الروايات وأصدق المحدثين .

---

(١) معجم البلدان : ٧/٦ .
(٢) معجم البلدان : ٨/٦ .
(٣) يتيمة الدهر : ٢١٦/٣ .
(٤) معجم البلدان : ٢٦٩/١ ، و٧٩/٧ .

ويبدو لي ان تسمية الطالقان بطالقان اصبهان لم تكن معروفة لدى ياقوت فلم يشر اليها في معجم البلدان ، ثم نجده في معجم الادباء ناقلاً اقول الثعالبي السابق ومعلقاً عليه بقوله : « هذا الذي ذكر الثعالبي ان طالقان من قرى اصفهان ، والصواب ما تقدم » [1] ، مشيراً بذلك الى ما ذهب اليه من كون ابن عباد « من أهل الطالقان ، وهي ولاية بين قزوين وأبهر » [2] .

د - إنَّ الصاحب قد هاجر من طالقان في أيام صباه الى اصبهان ، ولعل هذه الهجرة قد تمت حينما تولى عبّاد الكتابة للحسن بن بويه ركن الدولة ، ويرشدنا الى سكنى اسماعيل اصبهان في أيام صباه ما نسجّله في أدناه :

١ - ما رواه المافروخي إذ قال :

« حُكي انه كان في أيام صباه - والضمير يعود للصاحب - باصفهان إسكاف ، وكان مختلف الصاحب الى مدارسه بباب دكانه ، والاسكاف كلما مرَّ به الصاحب تسفَّـه عليه وأوسعه لعناً وسباً وتنقصاً وثلباً .. الخ » [3] .

٢ - قول الصاحب نفسه :

يا اصفهان سقيت الغيث من كثب ... فأنت مجمع أوطـاري وأوطـاني
والله والله لمـا أنس برّك بي ... ولو تمكنت من أقصى خراسان
سقياً لأيامنـا والشمل مجتمع ... والدهر ما خانني في قرب اخواني
ذكرت دعرت إذ طال الثواء بها ... يا بعد دعرت من أبواب جرجان [4]

وهذان النصان - كما يشاهد القارىء - صريحان في بيان ما نهدف اليه من

---

(١) معجم الادباء : ٢٨٦/٦ .
(٢) نفس المصدر : ١٦٨/٦ .
(٣) محاسن اصبهان : ٩٨ .
(٤) نفس المصدر : ١٣

ترجيح هجرة الصاحب الى اصبهان في صباه ، فهي مجمع أوطاره وأوطانه ، ومجتمع شمله وأخدانه ، وفيها درس أيام صباه ، وفي ديمرت طال ثواؤه وغناه .

ولعلّ مما يؤيد ذلك ما قرأناه في كتب التاريخ من نظرة الصاحب الخاصة لاصفهان ـ أيام وزارته ـ ؛ ومن عنايته الزائدة بها وبشؤون أهلها :

كبنائه جامعاً كبيراً لها على نفقته [1] .

وتشييد دار له بها [2] .

ومعاملته لأهلها بالحسنى [3]

وتخفيض الضرائب عن أهلها [4] .

ومدحه لها وتوصية الحكّام بملاحظتها [5] .

ثم ـ أخيراً ـ وصيته بأن يدفن فيها ـ كما سيأتي تفصيل ذلك ـ .

---

(١) نفس المصدر : ٨٥ ٠

(٢) نفس المصدر : ٩٠ ، ويتيمة الدهر : ٣/١٨٣ ٠

(٣) نفس المصدر : ٨٤ و٩٥ ٠

(٤) نفس المصدر : ٩٩ ٠

(٥) رسائل الصاحب بن عباد : ٣١ ٠

المؤرخين في تحديد عام وفاة ابن عباد خلاف نشير اليه في أدناه :

١ ـ وفاته عام ٣٨٤ هـ

نص على ذلك السمعاني [١] من القدماء ، وآدم متز من المتأخرين [٢] .

٢ ـ وفاته عام ٣٨٥ هـ

ذهب الى ذلك :

من القدماء : ابن العماد الحنبلي [٣] وابن خلكان [٤] والسيوطي [٥] وأبو الفداء [٦] والوزير أبو شجاع [٧] والثعالبي [٨] وابن الأثير [٩] وابن كثير [١٠] والوزير القفطي [١١] وعبدالرحيم العباسي [١٢] وياقوت الحموي [١٣] وشهاب الدين النويري [١٤] وأبو نعيم [١٥] وابن تغرى بردى [١٦]

---

(١) الانساب : ٤٦٣ .
(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى : ١/١٢١ .
(٣) شذرات الذهب : ٣/١١٣ .
(٤) وفيات الاعيان : ١/٢٠٩ .
(٥) بغية الوعاة : ١٩٧ .
(٦) تاريخ أبى الفداء : ٢/١٣٠ .
(٧) ذيل تجارب الامم : ٢٦١ .
(٨) يتيمة الدهر : ٣/٢٥٣ .
(٩) الكامل : ٧/١٦٩ .
(١٠) البداية والنهاية : ١١/٣١٦ .
(١١) انباه الرواة : ١/٢٠٢ .
(١٢) معاهد التنصيص : ٢/١٦١ .
(١٣) معجم الادباء : ٦/١٧١ .
(١٤) نهاية الارب : ٣/١٠٨ .
(١٥) أخبار اصبهان : ١/٢١٤ .
(١٦) النجوم الزاهرة : ٤/١٦٩ .

وابن حجر [١] وابن خلدون [٢] وصاحب النزهة [٣] وابن الجوزي [٤] وابن الشحنة [٥] .

ومن المتأخرين : شكيب أرسلان [٦] وعباس القمي [٧] والزركلي [٨] وآقا بزرك [٩] ولجنة دائرة المعارف [١٠] والدكتور ذبيح الله صفا [١١] وآدم متز [١٢] وآخرون غيرهم .

٣ ـ وفاته عام ٣٨٧ هـ

نصَّ على ذلك الشيخ بهاء الدين العاملي [١٣] ومحمد ربيع الأردستاني [١٤].

ومن مجموع هذه النصوص التاريخية يظهر :

(أولاً) ـ ان أكثرية المؤرخين ـ بل ما يشابه الاجماع ـ قد ذهبت الى وفاته عام ٣٨٥ ، ومن جملتهم الثعالبي ـ المعاصر للصاحب ـ وأبو شجاع ـ القريب الى ذلك العهد ـ .

---

(١) لسان الميزان : ١/٤١٤ .
(٢) تاريخ العبر : ٤/٤٦٦ .
(٣) نزهة الالباء : ٤٠١ .
(٤) المنتظم : ٧/١٧٩ .
(٥) تاريخ ابن الشحنة : ـ هامش الكامل ـ ١٢/٥ .
(٦) رسائل الصابى : ٢٨٠ فى الهامش .
(٧) الكنى والالقاب : ٢/٣٧٠ ، وهدية الاحباب : ١٧٠ ، وتتمة المنتهي : ٤٥٨ .
(٨) الاعلام : ١/١٠٦ .
(٩) الذريعة : ١/٥٦ ، و٤/٢١ .
(١٠) دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ : ١/٢٢١ .
(١١) تاريخ أدبيات ايران : ٥٣ .
(١٢) تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع : ١/١٣٤ .
(١٣) الكشكول : ٢٦١ .
(١٤) الارشاد : ٤٣ .

(ثانياً) ـ إن ذهاب آدم متز الى وفاته عام ٣٨٤ لايعتمد عليه ، لأنه عاد في موضع آخر من كتابه فأرخ بالتاريخ المشهور ـ كما أشرنا اليه في موضعه ـ مما يدل على أن قوله هذا لم يكن عن قصد وترجيح ، ولعله اعتمد على السمعاني في ذلك .

(ثالثاً) ـ لا نرى لنص السمعاني من القوة ما يمكّنه من الوقوف قائماً أمام نصوص الأكثرية الساحقة من المؤرخين ، ولعلّه سجّل ذلك سهواً ، أو كان من أخطاء النسّاخ .

(رابعاً) ـ كذلك لا نرى لتحديد البهائي والأردستاني قوة تقابل رأي الأكثرية ، ولعلهما حاولا بذلك تصحيح ما جاء عن الثعالبي من بلوغ الصاحب الستين ، ولا يتم ذلك ـ اذا كانت ولادته عام ٣٢٦ هـ ـ إلا باضافة سنتين ، وقد سبق لنا القول بأن الثعالبي لم يقصد من « لفظ الستين » هذا التحديد الدقيق ، بل ذكره على النحو المتعارف من اغتفار سنة أو سنتين في تخمين الأعمار ؛ خصوصاً وان الثعالبي قد نصّ صريحاً على وفاة الصاحب عام (٣٨٥) ـ كما مر عليك ـ .

ومهما يكن من أمر فان ابن عبّاد لما دخل في عام ٣٨٥ دعا من كان لديه من المنجمين ، وطلب منهم أن يخبروه عما يقع في هذا العام ـ ولعلها كانت عادة جارية له في كل عام ـ ، فلم يكن من المنجمين إلا أن لحوا له عن وفاته من طرف خفي ؛ فأنشأ يقول :

يا مالك الأرواح والأجسام ... وخالق النجوم و الأحكام
مدبّر الضياء والظـــلام ... لا المشتري أرجوه للانعام
ولا أخاف الضر من بهـــرام ... وإنما النجوم كالأعـــلام

والعلم عنــد الملك العلاّمِ يا رب فاحفظني من الأسقامِ
ووقني حوادث الأيــام وجُنــة الأوزار والآثامِ
هبني لحب المصطفى المعتــام وصنوه وآله الكرامِ (١)

ثم أردف ذلك بقوله :

أرى سنتي قد ضُمّنت بعجائبِ وربي يكفيني جميع النوائبِ
ويدفع عني ما أخاف بمنــه ويؤمن ما قد خوّفوا من عواقبِ
إذا كان من أجرى الكواكبَ أمرُه معيني فما أخشى صروف الكواكبِ
عليك أيا رب السماء توكلي فحطني من شرّ الخطوب الحواربِ
وكم سنةٍ حــذرتها فتزحزحت بخيرٍ وإقبــالٍ وجد مصاحبِ

الى آخر ما جاء في هذه القطعة الشعرية المؤثرة (٢) .

وكان مرضه الذي ابتلي به في أواخر أيامه نذيراً له بقرب المنيّة ودنو الأجل ، ولم يكن اسماعيل ممن يخفى عليه ذلك ، فأنشد يقول :

إني وحق خالقي على جناح السفرِ (٣)

وفي أثناء مرضه هذا « كان امراء الديلم وكبراء الناس يروحون الى بابه ويغدون ، ويخدمون بالدعاء وينصرفون ، وعاده فخر الدولة عدة مرات » (٤) .

وحكي « انه قال لفخر الدولة ــ أول مرة ــ وهو على يأس من نفسه : قد خدمتك ــ أيها الأمير ــ خدمة استفرغتْ قدر الوسع وسرت في دولتك سيرة جلبتُ لك حسن الذكر بها ، فان أجريت الأمور بعدي على نظامها ، وقررت

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/٢٥٢ ، وفرج المهموم : ١٨٠ .
(٢) يتيمة الدهر : ٣/٢٠٣ ، وفرج المهموم : ١٨١ .
(٣) يتيمة الدهر : ٣/٢٠٣ .
(٤) ذيل تجارب الامم : ٢٦١ .

القواعد على أحكامها ، نسب ذلك الجميل السابق اليك ، ونُسيت أنا في أثناء ما يثنى به عليك ، ودامت الاحدوثة الطيبة لك ، وإن غيرت ذلك وعدلت عنه كنتُ أنا المشكور على السيرة السالفة ، وكنت أنت المذكور بالطريقة الآنفة » (١)

وما إن أزف الوقت المحتوم ودقت ساعة الرحيل - وكان ذلك ليلة الجمعة لست بقين من صفر - حتى علت الواعية في دار اسماعيل ، وسرى الخبر بين الناس سريان النار في الهشيم ، فـ « أُغلقت مدينة الري ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر مخدومه فخر الدولة المذكور أولاً وسائر القواد وقد غيروا لباسهم ، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحـــدة ، وقبلوا الأرض ، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس » (٢) .

و « ما رؤي أحد وُفيّ من الاعظام والاكبار بعد موته ما وُفِّيه الصاحب ؛ فانه لما جهز ووضع في تابوته وأُخرج على أكتاف حامليه للصلاة عليه ؛ قام الناس بأجمعهم فقبلوا الأرض بين يديه ، وخرقوا عند ذلك ثيابهم ، ولطموا وجوههم ، وبلغوا في البكاء والنحيب عليه جهدهم » (٣) .

والشيء الذي يلفت النظر أن نجد القاضي عبدالجبار المعتزلي مخالفاً اجماعَ الشعب على حب الصاحب والترحم عليه والافتجاع به ، فقد روي عنه انه كان

---

(١) نفس المصدر ، وتجد مثل ذلك في الكامل : ١٧٠/٧ ، والبداية والنهاية : ٣١٦/١١ ، والمنتظم : ١٨١/٧ ، ومعجم الادباء : ١١٤/٢ .

(٢) وفيات الاعيان : ٢١٠/١ ، وتجد مثل ذلك في انباه الرواة : ٢٠٢/١ ، ومعجم الادباء : ٢٧٥/٦ ، وذيل تجارب الامم : ٢٦٢ ، وشذرات الذهب : ١١٥/٣ ، ومعاهد التنصيص : ١٦١/٢ .

(٣) معجم الأدباء : ٢٧٥/٦ .

يقول : « لا أرى الترحم عليه لأنه مات عن غير توبة ظهرت منه » [1] .

« فلا جرم أن فخر الدولة قبض عليه بعد موت الصاحب وصادره - فيما قيل - على ثلاثة آلاف الف درهم ، وعزله عن قضاء الري » [2] ، وذلك لما ظهر منه من قلة الوفاء وخسة النفس وخبث الطوية .

« فهلاّ نظر هذا القاضي في شأن نفسه ، ثم أفتى في شأن غيره مثل ابن عبّاد الذي قدّم قدمه وأثّل نعمته وراش جناحه ومهّد أحواله . صدق المثل : « تبصر القذى في عين غيرك وتدع الجزع المعترض في حلقك » ، فرحم الله من أبصر عيب نفسه فشغل بستره عن عيب غيره » [3] .

وبعد انتهاء مراسيم التشييع والصلاة وما الى ذلك حفظ تابوته و « علق بالسلاسل في بيت » [4] ثم كان نقله بعد حين « الى تربة له باصفهان » [5] .

وجلس فخر الدولة للعزاء أياماً [6] وكذلك فعل أبو العباس الضبي - خَلَفُه في الوزارة - ، ثم أرسل فخر الدولة بعد ذلك « ثقاته وخواصه حتى احتاطوا على الدار والخزائن .... ونقل جميع ما في الدار والخزائن الى دار فخر الدولة » [7] .

وهكذا مات اسماعيل بن عبّاد فماتت بموته فضائل وفواضل ، وشيم ومكارم ، وانفرط بفقده عقد الادباء والشعراء والعلماء ، فلا غرو اذا ما رأينا

(١) الكامل : ٧/١٧٠ .
(٢) معجم الادباء : ٦/٢٩٩ .
(٣) ذيل تجارب الأمم : ٢٦٣ .
(٤) نفس المصدر : ٢٦٢ .
(٥) نفس المصدر : ٢٦٢ .
(٦) وفيات الاعيان : ١/٢١٠ .
(٧) ذيل تجارب الامم : ٢٦٢ .

لحول الشعر في ذلك العصر يتبارون في رثائه بقصائدهم العامرة ، المفعمة بالألم ، الطافحة بالشجى ، الصارخة بهول الفجيعة ، كقصائد أبي القاسم الاصبهاني وأبي الفرج بن ميسرة وأبي سعيد الرستمي وأبي الفيّاض الطبري وأبي العباس العلوي والنيسابوري وأبي الحسن علي الحسني والشريف الرضي ، الى كثير من ذلك مما هو خارج عن الصدد [1] .

وينام أبو القاسم بن أبي العلاء يوماً فيرى في منامه قائلاً يعتب عليه لعدم رثائه الصاحب ، فيعتذر أبو القاسم ببعض الأعذار فيقول له القائل : أجز ما أقوله ، ثم أنشد :

فقال : ثوى الجود والكافي معاً في حفيرة

فأجابه : ليأنس كل منهما بأخيه

فقال : هما اصطحبا حيين ثم تعانقا

فأجابه : ضجيعين في لحد بباب دريه

فقال : اذا ارتحل الثاوون عن مستقرهم

فأجابه : أقاما الى يوم القيامة فيه [2]

وباب دريه المذكور في هذه الأبيات اسم محلة باصبهان دفن الصاحب في قبة فيها بعد نقله من الري ، « وهي عامرة الى الآن ، وأولاد بنته يتعاهدونها بالتبييض » [3] .

---

(١) راجع فى تفصيل مراثى الصاحب : يتيمة الدهر : ٣/٢٥٣–٢٦١ ، ومعاهد التنصيص : ٢/١٦١–١٦٢ ، وديوان الشريف الرضى ٣٧٩ ، وكتابى « شعراء الصاحب » الذى سوف نقدمه للطبع بعد الانتهاء من هـذا الكتاب .

(٢) معجم الادباء : ٦/٢٧٦ ، ومعاهد التنصيص : ٢/١٦٣ .

(٣) وفيات الأعيان : ١/٢٠٩ .

« قال . . . ابن البنداري الاصبهاني نزيل دمشق : هي عامرة الى الآن ، والعلويون من ولد بنته يبتاعون لها في الوقت بعد الوقت كلساً اصبهانياً يبيضونها به »[1] .

ويقول الخونساري : إنها قد اصيبت « بانهدام وفتور ؛ من مرور الدهور ، فأمر شيخنا الامام العلامة الحاج محمد ابراهيم . . . . بتجديد عمارتها وتطيينها ، وتشييد نضارتها وتزيينها ، فصارت كأحب موضع يرام ، وأجود منزل ومقام ، وهو سلمه الله تعالى ـ مع ما به ـ . . . ليس يدع زيارته أيضاً طول شهر أو شهرين بل أيّام ، إلا أنّ تلك المحلة المسعودة موسومة في زماننا بـ (باب الطوقجي) والميدان العتيق »[2] .

(١) انباه الرواة : ٢٠٢/١ .
(٢) روضات الجنات : ١٠٩ .

اخلاق و ملکات

تقديم

يجدر بي ـ وأنا أهدف الى دقة البحث ونخل النصوص واستخراج النتائج الصريحة ـ أن أقوم ـ قبل الدخول في التفاصيل المتعلقة بشخصية ابن عبّاد وملكاته الخلقية وغرائزه النفسية ـ بالاشارة الى المصدر الأول في هذا الموضوع ، والى مقدار الاعتماد على هذا المصدر في بحثنا الماثل بين يديك ؛ الذي نحاول أن نرسم فيه الصورة القلمية الدقيقة لأخلاق اسماعيل وسماته .

والمصدر الرئيس الأول الذي عثرنا عليه هو رسالة « مثالب الوزيرين » لأبي حيّان التوحيدي الأديب الشهير الكبير ، فقد حفلت بشروح وتفاصيل وقصص تحكي لنا بين سطورها شخصية الصاحب وخصاله وخلائقه ؛ بالشكل الذي لم نعثر على مثله في سائر كتب التاريخ والأدب التي ترجمت للصاحب أو أشارت اليه . خصوصاً ونحن نعلم ان أبا حيّان قد قصد ابن عبّاد الى الري واجتمع به طويلاً وعاشره مدة مديدة ، وشهد مواسمه وحضر مجلسه ، وتعرّف على حاله في الليل والنهار ؛ وفي ساعتي التبذل والوقار ، وشافه حجاب اسماعيل وخدمه ، وكتّابه وشعراءه ، وسائر رواد مجلسه والمترددين عليه ، فجاءت رسالته والمتوقع منها أن تكون مبنية على المرئيات والمشاهدات والاطلاعات الشخصية .

ولكنّ السؤال الذي يفاجىء الباحث - حينما يقرأ هذه الرسالة - هو معرفة مقدار الاعتماد على ما فيها من نقول وروايات ، وقصص وحكايات ، فبمعرفة ذلك يتجلى الموضوع أمام الباحث تصديقاً لها أو نبذاً لما فيها .

ولمعرفة هذه الناحية في الرسالة يجب أن نقف قليلاً عند علاقة أبي حيّان بالصاحب ، فنستقرىء الآثار التاريخية لنعرف كيف ابتدأت الصلة بينهما وكيف انتهت ، ومن نتيجة هذا الاستقراء التاريخي نستخلص ما نبتغيه من معرفة حقيقة ما حوته الرسالة صدقاً أو كذباً . لاسيما وان الرسالة قد كتبت بعد رجوع أبي حيّان من الرّي ومفارقته لابن عبّاد ، فلابد وانها تعتمد على معرفة كيفية فراق أبي حيّان لصاحبه ، وهل كان فراقاً بين صديقين يألان الاجتماع ويحبّان اللقاء ، أم كان فراقاً بين عدوين تصادقا أولاً ثم تطورت بهما الأحوال حتى تشاحّا وتنابزا ففارق كل منهما صاحبه غاضباً حنقاً يكيل له الشتم والسباب .

تبدأ العلاقة بين أبي حيّان وابن عبّاد بأن يسمع التوحيدي من أفواه الناس ان ابن عبّاد كريم النفس ، سخي اليد ، سماح الكف ، يحب الأدب والادباء ، ويحترم العلم والعلماء ، ويسعى كثيراً في سبيل جذبهم اليه ، وجمعهم بمجلسه ، وضمهم في ركابه ، فيجمع أبو حيّان حقائبه - وكانت مهنته الوراقة - ويدفعه حب الراحة والسلامة الى السفر الى الري والانخراط مع الادباء الذين وقفوا على باب الصاحب ، آملاً بأن يظفر من ابن عبّاد بالسعادة والمال ، ورغد العيش ، ورفاه الحياة ، والى ذلك يشير بقوله :

« إنما توجهت من العراق الى هذا الباب وزاحمت منتجعي هذا الربيع لاتخلص من حرفة الشؤم »[1] .

---

(١) معجم الادباء : ٢٨/١٥ .

وحرفة الشؤم هي الوراقة بجهدها وتعبها واتلافها العينَ وقتلها الوقت ، فأراد - بدخوله على ابن عبّاد والانخراط في زمرة منتجعي ربيعه - التخلص من وصب هذه الحرفة ، والتنعم بالحياة الوادعة المائعة البعيدة عن الأتعاب والمشقات .

ويحدثنا أبو حيّان عن اللقاء الأول للصاحب فيقول :

« وأما حديثي معه - والضمير لابن عبّاد - فانني حين وصلت اليه قال لي : أبو مَنْ ؟ قلت : أبو حيّان ، فقال : بلغني انك تتأدب ، فقلت : تأدب أهل الزمان ، فقال : أبو حيّان ينصرف أو لا ينصرف ؟ قلت : إن قبله مولانا لا ينصرف »[1] .

وهكذا تبدأ العلاقة بين أبي حيّان وابن عبّاد ، ثم تنتهي بعد سنوات بأسوء نتيجة واوخم عاقبة ، فما هو السبب الرئيس في هذه النهاية المؤسفة ، ومَن المسبب منهما لذلك ؟

وتتضح الاجابـــة على هذين السؤالين ، بل سوف يسبقني القارىء إلى الاجابة عليهما ، بعد الاطلاع على بعض ما رواه أبو حيان في مثالب الوزيرين :

أ - قال ابن عبّاد لأبي حيّان : « الزم دارنا وانسخ هذا الكتاب ، فقلت : أنا سامع مطيع ، ثم اني قلت لبعض الناس في الدار مسترسلاً : إنما توجهت من العراق الى هذا الباب ، وزاحمت منتجعي هذا الربيع ، لأتخلص من حرفة الشؤم »[2] .

ب - « قال الصاحب يوماً : فَعْلٌ وأفعال قليل ، وزعم النحويون انه ما جاء إلا زَنْد وأزناد وفَرْخ وأفراخ وفَرْد وأفراد . فقلت له : أنا أحفظ ثلاثين حرفاً كلها فعل وأفعال . فقال : هات يا مدّعي ، فسردت الحروف ودللت على مواضعها من الكتب ، ثم قلت : ليس للنحوي أن يلزم مثل هذا

---

(١) معجم الادباء : ١٥/٢٧ .
(٢) نفس المصدر : ١٥/٢٨ .

الحكم إلا بعد التبحر والسماع الواسع ، وليس للتقليد وجه اذا كانت الرواية شائعة والقياس مطرداً ، وهذا كقولهم : فعيل على عشرة أوجه ، وقد وجدته أنا يزيد على أكثر من عشرين وجهاً ، وما انتهيت في التتبع الى أقصاه . فقال : خروجك من دعواك في فَعْلٍ يدلنا على قيامك في فعيل ، ولكن لا نأذن لك في اقتصاصك ، ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجرأتك في مجلسنا وتبسطك في حضرتنا » [1] .

ج ـ « حضرت مائدة الصاحب بن عبّاد فقدمت مضيرة فأمعنت فيها ، فقال لي : يا أبا حيّان انها تضر بالمشايخ ، فقلت : إن رأى الصاحب أن يدع التطببً على طعامه فعل » [2] .

د ـ « قال لي الصاحب يوماً ـ وهو يحدث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ في قبوله ـ : « ولا بد من شيء يعين على الدهر » ، ثم قال : سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم ذلك فقلت : أنا أحفظ ذلك ، فنظر بغضب فقال : ما هو ؟ قلت : نسيت ، فقال : ما أسرع ذكرك من نسيانك ! قلت : ذكرته والحال سليمة ، فلما استحالت عن السلامة نسيت . قال : وما حيلولتها ؟ قلت : نظر الصاحب بغضب فوجب في حسن الأدب ألاّ يقال ما يثير الغضب . قال : ومن تكون حتى نغضب عليك ؟ دع هذا وهات . قلت : قول الشاعر :

أُلام على أخذ القليل وإنما ... أُصادف أقواماً أقلَّ من الذرِ

فان أنا لم آخذ قليلاً حُرِمته ... ولا بد من شيء يعين على الدهرِ

فسكت » [3] .

---

(۱) معجم الادباء : ۱۵/۲٦ .
(۲) نفس المصدر : ۱۵/۷ .
(۳) نفس المصدر : ۱۵/۳۲ـ۳۳ .

هـ - « قدَّم إليَّ نجاح الخادم - وكان ينظر في خزانة كتبه - ثلاثين مجلَّدة من رسائله وقال : يقول لك مولانا : انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان ، فقلت بعد ارتياء : هذا طويل ، ولكن لو أذن لي لخرجت منه فقراً كالغرر ، وشذوراً كالدرر ، تدور في المجالس . كالشمامات والدستنبويهات لو رقي بها مجنون لأفاق ، أو نفث على ذي عاهـــة لبرأ ، لا تمل ولا تستغث ولا تعاب ولا تسترك ، فرفع ذلك اليه »[1] .

ولا اريد أن اطيل بسرد القصص والشواهد فقد حفظها ياقوت في معجمه عند ترجمته لأبي حيّان ، وحسبنا هذه النماذج الخمسة من تلك القصص شاهداً وبرهاناً ، إذ نجد فيها ابا حيّان سيء السيرة والسلوك مع هذا الرجل الطموح المعجب بنفسه ، والذي لا يعرف في الدنيا من هو أحسن منه ، أو لا يعترف بذلك - على الأقل - .

أرأيت كيف يظهر تثاقله من امتثال أمر ابن عباد بنسخ احدى الكتب ؟

ثم أرأيت ردَّه على الصاحب في موضوع فعل وفعيل ؟

ثم أرأيت مجابهته الفظَّة للصاحب في موضوع المضيرة ؟

ثم أرأيت قراءته للبيتين الذين يحملان الطعن والتعريض بالصاحب ؟

وأخيراً أرأيت استهزاءه برسائل الصاحب وإشارته الى ما فيها من غث وركاكة وعيب وملل ؟

وماذا كان يُنتظر من الصاحب بعد فعل أبي حيّان هذا ؟

لقد كان الصاحب رحيما جداً وحليما الى حد بعيد ، إذ لم يؤاخذ أبا حيان على أفعاله وأقواله بعقاب عملي من جلد أو سجن أو تعذيب ، بل كل ما فعله

---

(١) معجم الادباء : ١٥/٣٤ .

انه أظهر له « اكفهرار وجه ونبو طرف وقلة تقبّل » على حد تعبير أبي حيّان ، وهذا من أخف ألوان العقاب بل لا يعد في ذلك العصر من العقاب بشيء .

وإذاً ، فالسبب الرئيس الذي أدّى الى هذه النهاية هو جهل أبي حيّان بما يجب عليه في مقابلات الوزراء والعظماء ، وعدم معرفته بالسبل التي ينفذ منها الى قلب صاحبه ونفسه ، وبالطرق الجميلة التي يستطيع بواسطتها التخلص من جهد ما طلب منه من نسخ وكتابة ووراقة .

ومن هنا نعرف ان المسبب لهذه النهاية هو أبو حيّان نفسه ، من دون أن يكون لابن عبّاد قصد أو يد ، واذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك ـ فان الواجب على أبي حيّان ألاّ يلومنّ إلا نفسه ولا يثلبنّ إلاّ جهله .

ويقول أبو حيّان في أثناء رسالته :

« وجرت أشياء . . . . كان عقباها اني فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً الى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة ، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ولا ما قيمته درهم واحد . . . . ولمّا نال مني هذا الحرمان الذي قصدني به وأحفظني عليه وجعلني من جميع غاشيته فرداً ، أخذت أُملي في ذلك بصدق القول عنه ، وسوء الثناء عليه ، والبادي أظلم »[1] .

ومن مجموع ما ذكرناه فيما مرّ نرى ان أبا حيّان قد حرّر هذه الرسالة وهو متأثر جداً من سوء صنيع الصاحب به ـ بحسب رأيه ـ ، مما أحفظه عليه وحرّضه على إملاء هذه الرسالة للحط منه ، والطعن فيه ، وسوء الثناء عليه ، مدفوعاً بدافع ألم الحرمان ، وألم الفشل والخيبة ، وألم الحقد والحسد والغيرة .

ولما كان غرضه من تأليف هذه الرسالة ما ذكرناه من الحط من كرامة

(١) معجم الادباء : ١٥/٣٢ .

ابن عبّاد وتعداد مساويه ونقائصه ؛ لم يكن من اللائق بالباحث الذي يتحرى الدقة في البحث ، ويتطلب الصحة في النتائج ، أن يجعل هذه الرسالة مصدراً يرجع اليه ويعول عليه ، لاحتمال أن يكون المؤلف قد دسَّ في كتابه كثيراً مما لا واقع له ، لغرض التشهير بعدوه وبيان عوراته ومخازيه .

واذا كنتُ في شك من دس أبي حيّان في رسالته هذه فلا اثبته ولا انفيه فان ابن حجر كان قاطعاً به إذ يقول :

« وكان - يعني ابن عبّاد - يبغض من يميل الى الفلسفة ، ولذلك أقصى أبا حيان التوحيدي فحمله ذلك على أن جمع مصنفاً في مثالبه أكثره مختلق »[1].

وفي هذا الكتاب يقول ياقوت :

« ان أبا حيّان كان قصد ابن عبّاد الى الري فلم يُرزق منه ، فرجع عنه ذامّاً له وكان أبو حيّان مجبولاً على الغرام بثلب الكرام ، فاجتهد في الغض من ابن عبّاد ، وكانت فضائل ابن عبّاد تأبى إلا أن تسوقه الى المدح وايضاح مكارمه ، فصار ذمه له مدحاً »[2].

وبناءً على النتيجة المستخلصة مما مرَّ رأيت أن اهمل كل رواية أو قصة ينفرد بنقلها أبو حيّان ، وكذلك كل مدح أو طعن لم يروه غيره ، بخلاف ما اذا كانت رواية التوحيدي مؤيدة برواية اخرى عن غيره ، فاني استقبلها حينئذ بثقة واطمئنان ، ثم أحكم لها أو عليها تبعاً للشواهد والبرهان .

---

(١) لسان الميزان : ١/٤١٤ .

(٢) معجم الادباء : ٦/١٨٧ .

ولعلّ من أبرز صفات صاحبنا وخلائقه : هذا العجب الكبير بالنفس ، وهذا الشعور الطافح بالتفوق والتسامي ، وهذا الزهو والخيلاء الباديان في شعره ونثره ، وحركاته وسكناته .

لقد كان ابن عبّاد معجباً بشعره ونثره ، وسياسته وإدارته ، وعلمه وأدبه ، وسائر أفعاله وأعماله ، وكان في الوقت نفسه مزدرياً لنتاج غيره ، مستصغراً من شأنه ، غير معترف بتفوق غيره عليه ، مهما بلغ من درجات العلم ومراقيه السامية ، بل ربما كان يرى في قرارة نفسه عدم وجود من يماثله ويشاكله على وجه المعمورة ، وإن لم يقل ذلك بصريح الكلام .

ولعلّنا لا نعدم العذر لابن عبّاد في زهوه وعجبه بنفسه ، فانه داء لم يسلم منه شاعر أو أديب ، مهما كان شعره من سمو أو انحطاط ، متانة أو ركاكة ، فكيف به اذا جمع الى الشعر والنثر والاجادة فيهما - على الأكثر - هيبة السلطان ، وقوة الصولجان ، والامرة الكبرى ، والسلطة المطلقة ، وكيف به اذا شاهد شيوخ الأدب وشعراء العصر وادباء الجيل يفدون اليه ويتثالون عليه ، ويلقون بأنفسهم بين يديه ، فانه من الطبيعي لرجل كهذا أن يبتلي بهذا الداء ، بل بأشد نوباته وأضرى هجماته .

وفي شرح ذلك يقول أبو حيّان :

« والذي غلّطه - يقصد الصاحب - في نفسه ، وحمله على الاعجاب بفضله والاستبداد برأيه ، انه لم يُجْبَه قط بتخطئة ، ولا قوبل بتسوئة ، لأنه نشأ على أن يقال : أصاب سيدنا وصدق مولانا - ولله دره - ما رأينا مثله ، من ابن عبد كان مضافاً اليه ؟ ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ؟ ومن ابراهيم

ابن العباس الصولي ؟ من صريع الغواني ؟ من أشجع السلمي ؟ اذا سلكا طريقهما . قد استدرك مولانا على الخليل في العروض ، وعلى أبي عمرو بن العلاء في اللغة ، وعلى أبي يوسف في القضاء ، وعلى الاسكافي في الموازنة ، وعلى ابن نوبخت في الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد في القراءات ، وعلى ابن جرير في التفسير ، وعلى ارسططاليس في المنطق ، وعلى الكندي في الجدل ، وعلى ابن سيرين في العبارة ، وعلى أبي العيناء في البديهة ، وعلى ابن أبي خالد في الخط ، وعلى الجاحظ في الحيوان ، وعلى سهل بن هارون في الفِقَر ، وعلى يوحنّا في الطب ، وعلى ابن يزيد في الفردوس ... الخ »[1].

ثم يقول بعد ذلك :

« وقد أفسده أيضاً ثقة صاحبه به وتعويله عليه وقلة سماعه من الناصح فيه »[2] .

وأيُّ رجل يبلغ مثل هذه الدرجة من التعظيم والتقدير ؛ ويلقى هذا الاكبار والاجلال ؛ ويسمع كل هذا الاطراء والثناء من أميره وسائر من لديه ، ثم لا يبتلي بهذا المرض العضال ؛ ولا تتشرب نفسه بالعجب والزهو والخيلاء - إلا من عصم الله - .

ولعلك الآن راغب في الاطلاع على أمثلة وشواهد ترشدنا الى حقيقة هذا الأمر ؛ وتدلنا على صدق ذلك فاليك منها :

أ - كان « يعمل في أوقاتٍ كالعيد والفصل شعراً ، ويدفعه الى أبي عيسى بن المنجم ويقول له : قد نحلتك هذه القصيدة ، امدحني بها في جملة الشعراء ، وكن الثالث من المنشدين فيفعل ذلك أبو عيسى وهو بغدادي محكك

(1) معجم الادباء : ٦/١٨٠-١٨١ .
(2) نفس المصدر : ٦/١٨٣ .

قد شاخ على الخدائع وتحنّك ، وينشد فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ووصفه بلسانه ومدحه من تحبيره أعد يا أبا عيسى ، فانك والله مجيد ، زه يا أبا عيسى قد صفا ذهنك ، وجادت قريحتك ، وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا في العيد الماضي ؛ المجالس تخرج الناس ، وتهب لهم الذكاء ، وتزيدهم الفطنة ، وتحول الكودن عتيقاً ، والمحمّر جواداً » [1] .

ب ـ « ناظر ـ ابن عبّاد ـ اليهوديَّ رأس الجالوت في إعجاز القرآن ، فراجعه اليهودي فيه طويلاً ، وماتنه قليلاً ، وتنكر عليه حتى احتدَّ وكاد يتقد ، فلما علم انه قد سجر تنوره ، وأسعط انفه ، احتال طلباً لمخادعته ، ورفقاً به في مخاتلته ، فقال : أيها الصاحب فلِمَ تتقد وتستشيط ، وتلتهب وتختلط ، كيف يكون القرآن عندي آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه ؟ فان كان النظم والتأليف بديعين ، وكان البلغاء فيما تدعي عنه عاجزين وله مذعنين فهأنا أصدق عن نفسي وأقول ما عندي : ان رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده به نظماً ونثراً هو فوق ذلك أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال فليس يظهر لي انه دونه ، وان ذلك سيستعلي عليه بوجه من وجوه الكلام ، أو بمرتبة من مراتب البلاغة ، فلما سمع ابن عبّاد هذا فتر وخمد ، وسكن عن حركته ، وانحص ورمه به ، وقال : ولا هكذا يا شيخ ، كلامنا حسن وبليغ ، وقد أخذ من الجزالة حظاً وافراً ، ومن البيان نصيباً ظاهراً ، ولكن القرآن له المزية التي لا تجهل والشرف الذي لايخمل .. الخ» [2]

---

(١) معجم الادباء : ٦/١٧٧ـ١٧٨ .

(٢) نفس المصدر : ٦/٢١٨ـ٢١٩ .

ج ـ « قال ابن عبّاد يوماً : كان أبو الفضل ـ يعني ابن العميد ـ سيداً ، لم يشق غبارنا ، ولا أدرك شوارنا ، ولا مسح عذارنا ، ولا عرف غرارنا لا في علم الدين ، ولا فيما يرجع الى نفع المسلمين . . . . وولدت والشعرى في طالعي ، ولولا دقيقة لأدركت النبوة ، وقد أدركت النبوة إذ قمت بالذب عنها والنصرة لها »[1] .

د ـ « كان عنده أبو طالب العلوي فكان اذا سمع منه كلاماً يسجع فيه ، وخبراً ينمقه ويرويه ، يبلق عينيه ، وينشر منخريه ، ويري انه قد لحقه غشيٌ حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ ما عراك ؟ ما الذي نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاي يروقني ويؤنقني حتى فارقني لبي وزايلني عقلي وتراخت مفاصلي وتخاذلت عرى قلبي وذهل ذهني وحيل بيني وبين رشدي ، فيتهلل وجه ابن عبّاد عند ذلك وينتفش ويضحك عجباً وجهلاً ، ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ، ويقدمه على جميع بني أبيه وعمه »[2] .

هـ ـ « نزل بالصيمرة عند عوده من الأهواز ، فدخل عليه شيخ من زهّاد المعتزلة يعرف بعبدالله بن اسحاق ، فقام له ، فلما خرج التفت كافي الكفاة وقال : ما قمت لأحد مثل هذا القيام منذ عشرين سنة ، وإنما فعل ذلك به لزهده ، فانه كان أحد أبدال دهره ، فأما العلم فقد كان يرى من هو أعلم منه فلا يحفل به »[3] .

و ـ « ورد الى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه :

---

(١) معجم الادباء : ٢٣٣/٦ .
(٢) نفس المصدر : ٢٣٧/٦ .
(٣) نفس المصدر : ٢٤٦/٦ـ٢٤٧ .

رسائل مَنْ تقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبدكان . قال : ومَنْ ؟ قال : رسائل الصابي ، وغمزه أحد جلسائه ليقول : رسائل الصاحب فلم يفطن ، ورآه الصاحب فقال : تغمز حماراً لا يحس »[1] .

ز ـ « لم يكن يقم لأحد من الناس ولا يشير الى القيام ولا يطمع أحد منه في ذلك كائناً من كان »[2] .

حـ ـ يقول الصاحب في احدى قصائده :

الجـد أجمع ما حـــوته يميني والفخر يصغر أن يكون خديني
والدهر موطأ أخمصي والناس بذ لة ملبسي والرأي بعض ظنوني
والجود يركع خاضعاً لأناملي والبـــدر يسجد خاشعاً لجبيني
والحرب بين صرائمي وصوارمي إن جا طحون رجائها بزبون[3]

(١) معجم الادباء : ٢٥٨/٦ .
(٢) بغية الوعاة : ١٩٧ .
(٣) ديوانه المخطوط : ١١٦ ـ نسخة مصورة بمكتبتي الخاصة ـ .

وبالرغم من هذا العُجب القوي المنصب على نفسه ، وهذا الرضا والانس بكل ما يصدر منه ، فانه كان لين الجانب ، واسع الصدر ، كثير التحمل ، طريّ الأخلاق ، جمّ التواضع ، وتلك صفات يقل بل يندر تغلغلها في نفوس الأمراء والوزراء في تلك العهود الغابرة .

ونظراً لكثرة ما روي في التاريخ عن تواضع ابن عبّاد وجميل خلقه وكريم خلاله ، فاننا لا نستطيع أن نهمل هذه الكثرة لمجرد تسجيل حادثة أو حادثتين لم يكن فيها اسماعيل متواضعاً - بالمعنى المعروف - .

ومع غض النظر عن كثرة تلك وقلة هذه ، فاننا إذ نجد من صاحبنا ما ينافي المشهور عنه والمعروف من خلقه ، ثم نحرم الدليل على معرفة شاهد الحال وحقيقة الوضع حين حدوث الحادثة ، لا يمكننا الانسياق مع هذه النصوص والجري وراءها ، وهي - كما قلنا - كالدعاوى المجردة عن الشاهد والدليل ، فكيف بنا اذا علمنا ان هذه الحوادث قد سجلت بأقلام أعداء اسماعيل والحاقدين عليه كأبي حيّان واضرابه ممن عرفوا بالشغف بثلب الكرام ، فلا مناص إذن من إهمال هذه القصص والأخبار ما دمنا في شك منها ومن واقعها الصحيح .

ومما احتفظ به التاريخ من الدلالة على مقدار التواضع الذي كان يتحلى به اسماعيل هذه المطارحات الشعرية بينه وبين أبي هاشم العلوي .

يقول الصاحب لأبي هاشم :

إن أبا هاشمٍ يد الشرفِ ... مادحه آمِنٌ من السرفِ
حلّ من المجد في أواسطه ... وخلّف العالمين في طرفِ

ويقول أبو هاشم مخاطباً الصاحب :

وإذا الكريم نبت به أيامه ... لم ينتعش إلا بعون كريم
فأعِنْ على الخطب العظيم فانّما ... يرجى الكريم لدفع كل عظيم

وكتب الصاحب لأبي هاشم في مرضه :

أبا هاشم مالي أراك عليلا ... ترفق بنفس المكرماتِ قليلا
لترفع عن قلب النبي حزازة ... وتدفع عن صدر الوصي غليلا
فلو كان من بعد النبيين معجز ... لكنت على صدق النبي دليلا

فأجابه أبو هاشم :

دعوتُ إلـه الناس شهراً محرّماً ... ليدفع سقم الصاحب المتفضلِ
الى بدني أو مهجتي فاستجاب لي ... فها أنا ـ مولانا ـ من السقم ممتلي
فشكراً لربي حين حوّل سقمه ... إليّ وعافاه ببرءٍ معجّلِ
وأسأل ربي أن يديم علاءه ... فليس سواه مفزع لبني علي

فردَّ الصاحب عليه بقوله :

أبا هاشم لم أرض هاتيك دعوةً ... وإن صدرت عن مخلصٍ متطولِ
فلا عيش لي حتى تدوم مسلّماً ... وصرف الليالي عن ذراك بمعزلِ
فان نزلت يوماً بجسمك علة ... وحاشاك فيها يا علاء بني علي
فنادِ بها في الحال غير مؤخرٍ ... الى جسم اسماعيل دوني تحولي(١)

أرأيت هذه العاطفة الجياشة والتواضع الجم والأدب الرفيع والخلق الوصين ؟ أينظم هذه الأبيات رجل متكبر متعجرف بعيد عن التواضع والرقة ولين الجانب ؟

---

(١) اليتيمة : ٤/٥٥ـ٥٦ .

ويقول الصاحب لأبي بشر الجرجاني - قاضي جرجان - وقد اعتل :

تشكى الفضل من سقم عراه ... فأنّ الفضلُ أجمع من أنينه
وعاد بعقوتي يشكو جواه ... كما يحنو القرين على قرينه
فقلت له : وقاك الله فيه ... فان السعد يطلع من جبينه
هو العين التي أبصرت فيها ... وصار سواد عيني في جفونه
ستفديه يميني لا شمالي ... فعين المرء خير من يمينه (١)

ومما يروى عن اسماعيل انه كان يتلقى أبا الحسن الجرجاني في بلده جرجان أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد ، قال : وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيه بي وتواضعه لي فأنشدني :

أكرم أخاك بأرض مولده ... وأمدّه من فعلك الحسنِ
فالعزُّ مطلوب وملتمس ... وأعزّه ما نيل في الوطنِ (٢)

الى كثير من أمثال ذلك ممّا تراه مفعماً بالعطف واللين والتواضع والخلق الجميل الكريم .

(١) يتيمة الدهر : ٤/٤٥ .
(٢) النثر الفنى : ٢/٨-٩ .

ومما يرويه أبو حيان من مثالب ابن عبّاد قوله :

« الناس كلهم يحجمون عنه لجراءته وسلاطته واقتداره وبطشته ، شديد العقاب ... بذيء اللسان ... مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب . الخ »[1]

ثم يروي أبو حيان في أثناء رسالته من الأمثلة على ذلك هذه القصة :

« قال يوماً صدر قول الشاعر :

والمورد العذب كثير الزحام

فسكتت الجماعة ، فقال ابن الداري :

يزدحم الناس على بابه

فأقبل عليه بغيظ ، وقال : ما عرفتك إلا متعجرفاً جاهلاً ، أما كان لك بالجماعة اسوة ؟ »[2] .

ولا يمكنني تصديق أبي حيان والاعتراف بصدق ما قال ، بعدما قرأت في التاريخ عدة حكايات رُويت عن ابن عبّاد ، وكلها تنتهي بحلمه وعفوه وسعة صدره وكظمه لغيظه ، ولعلّ من أوضح ما يصلح أن يكون رداً على أبي حيان وبرهاناً على وضعه لقصة ابن الداري ـ السالفة الذكر ـ ما رواه ياقوت في قصة مشابهة إذ يقول :

« قال أبو بكر الخوارزمي : أنشدنا الصاحب هذه القوافي ليلة ـ وذكر الأبيات ـ وقال : هل تعرفون نظيراً لمعناها في شعر المحدثين ؟ فقلت : لا أعرف إلا قول البحتري :

(١) معجم الادباء : ٦/١٧٥ـ١٧٦ .
(٢) نفس المصدر : ٦/٢٢٦ .

ومن عجب الدهر أن الأمير ... أصبح أكتب من كاتبه

قال : فقال : جوّدت وأحسنت . هكذا فليكن الحفظ »[1] .

ثم حسبنا في معرفة حلمه ما نقرأه في القصص الآتية :

أ ـ « كان قاضيه ـ عبد الجبار المعتزلي ـ يكتب في عنوان كتابه : الى الصاحب . داعيه عبدالجبار بن أحمد ، ثم كتب : وليه عبد الجبار بن أحمد ، ثم كتب : عبد الجبار بن أحمد ، فقال الصاحب لندمائه : أظنه يؤول أمره الى أن يكتب : الجبّار »[2] .

ب ـ يقول أبوحيان : « أنشدت يوماً على باب ذاك ـ يعني ابن العميد ـ قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في ظل دولة ... جمال ولا مال تمنّى انتقالَها

وما ذاك من بغضٍ لها غير أنه ... يؤمل اخرى فهو يرجو زوالَها

فرفع اليه إنشادي فأخذني وتوعدني وقال : انج بنفسك فاني إن رأيتك بعد هذا أولغت الكلاب دمك ، وكنت قاعداً على باب هذا منذ أيام فأنشدت البيتين على سهو فرفع الحديث اليه فدعاني ووهب لي دريهمات وخريقات وقال : لا تتمنّ انتقال دولتنا بعد هذا »[3] .

جـ ـ « قال قوم من أهل اصبهان لابن عبّاد : لو كان القرآن مخلوقاً لجاز أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنّا نصلي التراويح في رمضان؟ قال : لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضاً ويقول : لا حياة لي بعدك ولا نصلي التراويح ونستريح »[4] .

(١) معجم الادباء : ٦/٣١٠ .
(٢) نفس المصدر : ٦/٢٥٧ـ٢٥٨ .
(٣) نفس المصدر : ٦/٢٢٧ .
(٤) نفس المصدر : ٦/٢١٨ .

د ـ حدث الصاحب فقال : « ما أفظعني إلا شاب ورد علينا الى اصبهان بغدادي فقصدني فأذنت له ، وكان عليه مرقعة وفي رجليه نعل طاق ، فنظرت الى حاجبي فقال له وهو يصعد إليّ : اخلع نعلك ، فقال : ولِمَ ولعلي أحتاج اليها بعد ساعة ، فغلبني الضحك وقلت : أتراه يريد أن يصفعني ؟ »[1] .

هـ ـ « كان مكي المنشد قديم الصحبة والخدمة للصاحب فأساء اليه غير مرة والصاحب يتجاوز له ، فلما كثر ذلك منه أمر الصاحب بحبسه »[2] .

و ـ كان الصاحب قد « استدعى يوماً شراباً من شراب السكر فجيء بقدح منه فلما أراد شربه قال له بعض خواصه : لا تشربه فانه مسموم ، فقال له : وما الشاهد على صحة ذلك ؟ قال بأن تجربه على من أعطاكه . قال : لا استجيز ذلك ولا استحله ، قال : فجربه على دجاجة . قال : ان التمثيل بالحيوان لا يجوز ، وأمر بصب ما في القدح ، وقال للغلام : انصرف عني ولا تدخل داري بعدها وأقرّ رزقه عليه وقال : لا تدفع اليقين بالشك ، والعقوبة بقطع الرزق نذالة »[3] .

ز ـ « قال الصاحب : ما افحمني أحد كالبديهي ، فانه كان عندي يوماً وأُتينا بفاكهة ومشمش فأمعن فيه ، فاتفق أني قلت : إن المشمش يلطخ المعدة ، فقال : لا يعجبني الميزبان اذا تطبب »[4] .

ومن التأمل في هذه النصوص نجد صفة الحلم عند اسماعيل بارزة جلية لكل ذي عينين ، فقاضيه يتدرج في تكبره عليه فلا يغيظه ذلك ، وأبو حيّان

(١) معجم الادباء : ٦/٢١٤ .
(٢) معجم الادباء : ٦/١٨٦ .
(٣) نفس المصدر : ٦/١٨٥ ، وانظر فى قصة الكأس : البداية والنهاية : ١١/٣١٥ ومعاهد التنصيص : ٢/١٥٤ ، والمنتظم : ٧/١٨١ .
(٤) يتيمة الدهر : ٣/١٧٦ .

يتمنى زوال دولته فلا يزبد ويرعـــد - كما فعل ابن العميد - ، وبعض أهل اصبهان يستهزأون بذهابه الى كون القرآن مخلوقاً فينساق معهم في تندرهم ، وشاب لا يرضى بخلع نعليه في مجلسه فلا يبدو التأثر عليه ، وخادمه مكي يسيء مراراً فيعفو عنه ، وخادم آخر يأتيه بالشراب المسموم فلا يأمر بقتله ، بل يديم له راتبه ورزقه الشهري ، الى كثير من أمثال ذلك مما يضيق به المجال .

وهل يكون كل ذلك صادراً من رجل سليط شديد العقاب بذيء اللسان ، مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، قـــوي البطش - كما يدعي أبو حيّـان - .

يقول أبو حيان في ذلك :

« شديد العقاب طفيف الثواب »[1] .

ويقول أيضاً :

« إن عطاء ابن عباد لا يزيد على مائة درهم وثوب الى خمسمائة ، وما يبلغ الى الألف نادر ، وما يوفي على الألف بديع . بلى قد نال به ناس من عرض جاهه على السنين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف ، وعدد هؤلاء قليل جداً »[2].

ويقول أبو العلاء الأسدي :

إذا رأيت مسجّى في مرقّعة ... يأوي المساجد حراً ضره بادي
فاعلم بأن الفتى المسكين قد قذفت ... به الخطوب الى لؤم ابن عبّاد[3]

ويقول أبو بكر الخوارزمي :

لا تحمدنْ ابن عبّاد وإن هطلت ... كفّاه يوماً ولا تذممه إن حرما
فانها خطرات من وساوسه ... يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرما[4]

ويقول أبو الحسن الغوري :

إن كان اسماعيل لم يدعني ... لأنْ أكل الخبز صعب عليه
فانني آكل في منزلي ... اذا دعاني ثم أمضي اليه[5]

ومن هذه الجمل المنثورة والأبيات المتفرقة نرى أن هؤلاء الرجال قد حكموا

(١) معجم الادباء : ٦/١٧٥ .
(٢) معجم الادباء : ٦/٢٣٦-٢٣٧ .
(٣) معجم الادباء : ٦/٢٩٣ ، ويتيمة الدهر : ٣/٢٥١ .
(٤) معجم الادباء : ٦/٢٥٦ .
(٥) يتيمة الدهر : ٣/٢٥١-٢٥٢ .

على ابن عبّاد بالبخل والشح واللؤم ، وتفاهة العطاء ، وتطفيف الثواب ، وقلة البذل ، بالشكل الذي يبخل فيه الصاحب بأكل الخبز في داره ، وبنحو يوجب أن يلقب قاصده بالمسكين الذي قذفت به الخطوب ، فاذا أراد أن يعطي شيئاً أو يمنح أحداً فما ذاك إلا خطرات من وساوسه ، فهو يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً .

واني لأعجب من رجل كالصاحب بخله الذي ينسبه هؤلاء له ، وبهذا المقدار الكبير من الخساسة والدناءة والشح ، كيف مدحه خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين[1] ، وكيف تهافت العلماء والأدباء على باب داره بهذا للشكل الفذ العظيم ، حتى « شبهه مادحوه بهارون الرشيد ، وذلك لأنه أشبه الرشيد بأن جمع حوله أحسن أهل اللسن »[2] ، وهل يتم ذلك لأحد بغير البذل والكرم والعطاء والسخاء ؟.

نعم . لقد كان اسماعيل سخي اليد كريم النفس كثير العطاء ، ولكنّه لم يكن يعطي كل شاعر وأديب لمجرد أدبه وشعره ، من دون ملاحظته لمقدار علاقة هذا الشاعر أو الأديب بمجلسه وبشخصه ، ولهذا نجده قد حرم أبا حيان والخوارزمي والأسدي والغويري من عطائه فحسبوا ذلك بخلاً ، أو أرادوا ايهام الناس فعدّوا ذلك من البخل ، وما هو منه بشيء ، وأي كريم أو جواد في التاريخ بعثر أمواله ونثرها على أعدائه الحاقدين عليه والطاعنين فيه ؟.

وحسبنا في معرفة هذه الصفة من صفاته الخلقية أن نقف على النصوص التاليـــة :

أ ـ « كان ما يخرج لكافي الكفاة في السنة في وجوه البر والصدقات

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٥٧ .

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع : ١/١٣٤ .

والمبرّات وصلات الأشراف وأهل العلم والغرباء الزوّار ومن يجري مجرى ذلك مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا وأجر الآخرة يزيد على مائة الف دينار »[1].

ب - « كان الصاحب أبو القاسم يراعي مَن ببغداد والحرمين من أهل الشرف وشيوخ الكتاب والشعراء وأولاد الادباء والزهّاد والفقهاء بما يحمله اليهم في كل سنة مع الحاج على مقاديرهم ومنازلهم »[2].

ج - روى عوف بن الحسين الهمذاني التميمي : « قال : كنت يوماً في خزانة الخلع للصاحب فرأيت في ثبت الحسبانات . . . . مبلغ عمائم الخز التي صارت في تلك الشتوة في خلع العلويين والفقهاء والشعراء سوى ما صار منها في خلع الخدم والحاشية ثمانمائة وعشرين »[3].

د - رأى أبو القاسم الزعفراني الشاعر جميع الخدم والحاشية في دار الصاحب وهم يرفلون بالخزوز الملونة الفاخرة فنظم هذه الأبيات وأنشدها بين يدي ابن عبّاد :

سواك يعد الغنى ما اقتنى ... ويأمره الحرص أن يخزنا
وانت ابن عبّادٍ المرتجى ... تعد نوالك نيل المنى
وخيرك من باسطٍ كفّه ... وممن ثناها قريب الجنى
غمرت الورى بصنوف الندى ... فأصغر ما ملكوه الغنى
وغادرت أشعرهم مفحماً ... وأشكرهم عاجزاً ألكنا
أيا من عطاياه تهدي الغنى ... الى راحتيْ من نأى أو دنا
كسوت المقيمين والزائرين ... كُساً لم نخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في ... ضروب من الخز إلا أنا

(1) معجم الادباء : ٦/٢٤٩ .
(2) نفس المصدر : ٦/٣٠٠ .
(3) نفس المصدر : ٦/٢٦٩ .

« فقال الصاحب : قرأت في أخبار معن بن زائدة ان رجلا قال له : احملني ، فأمر له بفرس وبغلة وحمار وناقة وجارية ، ثم قال : لو علمت أن الله خلق مركوباً غيرها لحملتك عليه ، وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب ، ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخز لأعطيناكه ، ثم أمر بادخاله الى الخزانة ، وصيرت تلك الخلع اليه ، وسلم ما فضل عن لبسه في الوقت الى غلامه »[1] .

هـ - « مرض مرة بالاسهال ، فكان كلما قام عن المطهرة وضع عندها عشرة دنانير لئلا يتبرم به الفراشون فكانوا يتمنون لو طالت علته ، ولما عوفي أباح للفقراء نهب داره وكان فيها ما يساوي نحواً من خمسين ألف دينار من الذهب »[2] .

و - « كان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائناً من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده ، وكانت داره لا تخلو كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها ، وكانت صلاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر مثل ما يجري منه في جميع شهور السنة »[3] .

ز - « كان ينفذ الى بغداد في السنة خمسة آلاف دينار تفرق على الفقهاء والأدباء »[4] .

ح - أجمع الشعراء الذين شاركوا في رثائه على ذكر كرمه وجوده وصلاته

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٦٩-٢٧٠ ، وانظر : معاهد التنصيص : ٢/١٥٣ ، ويتيمة الدهر : ٣/١٧١ ، ووفيات الاعيان : ١/٢٠٧ ، وشذرات الذهب : ٣/١١٤ .

(٢) البداية والنهاية : ١١/٣١٥ ، وانظر : معاهد التنصيص : ٢/١٥٧ ، والمنتظم : ٧/١٨١ .

(٣) هدية الاحباب : ١٧٠ ، وانظر : الكنى والالقاب : ٢/٣٧٠ ، ومعاهد التنصيص : ٢/١٥٤ ، واليتيمة : ٣/١٧٤ .

(٤) معاهد التنصيص : ٢/١٥٧ ، وانظر : المنتظم : ٧/١٨٠ ، والبداية والنهاية : ١١/٣١٤-٣١٥ .

وعطاياه ، وشعر الرثاء ـ بعد فقد الرجل وعدم وجود من يُخشى أو يُرجى من ذوي قرباه ـ أصدق الشعر وأبعثه من القلب ، وأخلاه من الكذب والوضع والتلفيق ، ونقتصر من مجموع تلك القصائد على أبيات من قصيدة الشريف الرضي:

يا طالب المعروف حلّق نجمه ... حطَّ الحمول وعطّل الأجمالا
وأقم على يأس فقد ذهب الذي ... كان الأنام على نداه عيالا [1]

الى أن يقول :

هيهات فاتهم تراث مخاطر ... حفظ الثناء وضيّع الأموالا
قد كان أعرف بالزمان وصرفه ... من أن يثمّر أو يجمّع مالا
مفتاح كل ندى ورب معاشرٍ ... كانوا على أموالهم أقفالا [2]

ويقول فيها :

قالوا ـ وقد جثوا بنعشك سائراً ـ: ... من ميّل الجبل العظيم فمالا ؟
فتبادروا عظّ الجيوب وعاجلوا ... عضّ الأنامل يمنة وشمالا
ما شققوا إلا كساك وألموا ... إلا أنامل نلن منك سجالا
من ذا يكون معوّضاً ما رزقوا ... ومعوّلاً لمؤملٍ وثمالا ؟
فرغت أكفٌ من نوالك بعدها ... وأطال عظم مصابك الاشغالا [3]

وبهذا القدر من الشواهد التاريخية أكتفي عن التطويل والتفصيل ، وقد عرفنا منها ان صفة الكرم من الصفات المتأصلة المتمركزة في نفس الصاحب ، وان ما يروى في خلاف ذلك إما أن يكون مدسوساً لا واقع له ، أو له واقع خاص يختلف عن سرد الرواية وتصويرها .

---

(١) ديوان الشريف الرضى : ٣٧٩ .
(٢) ديوان الشريف الرضى : ٣٨٢ .
(٣) ديوان الشريف الرضى : ٣٨٢ ، وانظر فى مراثى الصاحب : يتيمة الدهر : ٣/٢٥٤ وما بعدها ، ومعجم الادباء : ٦/٢٧٦ و٢٩٥ ، وعدة أماكن متفرقة اخرى فى الكتاب .

بالرغم من فارسية ابن عبّاد وأعجميته ، فقد كان عدواً للشعوبية ، مبغضاً للتعصب الأعجمي ، بل كان – على حد تعبير الشيخ الحر العاملي – : « أعجمياً إلا انه يفضل العرب على العجم »[1] .

ومما يروى عنه في ذلك قوله مخاطباً رجلاً يتعصب للعجم ويعيب العرب بأكل الحيّات :

يا عائب الأعراب من جهله   لأكلها الحيّات في الطعمِ
فالعجم طول الليل حيّاتهم   تنساب في الأخت وفي الأمِّ[2]

وروى عبدالرحيم العباسي بهذا الصدد هذه القصة :

« قال بديع الزمان الهمذاني : كنت عند الصاحب بن عبّاد فأتاه رجل بقصيدة يفضل فيها العجم على العرب ، وهي :

غنينا بالطبول عن الطلولِ   وعن عنس عذافرة ذمولِ
وأذهلني عقاري عن عقاري   ففي آست أم القضاة مع العدول
فلست بتاركٍ ايوان كسرى   لتوضح أو لحومل فالدخول
وضب بالفلا ساع وذئب   بها يعوي وليث وسط غيل
اذا ذبحوا فذلك يوم عيد   وإن نحروا ففي عرس جليل
يسلّون السيوف برأس ضبٍ   هراشاً بالغداة وبالأصيل
بأيـة رتبـةٍ قدمتموها   على ذي الأصل والشرف الجليل
ألا لو لم يكن للفرس إلا   نجار الصاحب العدل النبيل

---

(١) أمل الآمل : ٤٦٢ .
(٢) يتيمة الدهر : ٣/٢٤٤ .

ا ـكان لهم بذلك خير عزٍ وجيلهم بذلك خـــير جيل

فلما بلغ الى هنا قال له الصاحب : قدك ، ثم اشرأب ينظر الى الزوايا وأطراف القوم فلم يرني ، وكنت في زاوية من زوايا البيت ، فقال : أين أبو الفضل ؟ فوثبت وبست الأرض بين يديه ، فقال : أجبه عن ثلاثتك . قلت : وما هي ؟. قال : أدبك ونسبك ومذهبك ، فقلت ـ ولا مهلة للقول إلا بما تسمع ـ :

أراك على شفا خطرٍ مهولِ بما أودعت نفسك من فضولِ
طلبت على مكارمنا دليلاً متى احتاج النهار الى دليـــل
ألسنا الضاربين جزى عليهم فأي الخزي أقعد بالذليـــل
متى فرع المنـــابر فارسيٌّ ؟ متى عرف الأغر من الحجول ؟
متى علقت ـ وأنت بهم زعيم ـ أكف الفرس أعراف الخيول
فخرت بملء ماضغتيك فخراً على قحطان والبيت الأصيل
وحقك أن تباريها بكسرى فما ثور ككسرى في الرعيل
فخرت بنحو ملبوس وأكل وذلك فخر ربّات الحجول
تفاخرهن في خد أسيل وفرع من مفارقها رسيل
فأمجد من أبيك اذا أثرنا عـــراة كالليوث وكالنصول

قال : فلما أجبته بهذه الأبيات نظر الصاحب بن عبّاد الى الرجل فقال : كيف ترى ؟ قال : لو سمعت به ما صدقت ، قال : فاذن جائزتك إن وجدتك بعدها في مملكتي أمرت بضرب عنقك ، ثم قال : لا ترون رجلاً يفضل العجم على العرب إلا وفيه عرق من المجوسية يرجع اليها »[1] .

---

(١) معاهد التنصيص : ٢/١٥٥ .

مذهب الدين

أن يكون الصاحب بن عبّاد مسلماً راسخ الايمان صادق الاعتقاد صريح الاعتراف بالاصول الاسلامية قويّ الدفاع عن الدين ؛ فهو أمر مفروغ عنه لدى المؤرخين ، حيث أجمعوا على ذلك ؛ وحيث صرحت كلمات الصاحب به في سائر كتبه الكلامية ومؤلفاته العقائدية وشعره الديني .

أما النزاع المسجَّل الماثل في كتب التاريخ فيدور حول تعيين الطريقة المذهبية التي اختارها ابن عبّاد لنفسه ، فقد عُدَّ في عداد الشيعة الامامية والزيدية والمعتزلة والحشوية والحنفية والشافعية ؛ من دون أن يحاول هؤلاء المؤرخون على كثرتهم تمحيص النقول واستخلاص الواقع المندس خلال هذه الأقاويل ، فرأيت الواجب العلمي يدعوني الى الوقوف عند هذه النقطة الغامضة من تاريخ الصاحب وقفةً تحل الغموض وتجلو الواقع ؛ فلعلي اوفق الى كشف المجهول وإزاحة الالتباس .

واسجل فيما يلي - مقدمة لبحث الموضوع - سائر أقوال المؤرخين ونُقولهم ، ليلمس القارىء بنفسه مقدار الاضطراب الذي منيت به هذه الناحية من حياة ابن عبّاد في كتب التاريخ .

١ - كان شيعياً إمامياً :

أ - قال ابن أبي طي : « كان إمامي الرأي ، وأخطأ من زعم انه كان

معتزلياً . . . . قال : وشهد الشيخ المفيد بان الكتاب الذي نسب الى الصاحب في الاعتزال وضع على لسانه ونسب اليه وليس هو له »[1] .

ب ـ قال ابن العماد : « وكتاب الامامة يذكر فيه فضائل علي رضي الله عنه ويثبت إمامته على من تقدمه ، لأنه كان شيعياً »[2] .

ج ـ قال محمد تقي المجلسي : « كان من أفقه فقهاء أصحابنا المتقدمين والمتأخرين ، وكل مايذكر من العلم والفضل فهو فوقه »[3] .

د ـ لما توفي الصاحب قال عبد الجبار القاضي المعتزلي : « لا أرى الترحم عليه لأنه مات عن غير توبة ظهرت منه »[4] ، وفي لسان الميزان انه قال : « كيف اصلي على هذا الرافضي ؟ »[5] .

هـ ـ قال الشيخ الصدوق محمد بن علي المعروف بابن بابويه القمي في مقدمة كتابه « عيون أخبار الرضا » : « وقع إليّ قصيدتان من قصائد الصاحب الجليل كافي الكفاة أبي القاسم اسماعيل بن عبّاد اطال الله بقاءه ، وأدام دولته ونعماءه ، وسلطانه وإعلاءه ، في إهداء السلام الى الرضا علي بن موسى . . . . فصنفت هذا الكتاب لخزانته المعمورة ببقائه ، إذ لم أجد شيئاً آثر عنده وأحسن موقعاً لديه من علوم أهل البيت عليهم السلام ، لتعلقه بحبهم ، واستمساكه بولايتهم ، واعتقاده بفرض طاعتهم ، وقوله بامامتهم ، واكرامه لذريتهم ، أدام الله عزه واحسانه الى شيعتهم ، قاضياً بذلك حق إنعامه عليّ ،

---

(١) لسان الميزان : ١/٤١٦ .
(٢) شذرات الذهب : ٣/١١٥ .
(٣) أعيان الشيعة : ١١/٣٣٤ .
(٤) ذيل التجارب : ٢٦٢ ، والكامل : ٧/١٧٠ ، ومعجم الادباء : ٦/٢٩٩ .
(٥) لسان الميزان : ١/٤١٦ .

ومتقرباً بـــه اليه لأياديه الزُهر عندي ومننه الغرّ لديّ » [1].

كما صرّح بتشيعه كلٌّ من :

أبي علي محمد بن اسماعيل	في	منتهى المقال : ٥٦
محمد بن الحسن الحر العاملي	في	أمل الآمل : ٤٣
أبي القاسم القوبائي	في	الارشاد : ٣١
البهائي محمد بن الحسين	في	« : ٣٢ ـ ٣٣
القاضي نور الله المرعشي	في	أعيان الشيعة : ١١/٣٦٣
ابن شهراشوب	في	معالم العلماء : ١٣٦
محمد باقر المجلسي	في	بحار الأنوار : ١/١٦
محمد باقر الخونساري	في	روضات الجنات : ١٠٥
السيد محسن الأمين	في	أعيان الشيعة : ١١/٣٦٣
السيد حسن الصدر	في	تأسيس الشيعة : ١٥٩
الشيخ آقا بزرك الطهراني	في	الذريعة : ١/٥٦ و ٤/٢١
الشيخ عباس القمي	في	تتمة المنتهى : ٢ / ٤٥٨
الشيخ عبد الحسين الأميني	في	الغدير : ٤/٥٥
الشيخ عبد العزيز الجواهري	في	آثار الشيعة الامامية : ٤/٨٥

٢ ـ كان معتزلياً :

أ ـ خاطب الأمير فخر الدولة وزيره ابن عبّاد فقـــال : « بلغني انك تقول : ان المذهب مذهب الاعتزال .. » [2].

---

(١) عيون أخبار الرضا : ٣ .
(٢) معجم الادباء : ٦/٢٨٤ .

ب ـ قال الصفدي : « ومن المعتزلة أبو القاسم اسماعيل بن عبّاد »[1].

جـ ـ قال ابن حجر : « كان صدوقاً إلا انه كان مشتهراً بمذهب المعتزلة داعية اليه »[2].

د ـ قال أبو حيان التوحيدي : « كان لابن عبّاد قوم يسميهم الدعاة يأمرهم بالتردد الى الأسواق وتحسين الاعتزال للبقال والعطار والخباز ونحو ذلك »[3].

وقال : « والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجنة بطرائقهم »[4].

وقال لما غضب الصاحب عليه حينما بلغه استهزاء التوحيدي برسائله : « حتى كأني طعنت في القرآن أو رميت الكعبة بخرق الحيض أو عقرت ناقة صالح أو سلحت في بئر زمزم أو قلت : كان النظام مأبوناً أو مات أبو هاشم في بيت خمار أو كان عبّاد معلم صبيان »[5].

وقال : « قال ابن عبّاد في الخلوة وقد جرى حديث المذهب : كيف أترك هذا المذهب ـ يعني الاعتزال ـ وقد نصرته وأشهرت نفسي به وعاديت الصغير والكبير عليه وانقضى عمري فيه »[6].

هـ ـ قال الدكتور أحمد أمين : « والصاحب بن عبّاد كان يعتقد مذهب الاعتزال وينصره وبذلك اعتنق كثير من أهل هذه البلاد الاعتزال »[7].

---

(١) الكشكول للبهائي : ٢١٢ .
(٢) لسان الميزان : ١/٤١٣ .
(٣) لسان الميزان : ١/٤١٥ .
(٤) الامتاع والمؤانسة : ١/٥٤ .
(٥) معجم الادباء : ١٥/٣٤ـ٣٥ .
(٦) لسان الميزان : ١/٤١٥ .
(٧) ظهر الاسلام : ١/٢٤٩ .

وقال : « كان الصاحب بن عبّاد نصر الاعتزال وقرب اليه المعتزلة إذ كان معتزلياً »[1] .

و ـ قال الدكتور ذبيح الله صفا ما ترجمته : « كان بعض رجال الشيعة من تلاميذ أئمة المعتزلة ، وقد قربوا بين عقائدهم وعقائد اولئك ، ومن هؤلاء الصاحب الكافي اسماعيل بن عبّاد المتوفى عام (٣٨٥ هـ) الذي كان من تلاميذ أبي هاشم الجبائي ، وقد جمع أبو هاشم بين الاعتزال والتشيع فكوّن منها الطريقة البهشمية التي أصبح غالب المعتزلة في أول القرن الخامس من أتباعها »[2].

ز ـ قال أبو بكر عبدالله بن محمد الأسكي في الصاحب :

كل برٍ ونــوالٍ وصلهْ   واصل منك الى المعتزلهْ
يا ابن عبّادٍ ستلقى ندماً   لفراق الجــيرة المرتحلهْ[3]

ح ـ قال الدكتوران عبدالوهاب عزام وشوقي ضيف في مقدمتهما لرسائل الصاحب : « ونحن نجد في الرسائل نزعة واضحة الى القول بالاعتزال والدعوة اليه . . . والغريب ان الصاحب لا يدعو الى التشيع في رسائله ويدعو الى الاعتزال وهناك رسالتان طريفتان في الباب السابع عشر وهما نصان صريحان في أنه كان يبعث دعاة له الى البلدان المختلفة يدعون الناس الى الدخول في مذهب المعتزلة »[4] .

ط ـ كما ذهب الى اعتزاله كل من :

---

(١) ظهر الاسلام : ١/٢٥٣ .
(٢) تاريخ أدبيات در ايران : ١/٥٣ ، وتراجع ص ٢٠٣ منه .
(٣) تتمة اليتيمة : ١/٩٦ .
(٤) مقدمة الرسائل : (ع) .

الشيخ المفيد المتوفى عام (٤١٣ هـ) [١] وقد ألف كتاباً في الرد على الصاحب باسم: «النقض على ابن عبّاد في الامامة» [٢].

والسيد المرتضى حيث ألف كتاباً باسم الانصاف في الرد على ابن عبّاد [٣].

٣ ـ كان شيعياً معتزلياً:

أ ـ قال الرافعي القزويني: «ولولا ان بدعة الاعتزال وشنعة التشيع شنعت أوجه فضله، وغلوّه فيهما حطّ من علوّه لقلّ من يكافئه» [٤].

ب ـ قال عبدالرحيم العباسي: «وكان شيعياً جلداً ـ كآل بويه ـ معتزلياً» [٥].

جـ ـ لما ورد عبدالسلام المأموني الشاعر الى الري ومدح الصاحب فنال إعجابه واحترامه دبت عقارب الغيرة في نفوس ندماء ابن عبّاد وشعرائه؛ فوشوا به الى الصاحب وهم تارة «ينسبونه الى الدعوة في بني العباس ومرة يصفونه بالغلو في النصب واعتقاده تكفير الشيعة والمعتزلة» [٦].

٤ ـ كان زيدياً حنفياً:

قال أبو حيان: «ويتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيدية» [٧].

---

(١) اليقين: ١٧٤.
(٢) رجال النجاشي: ٢٨٤.
(٣) اليقين: ١٧٤.
(٤) لسان الميزان: ١/٤١٦.
(٥) معاهد التنصيص: ٢/١٥٧.
(٦) يتيمة الدهر: ٤/١٤٩.
(٧) الامتاع والمؤانسة: ١/٥٥.

٥ ـ كان شافعياً شيعياً :

« وكان ـ مع اعتزاله ـ شافعي المذهب شيعي النحلة »[١] .

٦ ـ كان حشوياً :

« كان حشوياً لا يعول عليه ، وكان يبغض من يميل الى الفلسفة »[٢] .

* * *

هذا بعض ما سجله المؤرخون من أقوال متضاربة وآراء مختلفة ونقول متناقضة في هذا الموضوع ؛ من دون أن يجشموا أنفسهم بحث الموضوع ونخل الآراء واستنتاج الحقيقة الضائعة بين هذه الأكوام .

واذا قرأنا تاريخ الصاحب وكتبه وشعره ورسائله لم نجد أيّ أثر لشافعيته وزيديته وحنفيته وحشويته ، وما ذكره المؤرخون من تمذهبه بهذه المذاهب لا يخرج عن أن يكون عن جهل واشتباه ؛ أو قصد لتشويه سمعته وطعنه في عقيدته ، وإذن فلا حاجة للوقوف عند هذه الناحية بعد فقدنا لما يدعمها من دليل .

ولكن الوقفة الكبرى يجب أن تكون عند النصوص التي ذهبت الى تشيعه والاخرى التي ارتأت اعتزاله ، لأن الأدلة على كلا الطرفين متوفرة ؛ والبراهين على كلا النقلين قائمة ، وفيما يلي قائمة بما دل على تشيع الصاحب أو اعتزاله مما سجله الصاحب نفسه في شعره ونثره ، تمهيداً لما سوف نذكره بعد ذلك من حقيقة مذهبه الذي كان عليه :

---

(١) لسان الميزان : ٤١٣/١ .
(٢) نفس المصدر : ٤١٤/١ .

ما يدل على اعتزاله :

١ ـ قال في الابانة : « وذهبت طائفة من الشيعة ذاهلة عن تحقيق الاستدلال ان علياً عليه السلام كان في تقية فلذلك ترك الدعوة لنفسه ، وزعمت ان عليه نصاً جلياً لا يحتمل التأويل ، وقالت العدلية : هذا فاسد . كيف تكون عليه التقية في إقامة الحق وهو سيد بني هاشم ، وهذا سعد بن عبادة نابذ المهاجرين وفارق الأنصار ولم يخش مانعاً ودافعاً وخرج الى حوران ولم يبايع ، ولو جاز خفاء النص الجلي عن الامة في مثل الامامة لجاز أن ينكتم صلاة سادسة وشهر يصام فيه غير شهر رمضان فرضاً ، وكل ما أجمعت عليه الامة من أمر الأئمة الذين قاموا بالحق وحكموا بالعدل فهو صواب »[١] .

٢ ـ قال في عنوان المعارف : « وأتبعت ذلك بذكر من خوطب بالخلافة على النسق غير مرتب المفضول والفاضل والجائر والعادل ، إذ لو ابتدأت بأتم الخلفاء فضلاً وأعدلهم عدلاً لافتتحت بسيد المهاجرين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب »[٢] .

٣ ـ قال في التذكرة : « الاصول الخمسة : التوحيد والعدل والصدق في الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[٣] .

٤ ـ استعماله الكثير لكلمتي العدل والتوحيد اللتين كانتا من شعار المعتزلة وعباراتهم الخاصة ـ وإن كانت الشيعة عدلية أيضاً ـ ، حيث لم نجد

(١) الابانة : ٢٨ . ضمن المجموعة الاولى من نفائس المخطوطات .
(٢) عنوان المعارف : ٥ . فى المجموعة الاولى من نفائس المخطوطات .
(٣) نفائس المخطوطات : ٨٧/٢ .

في ذلك العصر من يكثر من ترداد هاتين الكلمتين ومن يجعلها علماً وعنوانا سوى المعتزلة . خصوصاً وقد عبر الصاحب عن نفسه وعن أصحابه بالعدلية في رسالة الابانة الصريحة باعتزاله ، وفي رسالته في ترجمة عبد العظيم الحسني روى ما رُوي عن عبد العظيم في العدل والتوحيد فقط [1] ، ويقول في رسالة له الى أحد أصدقائه : « كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده والتصديق بوعده ووعيده . . . وقد أعان الله على بث كلمة الحق وسمعَ الأكثر على لين ورفق » [2] ، ويقول في رسالة اخرى الى أهل الصيمرة : « إذ كنتم بحمد الله ومنّه وطوله وفضله المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله وصدقه في وعيده ووعده » [3] .

ويقول في شعره :

ادينه بالعدل والتوحيـــد والصدق في الوعد وفي الوعيد

قد جهلت في قدم القرآن كمثل جهل عابد الصلبان

الحمد لله إذ كان المشيب على الـ ـتوحيد والعدل لا جبر وتشبيه

العدل والتوحيـــد كل معاقلي وولاء آل الطهر كل حصوني

العدل والتوحيـــد في جانب وحب آل البيت في جانب

٥ ـ قال في الهداية والضلالة : « لأن مشائخنا كأبي الفضل جعفر بن حرب وأبي موسى عيسى بن صبيح وأبي جعفر الاسكافي وأبي علي محمـــد بن عبدالوهاب وأبي القاسم البلخي وأبي عثمان عمرو بن بحر قد صنفوا في هـــذا الباب كتباً مفردة » [4] .

(١) نفائس المخطوطات ـ المجموعة الرابعة ـ : ٢١ـ٢٢ .
(٢) رسائل الصاحب بن عباد : ٢١٩ .
(٣) نفس المصدر : ٢١٩ .
(٤) الهداية والضلالة : ٤٨ .

يقول الصاحب في إحدى قصائده :

وأوصى الى خير الرجال ابن عمه وإن ناصب الأعداء فيه فما هدوا
تولى امور الناس لم يستقلهم ألا ربما يرتاب من يتقلدُ
ولا ارتجعت منه ـ وقدسار ـ سورة وغضوا لها أبصاركم وتبددوا

ويقول في اخرى :

قالت : فمن ساد في يوم الغدير أبن فقلت : من صار للاسلام خير ولي

ويقول أيضاً :

أهلاً وسهلاً بأهل بيتك يا إمامَ عدلٍ أقامه اللهُ
ويا غدير انبسط لتسمعهم من كنت مولاه فهو مولاهُ

ويقول أيضاً :

يا حيدر الشهم البطل من لم يشايعك يضل
أنت الذي ولّي في براءة فما اعتزل
أنت الذي تدعى إلى الـ طير على رغم السفل
أنت الذي عقوده يوم الغدير لا تحل

ويقول أيضاً :

أنت يوم الغدير صدر الموالي حين خلفتهم مع الأعجاز

ويقول :

حلوا وقد عقدوا كما نكثوا وقد عهدوا فقل في نكث باغٍ مبطلِ
وافوا يخبرنا بضعف عقولهم ان المدبر ثمَّ ربةُ محملِ
هل صيّر الله النساء أئمةً ؟ يا امة مثل النعام المهملِ

ويقول :

تركوا الشراب وقد شكوا علل الصدا ... وتعللوا جهلاً بلمع سرابِ
لم يعلموا ان الوصي هو الذي ... حكم الغدير له على الأصحابِ

* * *

هذه بعض كلمات الصاحب وأبياته المتضاربة في بيان المذهب الذي ارتضاه لنفسه ، ولعل بين بعض هذه النصوص تناقضاً صريحاً لا لبس فيه ، كنفيه النص الجلي ثم اعترافه بأن الغدير قد حكم للوصي على الأصحاب ، ولا بد لي قبل تسجيل الرأي النهائي في الموضوع أن أُمهد للنتيجة بمقدمتين :

(الاولى) إن كثيراً من الالتباس وكثيراً من الخبط والخلط قد وقع في موضوع التشيع والاعتزال حتى وجدنا كثيراً من الشيعة وقد نسب اليهم الاعتزال والعكس بالعكس .

ويرجع هذا الالتباس والخلط الى عدة أسباب ساعدت عليه ، وفي طليعتها هذا التوافق الكبير بين الشيعة والمعتزلة في أكثر الآراء الكلامية والاصول الفلسفية ، وخصوصاً في موضوع صفات الله – ثبوتية وسلبية – وعدله وخلق الأفعال وما اليه ، مما يسبب الاشتباه للمؤرخ فيظن هذا كذاك أو ذاك كهذا [1] .

ولا ابالغ إذا زدت فقلت : إن الدراسة الدقيقة لفلسفتي الشيعة والمعتزلة تدلنا بوضوح على ان اسس الاعتزال واصوله الاولى مأخوذة من التشيع

---

(١) يقول الاستاذ الدكتور عبدالوهاب عزام : « يعرف التاريخ صلة دائمة بين التشيع والاعتزال منذ كانا ، ويظهر ان التشيع اقترن فى هذا العصر – القرن الرابع – اقترانا تاما بالاعتزال ؛ اذ كان اهل السنة يكرهون التشيع والاعتزال جميعا » . رسائل الصاحب : ص ع .

ومشتقة منه ؛ وان فكرة المذهب وفلسفته مقتبسة - بدقة - من مبادىء التشيع وفلسفته ، وتكفينا نظرة واحدة الى نهج البلاغة للامام علي عليه السلام ؛ والى مرويّات المحدّثين عن الامامين محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام في الكلام واصول الدين لاثبات صدق هذه الدعوى .

ويؤكد ذلك ما روي من ان واصل بن عطاء قد أخذ اصول الاعتزال الاولى من أبي هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب [1] ، وإنه لأقصر الطرق الموصلة الى علي وآرائه العلمية والفلسفية .

ولا أنفي أن يكون الاعتزال قد تطور بعد حين من ظهوره ؛ فتعددت اتجاهاته وتشعبت مدارسه ؛ حتى اختلف عن التشيع في بعض النقاط اختلافاً جوهرياً بارزاً للعيان ، كما تجد ذلك في المقارنة التي عملها السيد الشريف المرتضى علي بن الحسين بين آراء الشيعة والمعتزلة في بعض الاصول [2] . ولكن الجذور الاولى للاعتزال مأخوذة من التشيع بلا شك .

وهذا هو اكبر الاسباب - في رأيي - لهذا الخلط التاريخي بين الشيعة والمعتزلة وبين التشيع والاعتزال ؛ مضافاً الى العامل السياسي عامل المطاردة التي منيت بها الشيعة ؛ والضغط الشديد والمحاربة السافرة التي جوبه بها أنصار هذا المذهب ومعتنقوه ، في الوقت الذي كان القول ببعض اصول الاعتزال رائجاً مشهوراً ، وكان التظاهر به لا يسبب بلاءً ولا يجر الى نقمة ، مع اشتراك الاعتزال والتشيع في القول بأكثر الاصول الدينية ، ومع ذهاب اكثر المعتزلة الى تفضيل علي عليه السلام على من تقدمه من الخلفاء ، وهكذا كان باستطاعة

---

(١) فلسفة المعتزلة : ١٣/١ .
(٢) راجع : نفائس المخطوطات - المجموعة الخامسة - : ٧٢-٨٢ .

الشيعي أن يحقن دمه بالتظاهر بالاعتزال ، ثم كان باستطاعته الدعوة الى بعض عقائده واصوله مصبوغة بصبغة المعتزلة ، فكان ذلك من أسباب خلط المؤرخين في هذا الموضوع .

هذا كله بالاضافة الى أن بعض المؤرخين - غير المؤمنين - قد حاولوا أن ينسبوا للتشيع كل من مدح علياً وأثنى عليه وروى بعض فضائله ومناقبه من المعتزلة ، بل نسبوا للتشيع كل من اتصل برجال الشيعة وتلمذ عليهم وأخذ منهم ، كما تجد ذلك في ترجمة ابن أبي الحديد المعتزلي ونجم الدين علي بن عمر الكاتبي وكثير من أمثالهما .

ولا يسعنا في هذه العجالة تفصيل البحث في هذه الشؤون فلذلك موضع آخر ، بل تكفينا الاشارة الموجزة والنظرة العابرة في معرفة بعض الأسباب التي سببت هذا الالتباس التاريخي في تعريف التشيع والاعتزال والتفريق بين الشيعة والمعتزلة .

ولا غرابة إذن اذا ما رأينا المؤرخين وهم ينسبون ابن عبّاد الى التشيع والاعتزال بنحو الجزم تارة وبنحو التشكيك اخرى ، فان أسباب الخلط - كما أسلفنا - متعددة متكثرة .

(الثانية) عرفت ايران بعض مبادىء الاعتزال من يوم ميلاده بل من قبل أن يكون مبدءاً وعقيدة ، لأن الجهمية - اتباع جهم بن صفوان - كانت تدعو الى خلق القرآن ونفي الأزل ، وكانت منتشرة الرأي قوية الدعاية وخاصة في منطقة خراسان ، ثم تلا الجهمية - بعد حين - حفصُ بن سالم حيث سافر الى خراسان وأعلن دعوته هناك فأجابه خلق كثير [1] .

---

(١) المنية والأمل : ١٩-٢٠ .

وبواسطة حفص دخل الاعتزال ايران فحل في المنطقة التي كانت تؤمن قبل ذاك ببعض مبادىء الاعتزال في ضمن تعاليم الجهم بن صفوان الجبري ، ثم كان لواصل ـ بعد ذلك ـ اثر كبير في انتشار الاعتزال في تلك النواحي حيث كان يخرج بنفسه لمناظرة السمنية فيجيبونه الى الاسلام [١] ، وكذلك كانت مساعي أبي القاسم الباخي ذات شأن بارز في شيوع الدعوة هناك [٢] .

وتطورت الدعوة الاعتزالية مع الزمن حتى بلغت ذروتها في عهد المأمون والمعتصم والواثق ، فراحت تغزو المسلمين وتحتل الأذهان في كل بلد وكل صقع ، وقد حاول رجالها أن يدعموها بالاقناع المنطقي من جهة والضغط المسلح من جهة اخرى ، فكان لاجتماع المنطق والسلاح في تدعيم هذه الفكرة أثره الكبير في تقدم الدعوة وشيوعها وانتشارها في سائر أصقاع المعمورة .

وما إن مات الواثق واستولى المتوكل على زمام السلطة حتى أخذت قوة المعتزلة بالانهيار ، ومني سلطانها بالاندحار ، حيث أعلن المتوكل ـ رسمياً ـ سخطه وعدم رضاه على هذه الجماعة ، ثم أخذ في محاربتهم والتنكيل بهم بلا رحمة ولا هوادة ، وأظهر الناس الشماتة بهم والتشفي منهم ، وتجلى ذلك بأظهر صوره في تشييع جنازتي أحمد بن نصر وأحمد بن حنبل حيث شيعتا بما لم يسبق له مثيل .

ولما شعر المعتزلة بالخطر الذي يهددهم ويحيط بهم من كل جانب رأوا ضرورة الابتعاد عن عاصمة الخلافة ـ بغداد ـ ليكونوا أبعد عن المراقبة وترصد العيون ، فاتجهوا نحو ايران بشكل منظم جداً ، وكان اختيارهم لايران مبنياً على علمهم بأن اذهان الفرس لا تزال على ذكر من بعض آرائهم ومعتقداتهم ؛ حيث

---

(١) المنية والأمل : ٢١ .

(٢) نفس المصدر : ٥١ .

سبق لخراسان أن كانت جبرية من أتباع الجهم الذي يوافق المعتزلة في كثير من النقاط ، كما سبق لأهاليها الاستماع الى واصل بن عطاء وحفص بن سالم وأبي القاسم البلخي ؛ وهؤلاء من أقطاب المعتزلة وكبارهم في العهود الاعتزالية الاولى - كما مر سابقاً - .

وهكذا بدأ المذهب يستعيد مجده في ايران بعد أن فقده في العراق فانتشر في اصفهان بواسطة محمد بن ابراهيم الزبيري من أتباع أبي الهذيل العلاف [١] ، وفي جرجان ونيسابور بواسطة أتباع أبي هاشم بن الجبائي [٢] ، وفي الري وحواليها على يد أصحاب الحسين بن محمد النجار [٣] .

ودخل في الاعتزال جماعة من مشاهير الفقهاء [٤] ، حتى رأى المقدسي في رحلته في أطراف العالم الاسلامي ان عوام الري يتابعون الفقهاء في خلق القرآن حتى لتقع العصبيات بينهم في ذلك ، كما رأى ان معظم سكان خوزستان من المعتزلة وقد التقى في رامهرمز - احدى مدن خوزستان - بشيخ يدرس الكلام على مذاهب المعتزلة [٥] .

* * *

وفتح ابن عباد عينيه في هذا المحيط المشبع بهذه الروح ؛ وفي هذه البيئة المؤمنة بهذا المبدأ ؛ وعلى والده العالم المعتزلي الذي صنف كتاباً في أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه [٦] ، فلا غرابة اذا ما تمذهب ابن عباد بهذا المذهب ؛ واتخذه ديناً وطريقاً الى الله تعالى مقلداً في كل ذلك أهل بيته

(١) فلسفة المعتزلة : ١/٣٤ .
(٢) نفس المصدر : ١/٣٤ .
(٣) الملل والنحل : ٦١ .
(٤) خطط المقريزي : ٤/١٨٤ .
(٥) أحسن التقاسيم : ٤١٣ و٤١٥ و٤٩٥ .
(٦) معجم الادباء : ٦/١٧٢ .

وبيئته ، فكان اعتزال الصاحب في أول نشأته أمراً طبيعياً ونتيجة منطقية لمن يولد في بلدة معتزلية ويعيش في كنف أب معتزلي

وهكذا بقي الصاحب معتزلياً حتى مات من دون أن ينقل عدولُه عن ذلك أو انتقاله منه الى غيره ، إلا في مسألة الامامة حيث نرى الصاحب فيها ذا قولين، فهو يصرح في رسالة الابانة ـ كما مر عليك ـ بعدم وجود نصٍ جلي على إمامة علي عليه السلام ؛ ثم نراه في مواطن اخرى من شعره وهو معترف بذلك أوضح الاعتراف وأجلاه ، مما يظهر ان الابانة قد الفت في شبابه يوم كان منكراً للنص الجلي ، ثم انتهى بتطور الزمن الى الاعتراف بالنص كما اسلفنا من دون أن يؤثر ذلك في اعتزاله مطلقاً ، وفي الاعتراف بالنص يقول :

ما ضرَّه جحد الرجال له وغدير خم كاشف الأمرِ

ويقول :

وقضى الغدير بما قضى والصبح للظلماء طاردْ

ويقول :

جذب النبي بضبعه يوم الغديـ ـر ووكد التعريف بالتعيينِ

ويقول :

ما باله وَليٌّ في براءة إذ صرفوا
ما بالهم يوم الغديـ ـر لم ينلهم شرفُ

مضافاً الى ما سبق الاستشهاد به من شعره الدال على تشيعه .

فالصاحب ـ إذن ـ معترف بالنص الجلي في أكثر سني حياته ولكنه لم يتبرأ من اعتزاله ـ بعد اعترافه بالنص ـ ، فهو يقول :

قالت: فما اخترت من دين تفوز به ؟ فقلت : إني شيعي ومعتزلي

ويقول عند تعرضه لبني أمية :

إن لم اتابع لعنها فتركت دي ن الاعتزال وتركه إلحادُ
إن لم افضّل احمداً ووصيّه فهدمت مجداً شاده عبّادُ

ولا تناقض في ذلك ولا تضاد ، لأن الاعتزال مذهب عقلي صرف حُكِّم فيه عقل الانسان بعد أن حرر من كل قيود التقليد ، فدرس المعتزلة اصول الدين دراسة حرة مجردة ، واقتبسوا كل ما روي عن علي عليه السلام بهذا الصدد ، ثم كونوا لهم رأياً خاصاً بهذه الشؤون لا يتنافى مع الايمان بالوصية أو عدم الايمان بها ، ولذلك فلا غرابة اذا ما كان الصاحب شيعياً ومعتزلياً كما لا غرابة اذا ما كان غيره سنياً ومعتزلياً [1] .

وإذن . فالصاحب شيعي ومعتزلي - كما عبر عن نفسه وأفصح عن عقيدته - ، ولا يصح لنا أن نتساق مع بعض المؤرخين الذين نفوا اعتزاله بشكل جازم ، فان حكمهم عليه بالتشيع وحده حكم صادر عن العاطفة ومنبعث عن الرغبة النفسية من دون استناد الى الواقع ، أو تمحيص للحقائق .

---

(١) يقول الدكتور البير نادر : « وبالرغم عن ندورة المصادر التى وصلتنا عن المعتزلة - لا سيما فيما يتعلق بمسألة الامامة - استطعنا بعد الجهد استخلاص آرائهم المتباينة فى هذه المسألة فليس للمعتزلة رأى واحد فى هذا الموضوع الخطير . ان الأكثرية منهم يشاطرون الشيعة فى قولهم : بأن « لا امامة الا بالنص والتعيين » ، والأقليةمنهم يشاطرون اهل السنة فى قولهم بأن الامامة ينالها من هو أهل لها » . فلسفة المعتزلة : ٢/١٤٨-١٤٩ .

ويروى الشهرستانى عن النظام قوله : « لا امامة الا بالنص والتعيين ظاهرا مكشوفا ، وقد نص التعيين على [على] فى مواضع وأظهره اظهارا لم يشتبه على الجماعة ، الا أن عمرا كتم ذلك ، وهو الذى تولى بيعة أبى بكر يوم السقيفة » . الملل والنحل : ١/٦٤ .

وللصاحب ـ بعد ذلك ـ من القصص المشعرة باعتزاله والمبينة لمقدار علاقته المتينة مع أقطاب المعتزلة ورجالهم . شيء كثير مسجل في معاجم التاريخ لا أجد حاجة لنقله وسطره فليراجع هناك [1] .

(١) معجم الادباء : ٦/٢١٧ـ٢١٨ ؛ و٦/٢٢٥ ؛ و٦/٢٤٦ ؛ و٦/٢٥٧ـ٢٥٨ ؛ و١٩/١٩٠ ، والحضارة الاسلامية : ١/٢٧٦ .

القسم الثاني

قبل الوزارة

تمهيد

في العام الحادي والعشرين بعد الثلاثمائة من الهجرة ولدت دولة آل بويه ؛ تلك الدولة التي « نبعت بما لم يكن في حساب الناس ، ولم يخطر بعضه ببال أحد ، فدوخت الامم وأذلت العالم ، واستولت على الخلافة فعزلت الخلفاء وولتهم ، واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، وانقادت لأحكامها امور بلاد العجم وامور العراق ، وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق »[1] .

ولم يكن أصل هذه الاسرة ديلمياً - كما ذهب الى ذلك بعض مؤرخة هذا العصر - بل كانت تنتسب بجذورها الى الفرس ، « وإنما قيل لهم الديالمة لأنهم جاوروا الديلم وكانوا بين أظهرهم مدة »[2] .

وكان بويه أبو الملوك من ذوي الحال المتوسط ؛ فكان يصيد السمك ويعينه أولاده على تحصيل القوت ، حتى روي عن معز الدولة انه كان يحتطب الحطب[3] .

وكان من ابتداء أمر أولاد بويه : انهم انخرطوا في سلك الجندية في جيش

---

(١) الفخرى : ٢٤٤ .

(٢) البداية والنهاية : ١١/١٧٣ ، ويراجع فى ذلك : الفخرى : ٢٤٤ ، والكامل : ٦/٢٣٠ ، وظهر الاسلام : ١/٥٠ .

(٣) الفخرى : ٢٤٤ ، والبداية والنهاية : ١١/١٧٣ ، والكامل : ٦/٢٣٠ ، وشذرات الذهب : ٣/١٨ .

ما كان بن كالي الديلمي أحد قواد العلويين ـ ملوك طبرستان والديلم في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ـ ، وكان لهذا القائد شأن بارز في تاريخ الديلم وطبرستان ، حيث استولى عليها بعد زوال ملك العلويين ، وبقي أميرها المطلق حيناً من الدهر ، الى أن ثار عليه أسفار بن شيرويه الديلمي ـ وكان من قواد جيش ما كان ـ وناصبه الحرب والعداء فسطع نجمه واشتد بأسه ، فلم يجد ما كان بدّاً من الاتفاق مع مرداويج بن زيار على محاربة أسفار ، وهكذا كان . ولما تم لهما النصر نقض مرداويج العهد مع صاحبه وسلّ السيف عليه فغلبه ، وانهزم ما كان ملتجأ الى صاحب خراسان .

وما إن شاهد أولاد بويه هزيمة قائدهم وضعف شأنه وتردي وضعه وشدة ضائقته وفقره حتى صارحوه برغبتهم في فراقه والابتعاد عنه ، ووعدوه الرجوع اليه حينما يحسن وضعه فأذن لهم بذلك فساروا الى مرداويج بن زيار ، ومعهم جمع من قوّاد ما كان وأفراد جيشه ، فاستقبلهم مرداويج استقبالاً حسناً ، وولى كل قائد منهم ناحية من نواحي الجبل ، واختار عليّ بن بويه ـ عماد الدولة ـ لولاية الكرج ، وكتب للجميع عهودهم الرسمية وسيّرهم الى مناطق عملهم ، فمرّوا بالري وفيها وشمكير نائباً عن أخيه ، وأبو عبد الله الحسين العميد ناظراً في الأمور ، فاستطاع عماد الدولة أن يجذب العميد الى جانبه بعدة هدايا وكثير من الملاطفات .

« ثم أوجب الرأي عند مرداويج أن يتعقب ما أمر به من تولية اولئك القوّاد ، وكتب الى أخيه وشمكير والى أبي عبدالله العميد بمنعهم من الخروج من الري ، وإن كان بعضهم خرج مُنع من بقي ، وكانت الكتب تصدر أولاً الى العميد فيقف عليها ثم تعرض على وشمكير جملتها ، فحين وقف على الكتاب تقدم الى علي بن بويه سراً أن يبادر الى عمله فسار من وقته وساعته وطوى

المنازل ، واصبح العميد من الغد فأظهر الكتب ، فلما عرضها على وشمكير كان قد صار علي بن بويه على مسافة بعيدة فمنع من لم يكن خرج من اولئك القواد ، وفاز علي بن بويه بالولاية التي كانت سبب ملكه »[1].

وصل علي بن بويه الى الكرج فساس أهلها سياسة رشيدة ، ولطف بعمال البلاد فكانوا يكتبون لمرداويج الكتب ، وكلها شكر له على حسن اختياره ، وصادف في أثناء ذلك انه افتتح قلاعاً تعود للخرّمية وظفر منها بذخائر وافرة صرفها - جميعاً - في استمالة الرجال وصلاتهم فشاع ذكره وقوى أمره ؛ « وكان مرداويج ذلك الوقت بطبرستان ، فلما عاد الى الري أطلق مالاً لجماعة من قوّاده على كرج فاستمالهم عماد الدولة ووصلهم وأحسن اليهم حتى مالوا اليه وأحبوا طاعته ، وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على انفاذ اولئك القواد الى كرج ، فكتب الى عماد الدولة واولئك يستدعيهم اليه وتلطف بهم ، فدافعه عماد الدولة واشتغل بأخذ العهود عليهم ، وخوّفهم من سطوة مرداويج ، فأجابوه جميعهم فجبى مال كرج ، واستأمن اليه شيرزاد وهو من أعيان قواد الديلم فقويت نفسه بذلك »[2].

وهكذا تم لعلي بن بويه في عام (٣٢١ هـ) الاستيلاء التام على الكرج فحدثته نفسه بالهجوم على اصبهان فهجم عليها واستقبلته ظروف مواتية أعانته على نجاح الهجوم فاحتل اصبهان « وعظم في عيون الناس لأنه كان في تسعمائة رجل هزم بهم ما يقارب عشرة آلاف رجل ، وبلغ ذلك الخليفة فاستعظمه »[3] كما بلغ مرداويج فأقلقه وأخافه .

---

(١) تجارب الامم : ٥/٢٧٨ ، وقريب منه فى الكامل : ٦/٢٣١-٢٣٢ .
(٢) الكامل : ٦/٢٣٢ ، وقريب منه فى تجارب الامم : ٥/٢٧٩ .
(٣) الكامل : ٦/٢٣٢ ، ومثله فى البداية والنهاية : ١١/١٧٤ .

وخفت جيوش مرداويج لقتال عماد الدولة فخشي ابن بويه منها فانسحب من اصفهان متوجهاً الى أرجان فاحتلها واستخرج منها أموالاً جزيلة شد بها أزر ملكه وجيشه .

وفي أثناء هذا العام حبّب أبو طالب النوبندجاني لعماد الدولة احتلال شيراز لضعف عاملها وسوء سيرته فسار اليها واحتل النوبندجان بطريقه وأقام فيها مدة ، وأرسل أخاه الحسن بن بويه الى كازرون وما يجاورها من بلدان فارس فدخلها وجبى منها أموالاً جليلة ، فتحرك عامل تلك المنطقة - ومعه جيشه - لحرب ركن الدولة فواقعهم ابن بويه وهزمهم وهو في عدة قليلة ثم عاد سالماً الى قواعد أخيه .

وتوجه علي بن بويه بعد ذلك الى شيراز فالتحم جيشه وجيش خصمه ياقوت - والي البلدة - بحرب طاحنة أدت - بتأثير بعض الصدف من جهة وبسالة جيش عماد الدولة من جهة اخرى - الى هزيمة ياقوت وانتصار ابن بويه ، « وكان معز الدولة أبو الحسن أحمد بن بويه في ذلك اليوم من أحسن الناس أثراً ، وكان صبياً لم تنبت لحيته ، وكان عمره تسع عشرة سنة »[1] .

وباحتلال عماد الدولة شيراز وإضافتها الى رقعة حكمه قوي أمره ورسخ ملكه مضافاً الى المصادفات الحسنة التي ساعدته على تحصيل المال الذي ملأ خزائنه وأشبع نهم جيشه .

ولما تم له هذا الرسوخ وهذه السيطرة على شيراز وفارس أرسل رسالة للخليفة العباسي الراضي بالله ووزيره أبي علي بن مقلة يظهر لهما الطاعة ويطلب منهما أن يقاطعاه تلك البلاد التي كانت تحت يده مقابل مليون درهم يقدمها لهما ، فاجيب الى ذلك ،

---

(1) الكامل : ٦/٢٣٥ ، وقريب منه في تجارب الامم : ٥/٢٩٨ .

« وأنفذوا له الخلع وشرطوا على الرسول أن لا يسلم اليه الخلع إلا بعد قبض المال ، فلما وصل الرسول خرج عماد الدولة الى لقائه وطلب منه الخلع واللواء فذكر له الشرط فأخذهما منه قهراً ولبس الخلع ونشر اللواء بين يديه ودخل البلد وغالط الرسول بالمال فمات الرسول عنده سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وعظم شأنه وقصده الرجال من الأطراف »[1] .

وبلغت أخبـــار تقدم ابن بويه وعلاقته ببغداد سمع مرداويج فصمم على الذهاب الى الأهواز واحتلالها ليقطع الطريق على جيش الخليفة اذا ما رام إنجاد عماد الدولة ، ثم يزحف بعد ذلك الى جهة خصمه مطمئناً من المؤخرة كل الاطمئنان فلعلـه يستطيع التخلص منه أو تقليص أمره - على الأقل - .

وبدأ مرداويج بتنفيذ خطته فسار الى الأهواز واحتلها بعد حرب ونزاع ، فبلغ ذلك عماد الدولة وخشي وخامـــة العاقبة فراسل كاتب مرداويج يستميله ويتملقه ويطلب منه أن يكون وسيطاً بينه وبين مرداويج بالصلح ، ففعل الـكاتب ذلك وأقنع مرداويج بالفـكرة فوافق عليها مشترطة بالطاعة والخطبة له ، ورضخ ابن بويه للشرط وأنفذ أخاه ركن الدولة الحسن رهينة عند مرداويج فاستقر الوضع وهدأت الحالة الى حين .

وتدور الدائرة على مرداويج بعد أشهر من الصلح - في تفصيل لا يسعه المجال - وتنكشف النتيجة عن قتل مرداويج وتخلص ركن الدولة من الأسر - وكان رهينة عند الزياريين - ، ثم ارتفاع أمر عماد الدولة بعد موت خصمه القوي العنيد .

وبالنظر الى عدم وفاء عماد الدولة بشروطه التي أعطاها للخليفة في أمر المال

---

(١) الكامل : ٦/٢٣٥ .

أرسل الخليفة جيوشه الى الأهواز - بعد مقتل مرداويج - ، وكان على رأسها ياقوت وكاتبه البريدي أبو عبدالله ، فالتقت بجيش ابن بويه في نواحي أرجان ، وبدأت الحرب ثم وضعت أوزارها بهزيمة ياقوت وأصحابه وظهور فكرة الصلح ، فوافق ابن بويه على ذلك ، فكتب البريدي الى الخليفة كتاباً طلب فيه إقرار عماد الدولة على البلاد التي استولى عليها فأقره الخليفة على ذلك .

وفي عام (٣٢٣) جهز عماد الدولة أخاه الحسن ركن الدولة وسيّره الى بلاد الجبل في جيش جرار فسار الى اصبهان واستولى عليها وأزال عنها نواب وشمكير - أخي مرداويج وخليفته في الملك - كما أزالهم عن عدة مناطق أخرى .

ولما غضب الخليفة على أبي عبدالله البريدي وحاربه في الأهـــواز فرّ مستجيراً بعماد الدولة فأجاره فحبب له البريدي احتلال بغداد فأمر بذلك أخاه أحمد معزالدولة .

وبقيت بغداد شغل أحمد الشاغل فكان يحاول ذلك ويخفق عدة مرات حتى نجحت محاولاته عام (٣٣٤) فدخل بغداد ظافراً منتصراً .

وهكذا كان هؤلاء الاخوة الثلاثة يتقسمون حكم ايران والعراق ، فلمعز الدولة العراق والأهواز ، ولعماد الدولة بلاد فارس ، ولركن الدولة الري واصبهان والجبل .

وكانت العلاقات بين هؤلاء الاخوة على أفضـــل ما يتصور وداً وصفاءً واحتراماً وإخلاصاً ، و « كان معزالدولة أحمد بن بويه صاحب أمر الخلافة يومئذٍ يحب أخاه عماد الدولة ويحترمه ويكاتبه بالعبودية ويقبل الأرض بين يديه اذا اجتمعا - مع عظم سلطانه - لكونه أكبر سناً » .

وفي عام (٣٣٨) وافى عمادَ الدولة أجله فذهب الى رحمة ربه بعدما جعل عضد الدولة بن أخيه ركن الدولة خليفة له ووليّ عهده .

وفي عام (٣٥٦) توفي معز الدولة بعد مرض عضال ، وأوصى بالملك لابنه بختيار عز الدولة .

وفي عام (٣٦٦) أحس ركن الدولة بالموت فعهد « الى ولده عضد الدولة بالملك بعده ، وجعل لولده فخر الدولة أبي الحسن علي همذان وأعمال الجبل ، ولولده مؤيد الدولة اصبهان وأعمالها ، وجعلهما في هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة »[1] ، ثم توفي بعد ذلك بمدة قصيرة .

---

(١) الكامل : ٨٠/٧ .

لما توفي أبو علي القمي وزير ركن الدولة عام (٣٢٨) تولى أبو الفضل محمد بن العميد الوزارة لركن الدولة ؛ تقديراً لكفاءته ؛ ووفاءً لحسن صنيع والده العميد مع عماد الدولة - كما مرَّ بيانه - ، وكان ابن العميد على جانب كبير من العلم والفضل والأدب والبلاغة ؛ فلا غرو إذا ما كان مجلسه غاصاً بالشعراء والأدباء والعلماء ، كما لا غرو إذاما تهافت طلاب العلم ورواد الأدب عليه لينهلوا منه ويرتشفوا من نميره .

وكان ابن عبّاد - الشاب الطموح - كذلك ، فقد اتصل بابن العميد اتصال دراسة وتأدب ، ثم تطورت الصلة الى كتابة وخدمة ، وكان شفيع ابن عبّاد في تقدمه واتصاله بابن العميد مركز والده عبّاد - وزير ركن الدولة - ؛ وقابليته الشخصية البارزة ؛ وكفاءته التي أحس بها ابن العميد فأراد الاستفادة منها في هذه السبيل .

يقول ياقوت :

« كان الصاحب في بدء أمره من صغار الكتاب يخدم أبا الفضل بن العميد علياً خاصة »[1] .

وهكذا ذكر باقي المؤرخين من أن أول صلة ودراسة علمية للصاحب كانت على يد ابن العميد وفي مجلسه ، وان أول عمل كان للصاحب هو كتابة خاصة ابن العميد[2] ، ولم يخالف في ذلك سوى آدم متز حيث يقول :

« كان في بدء أمره معلماً في قرية ، ثم ترقت به الحال بعد أن كان من

---

(١) معجم الادباء : ٦/١٧٢ .

(٢) الوسيط : ٢١٢ .

صغار الكتّاب الى أن بلغ منصب الوزير المدبر لأمور الملك »[1] .

ولم نجد ما يؤيد ذلك في كتب التاريخ ، وأظنه اشتباهاً بأبيه عبّاد الذي روى أبو حيان انه كان معلماً في قرية طالقان الديلم .

ومهما يكن من أمر . فقد اتصل اسماعيل بابن العميد ، ثم تطور الاتصال حتى أصبح إشرافاً على كتابة الخاصة ، وصادف في أثناء ذلك تهيؤ الأمير مؤيد الدولة للسفر الى بغداد فاختير له ابن عبّاد كاتباً ، وفي ذلك يقول مسكويه في حوادث عام (٣٤٧ هـ) :

« ورد الأمير أبو منصور بويه بن ركن الدولة الى بغداد يخطب ابنة معز الدولة ، ومعه أبو علي بن أبي الفضل القاشاني وزيراً ، ومعه أبو القاسم اسماعيل ابن عبّاد يكتب له على سبيل الترسل »[2] .

وكان اختيار ابن عبّاد ـ وهو في الحادية والعشرين من العمر ـ للكتابة لأبي منصور ؛ وإرساله صحبة الأمير في تلك الرحلة التي كانت مطبوعة ـ بلا شك ـ بطابع الابهة والجلالة والفخر واختيار العناصر الكفوءة القوية ؛ خصوصاً وان مقصدهم في رحلتهم بغداد : مهد العلم والأدب والفضل في ذلك العهد ؛ كان كل ذلك دليلاً على الكفاءة والرجاحة وقوة الفكر ودقة الفهم عند الصاحب بن عبّاد .

وعثرت في معجم الادباء على رسالة كتبها ابن العميد لابن عبّاد يستدعيه فيها ليكون مشرفاً على تربية أحد أولاد ركن الدولة جاء في أوائلها :

« مولاي وإن كان سيداً بهرتنا نفاسته ، وابن صاحب تقدمت علينا

---

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية : ١/١٣٤ .
(٢) تجارب الامم : ٦/١٦٨ .

رياسته ، فانه يعدني سيداً ووالداً ، كما أعدُّه ولداً واحداً ، ومن حق ذلك أن يعضد رأيي برأيه ليزداد استحكاماً ، ونتظاهر عقداً وابراماً » .

ثم يقول بعد سطور :

« مولاي غني عن هذا العمل بتصونه وتصلفه وعزوفه ، وبهمته عن التكثر بالمال وتحصيله ، لكن العمل فقير الى كفايته ، محتاج الى كفالته ، وما أقول : إن مرادي ما يعقد من حساب وينشأ من كتاب ، ويستظهر به من جمع وبذر ومن عطاء ومنع ، فكل ذلك - وإن كان مقصوداً وفي آلات الوزارة معدودا - ففي كتّاب مولاي من يفي به ويستوفيه ، ويوفي عليه ما يسر مساعيه ، ولكنّ وليّ النعمة يريده لتهذيب ولده ، ومن هو ولي عهده من بعده ، والمأمول ليومه وغده . أدام الله أيامه ، وبلغه فيه مرامه » .

الى أن يقول في أواخرها :

« فلا يبخلن مولاي على ولي نعمته بفضل معرفته ، فمن هذه الدولة جرى ما فضّله وفضّل الشيخ الأمين من قبله .. الخ » [١] .

والمؤسف هنا اننا لم نعثر على تاريخ كتابتها ، ولم نعلم انها كانت قبل صحبة إبن عبّاد لمؤيد الدولة الى بغداد أم بعد ذلك ؟

وإنما قلت : مؤيد الدولة - مع عدم ورود اسمه في الرسالة - لأنه هو الذي خلف أباه في مركز ملكه ، وأما عضد الدولة فقد خلف عمه عماد الدولة وإن كان له الاشراف على أخيه .

وظني - ولعلّه صادق - ان هذه الرسالة كانت قبل عام (٣٤٧) وهو العام الذي سافر فيه أبو منصور الى بغداد لخطبة ابنة عمه ، ويرجحه - عندي على

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٢١-٢٢٤ .

الأول - ما رواه المؤرخون من ان ابن عبّاد إنما سمي بالصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة منذ الصبا [١] .

وسواءٌ أكان الموصوف بالصبا هو اسماعيل - كما يرجح - أو مؤيد الدولة فان ذلك يقتضي أن يكون قبل العام المشار اليه .

أمّا لماذا كتب ابن العميد رسالة لابن عبّاد في هذا الموضوع ولم يستدعه لهذا الغرض ، وأين كان الصاحب لترسل اليه الرسالة ؟ فذلك أمر لا أعلمه ولم أعثر على نص يوضح الحقيقة فيه .

وأخيراً فقد أصبح الصاحب - منذ هذا العهد - كاتباً « لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه أخي عضد الدولة بن ركن الدولة الديلمي ، ومؤيد الدولة حينئذٍ أمير وأحسن في خدمته ، وحصل له عنده بقِدَم الخدمة قَدَم ، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة فلقبه بالصاحب كافي الكفاة » [٢] .

وبمجرد وصول ابن عبّاد الى هذه الرتبة فارق ابن العميد وترك صحبته ، فكان لا يفارق مؤيد الدولة في حل ولا في سفر - وقد مرَّ عليك نبأ رحلته معه لى بغداد - ، وروى أبو حيان التوحيدي انه كان بالري عام (٣٥٨) وكان « ابن عبّاد بها مع مؤيد الدولة قد ورد في مهمات وحوائج » [٣] ، وان ابن عباد - في هذه السفرة - حضر مجلس ابن العميد [٤] .

وبقي الصاحب على علاقته هذه بأميره حتى توفي ركن الدولة عام (٣٦٦ هـ) ، فلما « ولي مؤيد الدولة بلاده بالري واصبهان وتلك النواحي خلع على أبي الفتح

(١) زاجع : النجوم الزاهرة : ٤/١٧٠ ، وابن خلكان : ١/٢٠٧ ، وبغية الوعاة : ١٩٦ .
(٢) معجم الادباء : ٦/١٧٢-١٧٣ .
(٣) معجم الادباء : ٦/٢٠٩ .
(٤) معجم الادباء : ٦/٢٢٤-٢٢٥ .

ابن العميد وزير أبيه خلع الوزارة ، وأجراه على ما كان في أيام أبيه »[1] ، و « الصاحب على جملته في الكتابة لمؤيد الدولة ، فكره أبو الفتح موضعه فبعث الجند على الشغب وهمّوا بقتل الصاحب »[2] .

وأبو الفتح هـــذا هو ابن أبي الفضل بن العميد استاذ الصاحب ومرشده الأول ، ولما توفي أبو الفضل عام (٣٦٠) ولّى ركن الدولة ابنه أبا الفتح وزارة أبيه ، وجعل له من التصرف ما كان لأبيه ، وكان أبو الفتح فتى مغروراً مأخوذاً بطيش الشباب ونزقه ، وقوة المنصب وعظمته ، فلم يكن من الهين عليه رؤيته لابن عبّاد في اتصاله بمؤيد الدولة وصحبته معه ، ووثوق الأمير به واعتماده عليه ، فلم يجد بدّاً - إرضاءً لطيشه - من بعث الجند على الشغب وتحريضهم على قتل ابن عبّاد والتخلص منه .

ويروي لنا أبو حيان التوحيدي بعض التفاصيل فيقول :

« كان ابن عبّاد قد ورد الريّ ، وحطبه رطب ، وتنوره بارد ، وأمره غير نافذ . هذا في الظاهر ، وأما في الباطن فكان يخلو بصاحبه ويوثبه على أبي الفتح بما يجد السبيل اليه من الطعن والقدح ، فأحسّ بذلك ابن العميد فألّب الأولياء على ابن عبّاد حتى كثر الشغب وعظم الخطب وهمّ بقتله ، وقال للأمير : ليس من حق كفايتي في الدولة وقد انتكث حبلها وقويت أطماع المفسدين فيها أن أسام الخسف ، والأحرار لا يصبرون على نظرات الذل وغمزات الهوان ، فقال له في الجواب : كلامك مسموع ، ورضاك متبوع ، فما الذي يبرد فورتك عنه ؟ ، قال : ينصرف الى اصفهان موفوراً ، فوالله لو طالبته منصفاً برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقنّ جبينه ، ولئن أحسّ الأولياء

(١) معجم الادباء : ١٧٣/٦ .
(٢) معجم الادباء : ١٩٤/١٤ .

الذين أصطنعهم بمالي وإفضالي بكلامه في أمري وسعيه في فساد حالي ليكون هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف ومن المزن اذا نطف ، فقال له : لا نخالف لرأيك والنظر لك والزمام بيدك » .

« وتلطف ابن عباد في خلال ذلك لأبي الفتح ، وقال له : أنا أتظلم منك اليك وأتحمل بك عليك ، وهذا الاستيحاش سهل الزوال اذا تألفت الشارد من حلمك ، وعطفت على الشائع من كرمك . وولّني ديوان الانشاء واستخدمني فيه ورتبني بين يديك ، وأحضرني بين أمرك ونهيك ، وسِمْني برضاك فاني صنيعة والدك ، واتخذني بهذا صنيعة لك ، وليس يجمل أن تكرّ على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه ، ومتى أجبتني الى هذا وآمنتني فاني أكون خادمك بحضرتك ، وكاتباً يطلب الزلفة عندك في صغير أمرك وكبيره ، وفي هذا إطفاء النائرة التي قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك أعدائي عليّ ، فقال في الجواب : والله لا تجاورني في بلد السرير وبحضرة التدبير وخلوة الأمير ، ولا يكون لك اذن عليّ ولا عين عندي ، وليس لك مني رضاً إلا بالعود الى مكانك من اصبهان والسلو عما تحدث به نفسك » .

« فخرج ابن عبّاد من الري على صورة قبيحة متنكراً بالليل ، وذلك انه خاف الفتك والغلبة ، وبلغ اصبهان وألقى عصاه بها ونفسه تغلي وصدره يفور ، والخوف شامل ، والوسواس غالب ، وهمّ أبو الفتح بانفاذ من يطالبه ويؤذيه ويهينه ويعسفه فأحسّ هو بالأمر »[1] .

وحدّث الصاحب عن بعض هذه النكبة فقال :

« إن مؤيد الدولة قال لي عند خروجي الى اصبهان : إن ورد عليك كتاب

---

(١) معجم الادباء : ١٤/٢١٧-٢١٩ .

بخطي أو جاءك أجلُّ حجابي وثقاتي للاستدعاء فلا تبرح من اصفهانِ ولا تفارقها الى أن يجيئك فلان الركابي ، فانه إن اتجهت لي حيلة على هذا الرجل وأمكنني الله من القبض عليه بادرت به اليك ، وهو العلامة بيني وبينك »[1] .

ووصف الصاحب كيفية خروجه فقال مخاطباً الشريف أبا طالب العلوي :

« أيها الشريف . أين الحق الذي وكدناه أيام كادت الشمس تزول ، والزمان علينا يصول ، وأنا أقول وأنت تقول ، والحال بيننا يحول ، سقى الله ليلة تشييعك وتوديعك ، وأنتِ متنكر تنكراً يسوء الموالي ، وأنا متفكر تفكراً يسوء العدو ، ونحن متوجهون الى ورامين خوفاً من ذلك الجاهل المهين »[2] .

وهكذا فر ابن عباد من الري الى اصبهان وكله قلق وخوف وترقب ، وبقي صاحبه الأمير مؤيد الدولة يترقب الفرص وينتظر المناسبات حتى استغل فرصة ما قرره صاحب خراسان من الزحف على مؤيد الدولة والدلوف اليه ، فعمل لابن العميد حيلة أدت الى قتله والتخلص منه[3] .

وما إن تم القبض على ابن العميد حتى « استدعي ابن عبّاد من اصفهانِ وولي الوزارة ، ودبّرها برأي وثيق وجد رتيق »[4] .

---

(١) معجم الادباء : ١٤/٢١١ .

(٢) معجم الادباء : ٦/١٩٤ ، ويراجع فى شماتة ابن العميد وفرحه بفرار الصاحب : معجم الادباء : ٦/٢٥٠-٢٥١ ، والمنتظم : ٧/١٧٩ .

(٣) راجع فى تفصيل ذلك : معجم الادباء : ١٤/٢٠٦-٢١٠ ، ونفس المصدر : ١٤/٢١٩-٢٢٧ .

(٤) معجم الادباء : ١٤/٢٢٧ .

بعد الوزارة

أصبح ابن عباد وزيراً لمؤيد الدولة - كما أسلفنا - ، من دون وجود معارض يُخشى كيده وحقده ، فكان اول اعماله العفو عن أصحاب خصمه ابن العميد بأجمعهم ، وفي ذلك يقول أبو بكر الخوارزمي من رسالة له الى أحد أصدقائه :

« وجدت فلاناً وفلاناً ندماء ابن العميد - رحمه الله - ، وقد ألبسهم الخذلان ثيابه ، ونفض عليهم الإدبار ترابه ، ونبذهم الاقبال وراء ظهره ، ونظر اليهم الزمان بمؤخر عينه ، فهم أرخص من التمر بكرمان ، وأضيع من الورد في شهر رمضان ، وأثقل من الفرو في حزيران ، وأكسد من أبي بكر الخوارزمي بخراسان ، وكذلك تكون مصارع البغي والعدوان ، وحصائد البهت والبهتان ، ولقد جلسوا على قارعة الأمصار ، واعترضوا ليد التحكم والاقتدار ، واستهدفوا لسهام الأيام والأقدار ، ولولا أنّ أمورهم أفضت الى رجل عليه من التوحيد والعدل مانع ، ولديه من الحلم والحياء وسيلة وشافع ، وهذا وقد ولغوا في دمه ، ورتعوا في لحمه ، وخبوا وأعنقوا في ذمه بل في شتمه ، فلم يبقوا في القوس منزعا ، ولم يتركوا للصلح موضعا ، فلما دفع الإقبال ربقتهم اليه ، وصارت حياتهم وموتهم في يديه ، أسبل عليهم ستر العفو والمغفرة ، واتّبع فيهم حكم الصفح بعد المقدرة ، وقلّم عنهم أظافير الحدثان ، وقام دونهم في وجه الزمان »(١) .

وكان لقابليّات الصاحب ومقدرته ، وبُعد تفكيره ، وحسن إدارته وفهمه ، أثرها الكبير في عظم منزلته ومكانته في نفس أميره المباشر مؤيد الدولة ،

(١) رسائل الخوارزمي : ٥٢ .

والملك المشرف عضد الدولة ، فلا غرو إذا ما كانا كثيري الاحترام له والاحتفاء به والتقدير لكريم جهوده ومساعيه ، حتى كان عضد الدولة يخاطبه « خطاباً لا يشرك معه فيه أحداً » [1] ، وحتى ادّعى أبو حيان بأنه « قد أفسده ثقة صاحبه به وتعويله عليه وقلة سماعه من الناصح فيه » [2] .

ولم تكن علاقة ابن عباد بمؤيد الدولة وعضد الدولة علاقة الرئيس بالمرؤوس والأمير بالمأمور ، بل كانت علاقة صداقة متينة واحترام متبادل وود كبير ، وقد روي عن أبي نصر صاحب عضد الدولة ومعتمده قوله : « إنّ عضد الدولة ينزله - والضمير للصاحب - المنزلة الكبيرة ، ويؤثر أن يقضي حقه » [3] .

ولما تحرك عضد الدولة عام (٣٦٩) لمحاربة أخيه فخر الدولة - الذي نقض العهد ولم ينفذ وصية أبيه له باطاعة عضد الدولة - ؛ وفتح مناطق ملك أخيه واحتلها ؛ قفل راجعاً الى نهاوند و « أقام بها ، ورتب العمال في النواحي ، وجدّ في تناول الموجود لأنه كان من رأيه أن يجعل همذان ونهاوند لمؤيد الدولة ، ثم انتقل في صفر من نهاوند الى همذان ونزل دار فخر الدولة بها » [4] .

وأراد مؤيد الدولة أن يؤكد لأخيه العضد علاقته به وخضوعه له ؛ فاختار الصاحبَ ليكون رسولاً من قبله الى أخيه يبذل له الطاعة والموافقة [5] ، وكان ذلك عام (٣٧٠) [6] « فتلقاه عضد الدولة على بُعدٍ من البلد ، وبالغ في إكرامه ، ورسم لأكابر كتّابه وأصحابه تعظيمه ففعلوا ذلك ؛ حتى انهم كانوا يغشونه

(١) معجم الادباء : ٦/٢٨٠ .
(٢) نفس المصدر : ٦/١٨٣ .
(٣) ذيل تجارب الامم : ١٨ .
(٤) نفس المصدر : ١٠ .
(٥) يراجع فى تفصيل ذلك : الكامل : ٧/١٠٤ .
(٦) هكذا روت كتب التاريخ خلافا لابى حيان الذى يروى انها كانت عام ٣٦٩ كما نقل عنه فى معجم الادباء : ٦/١٨٧ .

مدة مقامه مواصلة ، ولم يركب هو الى أحدٍ منهم ، وكان غرض عضد الدولة بذلك استمالة مؤيد الدولة وتأنيس الصاحب »[1] .

« ووردت كتب مؤيد الدولة يستطيل مقام الصاحب ويذكر اضطراب اموره ببعده ، فوقع الشروع في تقرير ارتفاع همدان ونهاوند معهما عليه »[2] ، ثم تم التفاهم على أمر هذين البلدين بما أرضى الطرفين .

وفي شهر ربيع الآخر خرج عضد الدولة الى خارج همدان بقصد التوجه الى العراق فـ « خلع على الصاحب الخلع الجليلة ، وحمله على فرس بمركب ذهب ، ونصب له دستاً كاملاً في خركاه يتصل بمضاربه وأجلسه فيه ، وقطعه ضياعاً جليلة من نواحي فارس ، وحمل الى مؤيد الدولة في صحبته ألطافاً كثيرة ، وضم اليه من العسكر المستأمن عن فخر الدولة عدداً ليكونوا برسم خدمة مؤيد الدولة »[3] .

وهكذا نرى من مجموع هذه النصوص مقدار متانة العلاقة والاحترام المتبادل بين عضد الدولة وابن عباد بالشكل الذي لا يدع مجالاً لاحتمالٍ أو شك في كل ذلك ، وقد أيدته الحوادث والوقائع التاريخية كل التأييد ، ودلت عليه مراسلات الصاحب ومكاتباته لعضد الدولة بصراحة ووضوح .

ولكنَّ الشيء الذي يلفت النظر أن نقرأ في بعض المراجع التاريخية أخبار محاولة مدبَّرة من قبل عضد الدولة للقبض على الصاحب ، ثم تركه لتنفيذها حينما علم بظهور خبرها واطلاع بعض حاشيته عليها ، واليك بعض تفاصيلها منقولةً عن ياقوت الحموي كما رواها عن أبي علي المحسّن التنوخي :

---

(١) ذيل تجارب الامم : ١٠-١١ .
(٢) نفس المصدر : ١١ .
(٣) نفس المصدر : ١١ ، ويراجع الكامل : ٧/١٠٤ .

« قال : كنت بهمذان مع الملك عضد الدولة ، فاتفق أن مضيت يوماً الى أبي بكر بن شاهويه رسول القرامطة والمتوسط بين عضد الدولة وبينهم وكان له صديقاً ، ومعي أبو علي الهائم وجلسنا نتحدث . . . . . فقال لي : اجمل أيها القاضي في نفسك المقام في هذه الشتوة في هذا البلد ، فقلت : لِم ؟ ، فقال : ان الملك مدبر في القبض على الصاحب أبي القاسم بن عبّاد وكان قد ورد الى حضرته بهمذان ، واذا كان كذلك تشاغل بما يتطاول معه الأيام ، وانصرفت من عنده ، فقال أبو علي الهائم . قد سمعت ما كنتما فيه وهذا أمر ينبغي أن تطويه ولا تخرج به الى أحد ، ولاسيما الى أبي الفضل بن أحمد الشيرازي ، فقلت : أفعل ، ونزلت الى خيمتي وجاءني من كانت له عادة جارية بملازمتي ومواصلتي . . . . وفيهم أبو الفضل بن أحمد الشيرازي ، فقال لي : أيها القاضي أنت مشغول القلب فما الذي حدث ؟ ، فاسترسلت على أُنس كان بيننا ، وقلت : أما علمت ان الملك مقيم وقد عمل على كذا في أمر الصاحب ، وهذا دليل على تطاول السنة ، فلم يتمالك أن انصرف . . . . ، فكتب الى عضد الدولة رقعة يقول فيها : كنت عند القاضي أبي علي التنوخي فقال كذا وكذا ، وذكر أنه قد عرفه من حيث لا يشك فيه وعرفت انه كان عند أبي بكر بن شاهويه ، وربما كان لهذا الحديث أصل ، واذا شاع الخبر به وأظهر السر فيه فسد ما دُبّر في معناه ، فلما وقف عضد الدولة على الرقعة وجم وجوماً شديداً وقام من سماط كان قد عمله في ذلك اليوم . . . » [1] .

ويضيف التنوخي قائلاً :

« ثم رحلنا عائدين الى بغداد ، فرآني الملك في الطريق وعليّ ثياب حسنة

(١) معجم الادباء : ١٧/١٠٧-١٠٩ ، وقريب منه فى ذيل التجارب : ١٩ .

وتحتي بغلة بمركب وجناغ جواد ، فقال لي : من أين لك هذه البغلة ؟ ، قلت : حملني عليها الصاحب أبو القاسم بمركبها وجناغها وأعطاني عشرين قطعة ثيابا وسبعة آلاف درهم ، فقال : هذا قليل لك منه مع ما تستحقه عليه ، فعلمت انه اتهمني به وبأني خرجت بذلك الحديث اليه ، وما كنت حدثته به »[1] .

والمؤسف أنّ هذه التفاصيل كلها لم تشر الى الأسباب المباشرة التي حملت عضد الدولة على القيام بتنظيم هذه المؤامرة المحكمة للقبض على ابن عباد ؛ فلم نعرف الدافع الحقيقي لذلك ، ولعلّ السبب فيه علاقة الصاحب بفخر الدولة أخي عضد الدولة وعدوه اللدود ، حيث دلت بعض الحوادث التاريخية على وجود علاقة خاصة بينهما ، وإن كان الصاحب ـ في ظاهره ـ عدواً لفخر الدولة وحرباً عليه ، وهو أول من بشر عضدالدولة بالنصر على عدويه فخرالدولة وقابوس بن وشمكير برسالة مفصلة هي الاولى من كتاب رسائله ، ولعل الوشاة والمشائين بالنميم قد حدثوا عضد الدولة وأبلغوه أنباء هذه العلاقة ـ على حقيقتها أو مكبّرة مشوهة ـ فغضب عليه .

ومهما يكن من أمر ، فقد بقيت ظواهر الحال حسنة بين الطرفين طيلة حياة عضد الدولة حتى توفي عام (٣٧٢ هـ) ، ولما بلغ ذلك سمع مؤيد الدولة صمّم على الاستيلاء على ملك أخيه والقيام مقامه فيها ، ولم يشر المؤرخون الى موقف الصاحب من تصميم أميره المؤيد والى مقدار جهده في هذه السبيل .

ولكني أعتقد أن هذه المحاولة وهذا التصميم من مؤيد الدولة لم يكن إلا بتحريض من الصاحب عليه وسعي في سبيله ، لأن حكم بغداد والاستيلاء على دست الوزارة فيها كان من أحلام الصاحب وآماله التي لا تفارقه لحظة واحدة ،

---

(١) معجم الادباء : ١٧/١١٣ ، وقريب منه فى ذيل تجارب الامم : ٢٠ .

وكانت هذه المحاولة واحدة من عدة محاولات قام بها من وراء الستار باسم امرائه لغرض التربع على كرسي الحكم ببغداد إرضاءاً لطموحه وإشباعاً لرغبته .

وأنفذ مؤيد الدولة « أبا علي القاسم الى فارس متحملاً لرسالة الى الأمير أبي الفوارس ابن عضد الدولة ، فورد كتاب أبي علي هذا عليه بوقوع الخطبة له في بلاد فارس وثبوت اسمه على الدينار والدرهم . . . . ، ثم راسل أخاه فخر الدولة بالوعود الجميلة ، وبذل له ولاية جرجان وتقويته بما يحتاج اليه من الأموال ، فلم يسكن فخر الدولة الى قوله وأقام بموضعه ، وبينما الحال على ذلك إذ جاءه الأمر الذي لا يغلب والنداء الذي لا يحجب »[1] ، فتوفي عام (٣٧٣ هـ) .

---

(١) ذيل تجارب الامم : ٩١ .

توفي مؤيد الدولة في عام (٣٧٣ هـ) - كما مر - من دون أن يعهد لأحد من بعده بالأمر ، وكان الصاحب قد طلب منه حينما دنت اليه الوفاة أن يعهد ، فأبى وقال : أنا في شغل عن هذا .(١)

وما إن اعلن موته حتى كتب الصاحب « في الوقت الى فخر الدولة بالاسراع ، وأرسل أخاه وبعض ثقاتـه ليستوثق منه باليمين على الحفظ والوفاء بالعهد ، وتجرد الصاحب لضبط الأمر ، ووضع العطاء في الجند ، ونصب ابا العباس خسرو فيروز بن ركن الدولة في الامارة ، تسكيناً للفتنة ، وإزالة للخلف في عاجل الحال ، وكتب الناس مثنى وفرادى الى فخر الدولة بالطاعة ، وهو يومئذٍ بنواحي نيسابور على حالة مختلفة وإضاقة شديدة » .

« فلما ورد الى فخر الدولة كتاب ابن عباد وتلاه كُتُبُ وجوه العساكر أولاً فأولاً ، سار على الفور ، وعرف قابوس الخبر فأرسل اليه : ان بيننا ما اريد مفاوضتك فيه ، فأجابه : بأنني قد توجهت ولا قدرة لي على العود بعد التوجه ، ومهما أردتَ فاكتب به ، وبادر يطوي المنازل نحو جرجان »(٢) .

ووردت الأنباء تخبر بقرب وصول فخر الدولة الى جرجان ، فجمع الصاحب سائر أفراد الجيش ورجاله وقال لهم : « إنما أخذت البيعة عليكم لأبي العباس خسرفيروز على أنه خليفة أخيه فخر الدولة ، فبادروا الى تلقيه وخدمته ، فندبوا عند ذلك أبا الحسين محمد بن علي بن القاسم العارض .... فسار اليـه .... فأكرمه فخر الدولة .... ، ثم تلقـاه الصاحب ابو القاسم بن عباد مع الأمير

(١) الكامل : ٧/١١٧ .
(٢) ذيل تجارب الامم : ٩٣ .

ابي العباس خسرفيروز وأكابر القواد ، فرحب به فخرالدولة وبالغ في اكرامه ، وتناهى في اعظامه ، ونزل بظاهر المدينة . . . . . ثم دخل البلد من غده واخذت البيعة له بالطاعة والمخالصة ، واستقرت الامارة عليه » .[1]

و « لما انتظم الأمر لفخرالدولة قال له الصاحب : قد بلّغك الله يا مولاي وبلّغني فيك ما أمّلتَه لنفسك وأمّلتُه لك ، ومن حقوق خدمتي عليك إجابتي الى ما اوثره من ملازمة داري واعتزال الجنديّة والتوفر على امر المعاد ، وقال له [فخرالدولة] : لا تقل أيها الصاحب هذا فانني ما أُريد الملك إلا لك ، ولا يجوز أن يستقيم أمري إلا بك ، وإذا كرهتَ ملابسة الامور كرهتُ ذاك بكراهيتك وانصرفتُ ، فقبّـل الأرض شكراً وقال : الأمر امرك » .[2]

ثم خلع فخرالدولة على الصاحب خلع الوزارة ، و « أكرمه وعظّـمه وصدر عن رأيه في جليل الامور وصغيرها »[3] بما لم يسبق له مثيل .

ولم يكن الصاحب في استعفائه من الوزارة قاصداً ذلك حقاً ، بل كان يهدف من هذا الاسلوب الى معرفة نفس صاحبه ورأيه فيه ومقدار علاقته به ، وكان جواب فخرالدولة مساوقاً لما يفرضه الواجب عليه ، ويدعو النبل والشرف اليـه ، إذ لولا الصاحب وحزمه لما استطاع فخر الدولة الحصول على الامرة والوصول لهذه الرتبة ، فهو الذي مهّد للأمر وهيّأ المجال ، وكتب لفخر الدولة ، وأخذ البيعة من الجند للأمير ابي العباس خسرفيروز بشـكل موقت دفعاً للفتنـة وإسكاناً للنائرة ، فكان هذا كله بفضل فهم الصاحب وبُعد نظره ، ولولا ذلك لما تم الامر للأمير فخرالدولة بهذا النحو من اليسر والبساطة والسهولة .

---

(١) ذيل تجارب الامم : ٩٤ .
(٢) نفس المصدر : ٩٤_٩٥ ، وقريب منه فى الكامل : ٧/١١٧ .
(٣) الكامل : ٧/١١٧_١١٨ .

وكان هذا الاهتمام الكبير من قبل الصاحب في سبيل فخر الدولة وإمرته هو المحفز لي على عزو غضب عضد الدولة على الصاحب الى الظن بوجود نحوٍ من العلاقة المستترة بينه وبين فخر الدولة ، خصوصاً ونحن نلاحظ الصاحب في رسالته التي كتبها لعضد الدولة يبشره بالنصر على قابوس وفخر الدولة انه لم يشتم الفخر ولم يذكره بسوء ، بل كان كل حديثه عنه انه قال : « الى أن صار [قابوس] السبب في استزلال فلان [يعني فخر الدولة] فدلّاه بغروره ، واستهواه الى جانب ثبوره »[1] فكأنه أراد أن يفهم عضد الدولة بأن خروج فخر الدولة عليه لم يكن عن بغض كامن أو حقد متطامن في نفسه ، وانما كان نتيجة إغواءٍ واغراء واستهواءٍ يقع ذنبه كله على عاتق قابوس وحده .

وكانت لاهتمام الصاحب بفخر الدولة وإمرته عدة أسباب بعثته على ذلك ، لعلّ - في طليعتها - علمه بضعف (الفخر) وعجزه عن ادارة شؤون الدولة بدونه ، على العكس من مؤيد الدولة وعضد الدولة الأميرين المحنكين اللذين كانا على جانب كبير من الكفاءة والدهاء والفطنة ، بالدرجة التي تمكّنهما من الاستغناء عن الصاحب أو غيره في أي ظرف أو وقت ، فلم يكن ابن عباد في عهدهما وزيراً حاكماً بأمره بالشكل الذي يمليه عليه عجبه بنفسه ، بل كان محدود التصرف مقيَّد الحركات مترقب الامر والنهي ، على النحو الذي كان مخالفاً لخلقه ومزاجه الخاص كل المخالفة ، فلا غرو إذا ما رأيناه يستدعي فخر الدولة ويقيمه مقام أخيه ، ليكون - كما يريد - صاحب الامر والنهي ، وبيده الابرام والنقض ، ويكون اميره محتاجاً له كل الحاجة ومفتقراً اليه كل الفقر ، وقد كشف الزمن صحة ذلك ، فقد كان الصاحب في واقعه هو الامير ، ولم يكن للامير سوى توقيع الرسائل واداء بعض الشؤون الشكلية الاخرى .

---

(1) رسائل الصاحب بن عباد : ٥ .

ودخـــل عام (٣٧٣ هـ) وفخر الدولة هو الأمير المشرف على الريّ وما والاها ، فكان أول عمل قام به أصحابه ـ وفي طليعتهم الصاحب ـ هو تحصيل الخلع الرسمية له من الخليفة العباسي ببغداد ، وكان هـذا العمل بحاجة ماسة الى توثيق العلاقة بين فخر الدولة وأمير بغداد صمصام الدولة ، لئلا يكون الأخير معارضاً في هذا الموضوع ، ولمعارضته الأثر الكبير في نفس الخليفة بلا شك ، وهكذا كان ، فقد كثرت المكاتبات وتكرر إرسال الرسل بهـذا الشأن ، وعاقت بعض الظروف والشؤون السياسية عن استمرار المباحثات فتقطعت عدة مرات وعادت ، حتى دخل عام (٣٧٤) فتمت فيه المفاوضات ، وسلم لأبي العلاء الحسن بن محمد بن سهلويه رسول فخر الدولة مجموع الخلع السلطانية مع العهـــد واللواء واللقب ، فخف بها لصاحبه .

وسارت الامور في عهد فخر الدولة كما يرام ، وكانت كفاءة الصاحب في وزارته وإدارته ذات أثر بارز في تذليل الصعاب وتيسير الشؤون العامة بهدوء واستقرار ، فلم تقم في ذلك العهد ثورات شعبية أو انتفاضات ذات شأن ، بل كانت تجري سفينة البلاد في دعة وأمان ، وكان للقيادة العسكرية التي يشرف عليها الصاحب يد كبيرة في هذا الهدوء والاطمئنان ، حيث دلنا التاريخ على أن للصاحب تضلعاً وفهماً للشؤون الحربية كان هو السبب في نجاحه وانتصاره في كل غزواته وحملاته العسكرية

وهكذا « نجد أديباً مبرّزاً كالصاحب بن عباد يقود الجيوش أيام وزارته »[1]، وبهذه القيادة الحكيمة استطاع أن يفتح خمسين قلعة ويسلمها الى

(١) الحضارة الاسلامية : ١/ ١١٩ .

فخر الدولة ليضيفها الى ملكه [1] ، واستطاع أن ينتصر عام (٣٧٧ هـ) لما سار « الى طبرستان فأصلحها ونفى المتغلبين عنها ، وفتح عدة حصون منها حصن - قريم - وعاد في سنته »[2] .

وفي عام (٣٧٨) ضرب الصاحب السكة باسم فخر الدولة ، وأهدى لأميره ديناراً وزنه الف مثقال ، « وكان على أحد جانبيه مكتوب :

وأحمر يحكي الشمس شكلاً وصورةً ... فأوصافه مشتقّة من صفاته
فان قيل : دينار فقد صدق اسمه ... وإن قيل : ألف كان بعض سماته
بديع ولم يطبع على الدهر مثله ... ولا ضُربتْ أضرابه لسراته
فقد أبرزته دولة فلكية ... أقام بها الاقبال صدر قناته
وصار الى شاهانشاه انتسابه ... على أنه مستصغر لعُفاته
يخبّر أن يبقى سنين كوزنه ... لتستبشر الدنيا بطول حياته
تأنّق فيه عبده وابن عبده ... وغرس اياديه وكافي كفاته

وكان على الجانب الآخر سورة الاخلاص ولقب الخليفة الطائع لله ولقب فخر الدولة واسم جرجان لأنه ضرب بها »[3].

وكانت من ابرز أعماله - خلال وزارته لفخر الدولة - حركته نحو العراق عام (٣٧٩) ، واتجاهه صوب بغداد لاحتلالها والتربع على دستها الوثير .

ويحدثنا الوزير ابو شجاع عن مقدمات ذلك فيقول : « كان الصاحب بن عباد على قديم الأيام وحديثها يحبّ بغداد والرياسة فيها ، ويراصد أوقات

---

(١) النجوم الزاهرة : ٤/١٧٠ .
(٢) الكامل : ٧/١٣٤ .
(٣) نفس المصدر : ٧/١٣٦ ، ويراجع معجم الادباء : ٦/٢٦٦-٢٦٧ .

الفرصة لها ، فلما توفي شرف الدولة سمت نفسه لهذا المراد ، وظن ان الغرض قد أمكن ، فوضع على فخر الدولة من يعظّم في عينيه ممالك العراق ، ويسهّل عليه فتحها ، وأحجم الصاحب عن تجريد رأي ومشورة بذلك ، نظراً للعاقبة وتبرؤاً من العهدة ، الى أن قال له فخر الدولة : ما الذي عندك أيها الصاحب فيما نحن فيه ؟ فقال : الأمر لشاهنشاه ، وما يُذْكر من جلالة تلك الممالك مشهور لا خفاء به ، وسعادته غالبة ، فاذا همَّ بأمرٍ خدمته فيه ، وبلّغته أقصى مراميه » .

« فعزم حينئذٍ على قصد العراق ، وسار الى همذان ووافاه بدر بن حسنويه ، وأقام بها مدة يجيل الرأي ويقلبه . . . . ، حتى استقر العزم على أن يسير الصاحب وبدر بن حسنويه على طريق الجادة ، ويسير فخر الدولة وبقية العسكر على طريق الأهواز ، ورحل الصاحب مرحلة . . . قيل لفخر الدولة : من الغلط مفارقة الصاحب لك ، لأنك لا تأمن من أن يستميله أولاد عضد الدولة فيميل اليهم ، فاستعاده وسارت الجماعة الى الاهواز »[1].

و « كان الصاحب ابو القاسم اسماعيل بن عباد سبق الى الاهواز وملكها ، ولحقه فخر الدولة بعد عشرين يوماً ، وخيّم ببستان البريدي ، وتشوّف الجند الى ما يكون من عطائه وإحسانه ، فلم يكن منه في ذلك ما اقتضته الحال . . . . فضاقوا صدوراً . . . وكان من عجيب الاتفاق . . . ان دجلة الاهواز زادت في تلك الايام زيادة لم تجرِ بها العادة ، ودخل الماء الى الخيم فأخذ بعضها ، فرحل فخر الدولة وعسكره ، وعظم في أعينهم ما رأوه . . . . وقال بعضهم لبعض : إنما حملنا الصاحب الى هذه البلاد طلباً لهلاكنا »[2].

---

(1) ذيل تجارب الامم : ١٦٣–١٦٤ ، والكامل : ١٣٩/٧ .
(2) نفس المصدر : ١٦٥–١٦٦ .

وبالرغم من تكتم الصاحب ومحاولة عدم ظهوره بمظهر المقترح على فخر الدولة بشأن احتلال العراق - كما مرَّ فيما سبق - ، فالظاهر انه لم ينجح بذلك وان الخبر قد شاع حتى لم يعد يخفى على أحد ، وهؤلاء أجناد فخر الدولة - كما جاء في النص الآنف الذكر - يصرحون بكون الصاحب هو المحرض على هـذا العمل ، ويظنون بأن ابن عباد يهدف - بحركته هذه - الى إهلاكهم وإتلافهم ، كما اننا نجد صدى هذا النبأ في بغداد ايضاً حيث يروي المؤرخون بأن بهاء الدولة أمير بغداد لما سمع بوصول جيوش فخر الدولة الى الاهواز في طريقها الى العراق جهَّز جيشاً كبيراً وجعل على رأسه الحسين بن علي الفراس و « قدَّمه وعظَّمه ولقبه الصاحب مغايظة لابن عباد وخلع عليه »[1].

والتحم الجيشان بمعركة طاحنةٍ كان المتوقع أن يفوز فخر الدولة بنصرها ، ولكنَّ بعض الظروف والمصادفات من جهة ؛ وجهل جيش فخر الدولة بطبيعة أرض المعركة من جهة اخرى ، كانت كلها من الاسباب المباشرة لاندحار جيش الري حيث كانت بقربهم عـدة انهـار جاءهـا المدّ في تلك الايام فطفحت وغمرت الصحارى المحيطة بها ، فظن جيش فخر الدولة ان هذا الفيضان عمل مقصود ومكيدة عسكرية ؛ وان بثقاً كبيراً قد فتحه عدوهم عليهم ليغرقهم ، ولم يكونوا على علم سابق بالمدود وأحوالها فانهزموا ناكصين على اعقابهم فأسر منهم كثير واستأمن منهم كثير .

وهناك من المؤرخين مَنْ ينسب هذه الهزيمة للصاحب ، وانه تعمَّد ذلك عناداً لفخر الدولة فيقول : « ربما كان سببَ هذا الفعل من الصاحب ما اعتمده فخر الدولة معه من الارتياب به ؛ وردّه حين سار من همذان على جادة العراق ؛

---

(١) ذيل تجارب الامم: ١٦٦ .

خوفاً من ميله الى أولاد عضد الدولة ، ومثل ذلك ما أثر في القلوب ، وأقام البريء مقام المريب [1] » .

ولا أستطيع الانسياق مع أبي شجاع في اتهامه للصاحب ، لعدم العثور على مثله في كتب التاريخ الاخرى ، ولمخالفته لرغبة الصاحب وشوقه الملح الى حكم بغداد والتصدر فيها ، خصوصاً وقد روى المؤرخون ما قد شاع وعُلم في ايران والعراق من أن الصاحب هو المحرّض على هذا الهجوم ، وان هذا الأمر كله مستند الى تحريك الصاحب وتشجيعه والاقتراح به والسعي في سبيله ، ونتيجة ذلك ان فشل هذه الحركة معناه فشل الصاحب فيما نواه وعزم عليه ، وهذا ما لا يرضاه كل أحد لنفسه فضلاً عن ابن عباد المعجب الطموح .

هذا كله بالاضافة الى أن أبا شجاع لم يكن محايداً مع الصاحب ، بل كان يحاول أن يهتبل كل فرصة ممكنة في كتابه للطعن بالصاحب والتشهير فيه .

كيف ونحن نرى أبا شجاع يروي عن الصاحب قوله لفخر الدولة بعد الهزيمة : « إن أمثال هذه الامور تحتاج الى توسع في العطاء ، وضايقتَ الناس مضايقة ، وأضعفتَ فينا آمالهم ، وقطعت منّا حبالهم ، فان استدركتَ الأمر باطلاق المال واستمالة الرجال ضمنتُ لك ردّ أضعاف ما تطلقه بعد سنة من ارتفاع هذه البلاد ، فلم يكن منه اهتزاز لهذا القول .... ولم تسمح نفس فخر الدولة بعطاء للشحّ الغالب عليه ، وأخذ الناس في التسلل لاحقين بأصحاب بهاء الدولة ، حتى كان النقباء يطوفون في صبيحة كل يوم على الخيم فيجدون كثيراً منها قد خلا من أصحابها [2] » .

---

(١) ذيل تجارب الامم : ١٧٠ .
(٢) نفس المصدر : ١٧٠-١٧١ .

ويروي ابن الأثير معركة الأهواز هذه فيقول في خلال ذلك : إن فخر الدولة لمّا ملك الأهواز « أساء السيرة مع جندها وضيق عليهم ، ولم يبذل المال ، فخابت ظنون الناس فيه ، واستشعر منه أيضاً عسكره وقالوا : هكذا يفعل بنا اذا تمكن من إرادته ، فتخاذلوا ، وكان الصاحب قد أمسك نفسه تأثراً بما قيل عنه من اتهامه ، فالأمور بسكوته غير مستقيمة ، فلمّا سمع بهاء الدولة بوصولهم الى الأهواز سيّر اليهم العساكر والتقوا هم وعساكر فخر الدولة . . . . فانهزموا ، فقلق فخر الدولة من ذلك ، وكان قد استبدّ برأيه ، فعاد حينئذ الى رأي الصاحب ، فأشار ببذل المال واستصلاح الجند ، وقال له : إنّ الرأي في مثل هذه الأوقات إخراج المال وترك مضايقة الجند ، فان أطلقتَ المال ضمنتُ لك حصول أضعافه بعد سنة ، فلم يفعل ذلك ، وتفرق عنه كثير من عسكر الأهواز ، واتسع الخرق عليه ، وضاقت الامور به ، فعاد الى الري [1] » .

ويستفاد من بعض النصوص التاريخية أن هذه الرحلة والحملة العسكرية بملابساتها ومشاكلها وما أظهره فخر الدولة من التشكيك بحسن نية الصاحب وعدم الاعتماد عليه والخوف من انحيازه الى أولاد عضد الدولة — كان كل ذلك سبباً في انقطاع العلاقة القلبية والمودة المتبادلة بين الأمير ووزيره ، وحيث لم يكن باستطاعة فخر الدولة عزل الصاحب وإبعاده عن الحكم فقد سكت على مضض ، وصبر على ألم حتى توفي الصاحب في عام ٣٨٥ .

ولما توفي الصاحب تكشّف فخر الدولة وتجاهر بما كان يضمر « فطالب أبا العباس الضبي — خليفة ابن عباد في الوزارة — بتحصيل ثلاثين الف درهم

(١) الكامل : ٧/١٣٩ــ١٤٠ .

من الأعمال ومن المتصرفين فيها ، وقال له : إن الصاحب أضاع الأموال وأهمل الحقوق ، وقد ينبغي أن يستدرك ما فات منها »[1] .

« وقبضا على أصحاب ابن عباد ، وتتبّعا كل من جرت مسامحة باسمه في أيامه ، وقرّرا المصادرات في البلاد . . . الخ »[2] .

---

(١) ذيل تجارب الامم : ٢٦٣ .

(٢) نفس المصدر : ٢٦٤ ، وقريب منه فى الكامل : ٧/١٧٠ .

بلغت الوزارة – في ظل ابن عبّاد – درجة سامية من الأبّهة والجلالة والرفعة ، لم يسبق لها مثيل في تاريخ وزارات الدويلات ، وبلغ الصاحب بن عباد من الشأن والمكانة والرتبة مركزاً لم ينله أحد من وزراء الأمراء ، فلم يكن – كغيره – وزيراً قانعاً من دنياه باللقب الرفيع والمراسيم الشكلية ، بل كان وزيراً كبيراً نافذ السلطان بكل ما لهذه الكلمة من معنىً أو معان ، فهو محترم الكلمة ، مطاع الأمر ، مهيب الجانب ، عظيم المنزلة ، رفيع الشأن ، يخضع له العلماء والأمراء ، وتعنو له القادة والزعماء ، ويذعن لفضله وأدبه كل فاضل وأديب ، حتى أصبح الاذن عليه ، والجلوس في ناديه ، وساماً كبيراً لا يعادله وسام ، وحظّاً عظيماً تنذكُ دونه الحظوظ .

وكان الأمير فخر الدولة – صاحب الملك وحاكم البلاد – كغيره من رجال المملكة وأقطابها في احترامه للصاحب وتقديره له ، وإكبار عبقريته وكفاءته ، ومعرفه حقه عليه وخدمته له وعنايته به ، وفي بيان بعض ذلك يقول الصاحب :

« ما استأذن لي على فخر الدولة وهو في مجلس الانس إلاّ انتقل الى مجلس الحشمة فيأذن لي فيه ، وما أذكر أنه تبذّل بين يديّ ومازحني قط إلا مرة واحدة ، فانه قال لي في شجون الحديث : بلغني انك تقول : المذهب مذهب الاعتزال و . . . . ، فأظهرت الكراهة لانبساطه ، وقلتُ : بنا من الجدّ ما لا تفرغ معه للهزل ، ونهضت كالمغاضب ، فما زال يعتذر إليّ مراسلة حتى عاودت مجلسه ، ولم يعدْ بعدها الى ما يجري مجرى الهزل »[1] .

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٧٩–١٨٠ ، وقريب منه في معجم الادباء : ٦/٢٨٤ .

وروى لنا الوزير أبو سعد الآبي صوراً ناطقة عن مقدار احترام فخر الدولة للصاحب ، ومبلغ ما كان عليه سائر رجال الدولة وأعيانها من خضوع وتقدير له ، فقال :

« وأما هيبته في الصدور ، ومخافته في القلوب ، وحشمته عند الصغير والكبير والبعيد والقريب ، فقد بلغت الى أن كان صاحبه فخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريده بسببه ، ويمسك عمّا تشره اليه نفسه لمكانه ، وقد ظهر ذلك للناس بعد موته ؛ وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته ، فعلم انه كان يزم نفسه لحشمته ، ثم كان يحلّه محل الوالد إكراماً واعظاماً ، ويخاطبه بالصاحب شفاهاً وكتاباً » .

« فأما أكابر الدولة فكان الواحد إذا رأى أحد حجّابه بل أحد الأصاغر من حاشيته ، فانّ فرائصه كانت ترتعد ، وجوانحه كانت تصطفق ، الى أن يعلم ما يريده منه ويخاطبه به » .

« وتظلمت اليه امرأة من صاحب لفولاذ بن مانادر ، وذكرت انه ينازعها في حق لها ، فما زاد على أن التفت الى فولاذ ، وكان في موكبه يسير خلفه ، فبهت وتحيّر ، وارتعد ووقف ، ولم يبرح الى أن سار كافي الكفاة ، ثم أرسل مع المرأة مَنْ أرضاها وأزال ظلامتها »[1] .

وأضاف أبو سعد قائلاً :

وكان « أبناء الملوك والأمراء والقواد وسائر من ساواهم من الزعماء الكبار مثل أولاد مؤيد الدولة ؛ وابن عز الدولة ؛ ومنوجهر بن قابوس بن وشمكير ؛ وأبي الحجاج بن ظهير الدولة ؛ وأسفهيد بن أسفار ؛ وحسن بن وشمكير ؛

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٤٧-٢٤٨ .

وفولاذ بن مانادر ؛ ونصر بن الحسن بن الفيروزان ؛ وأبي العباس الفيروزان ابن الحسن بن الفيروزان ؛ وكبّات بن بَلْقَسِم بن الفيروزان ؛ وحيدر بن وهسوذان ؛ وكيخسرو بن المرزبان بن السلاّر ؛ وجستان بن نوح بن وهسوذان ؛ وشيرزيل بن سلاّر بن شيرزيل ، وكان في يد كل واحد من هؤلاء من الاقطاع ما يبلغ ارتفاعه خمسين الف دينار وما دونها الى عشرين الف دينار ؛ ومن أكابر القوّاد ما يطول تعدادهم . كانوا يحضرون باب داره ، فيقفون على دوابّهم مطرقين لا يتكلم واحد منهم هيبة وإعظاماً لموضعه ، الى أن يخرج أحد خلفاء حجّابه فيأذن لبعض أكابرهم ويصرفهم جملة ، فكان من يؤذن له بالدخول يظن انه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة فرحاً ومسرة ؛ وشرفاً وتعظيما ، فاذا حصل في الدار وأذن له في الدخول الى مجلسه قبّل الأرض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات أو أربعاً الى أن يقرب منه ، فيجلس مَنْ كانت رتبته الجلوس الى أن يقضي كل واحد منهم وطره من خدمته ، ثم ينصرف بعد أن يقبّل الأرض أيضاً مراراً »[1] .

ثم يذكر أبو سعد وفاة ام الصاحب وجلوس ولدها لتقبّل التعازي بها فيقول في أثناء ذلك :

« فأمّا سائر الامراء والقواد مثل منوجهر بن قابوس ملك الجبل ، وفولاذ ابن مانادر أحد ملوك الديلم . . . وغيرهم من الأكابر والأماثل ، فانهم كانوا يحضرون حفاة حسّراً ، وكان كل واحد منهم اذا وقعت عينه على الصاحب قبّل الأرض ، ثم توالى بعد ذلك الى أن يقرب منه ويأمره بالجلوس فيجلس ، وما كان يتحرك ولا يستوفز لأحد ، بل كان جالساً على عادته في غير أيام التعزية »[2].

(١) معجم الادباء : ٦/٢٤٥ـ٢٤٦ .
(٢) نفس المصدر : ٦/٢٣٨ـ٢٣٩ .

ويصف أبو نصر بن خواشادة بعض مشاهد الصاحب فيقول :

« ما غبطت أحداً على منزلةٍ كما غبطت الصاحب أبا القاسم بن عباد ، فانّا كنّا مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية ، فدخل الصاحب الى داره في البلد آخر نهار يومٍ ؛ لحضور المجلس الذي يعقده لأهل العلم ، وتحته دابّة رهواء ؛ وقد أرسل عنانه ، فرأيت وجوه الديلم وأكابرهم من أولاد الامراء يَعْدون بين يديه كما تعدو الركابية »[1] .

ولم تقتصر عظمة الصاحب وجلالة شأنه على داخل منطقة نفوذه فقط ، بل كانت أنباء هذه العظمة المتعالية والشخصية الفذة تشق طريقها الى سائر البلدان والأصقاع فتؤثر أثرها وتفعل مفعولها ، فاذا بالصاحب يُخشى ويُرجى في خارج مملكته كما يخشى ويرجى داخلها ، واذا بالملوك والوزراء يستدرجونه اليهم ، ويودّون كسب رضاه عليهم ، ويخشون أن يتظاهروا بما يسوؤه ويؤذيه . « لأن جانبه مهيب ، ولمكره دبيب » ـ على حد تعبير أبي حيان ـ ، وقد حفظت لنا مصادر البحث كثيراً من الشواهد التاريخية على ذلك ، واليك بعضها :

١ ـ « حكى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي قال : سمعت الصاحب يقول : أنفذ إليّ أبو العباس تاش الحاجب رقعةً في السرّ بخط صاحبه نوح ابن منصور ملك خراسان يريدني فيها على الانحياز الى حضرته ليلقي إليّ مقاليد ملكه ، ويعتمدني لوزارته ، ويحكّمني في ثمرات بلاده . قال : وكان ممّا اعتذرتُ به من تركي امتثال أمره ذكر طول ذيلي وكثرة حاشيتي ؛ وحاجني لنقل كتبي خاصةً الى اربعمائة جمل ، فما الظن بما يليق بها من تجمّلي »[2] .

---

(١) معجم الادباء : ٦/ ٢٨٠ .

(٢) انباه الرواة : ١/ ٢٠٢ ، ومثله في يتيمة الدهر : ٣/ ١٧٣ .

٢ ـ يقول أبو حيان التوحيدي للوزير ابن سعدان في أثناء حديثه عن الصاحب : « اني عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد ، أودعتُها نَفَسي الغزير ولفظي الطويل والقصير ، وهي في المسوّدة ، ولا جسارة لي على تحريرها ، فان جانبه مهيب ولمكره دبيب » .

ويجيبه الوزير قائلاً : « انسخ لي الرسالة من المسوّدة ، ولا يمنعنّك ذاك ، فان العين لا ترمقها ، والاذن لا تسمعها ، واليد لا تنسخها »[1] .

ويضيف ابن سعدان قائلاً : « أجِدْ تحريرها ، وعليّ بها ، ولك الضمان ألاّ يراها إنسان ، ولا يدور بذكرها لسان »[2] .

واذا عرفنا ان ابن سعدان كان وزيراً لصمصام الدولة البويهي أمير بغداد ، ثم قرأنا هذا النص فرأينا خوفه ـ كأبي حيان ـ من إظهار هذه الرسالة ، نعرف مقدار ضخامة السمعة التي كان يتمتع بها ابن عباد وهو غائب بعيد .

٣ ـ يقول الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير في أثناء رسالة للصاحب : « وصل خطاب الصاحب ـ أدام الله عزّه ـ محققاً ما انتظرتُه من تفضُّله ، وموثّقاً عُرى ثقتي بتكفُّله ، فاجتليتُ طلعة اليمن في أثناء معانيه ، واجتنيتُ ثمار اليُسر ممّا صرّف قوله فيه ، وشكره على هذه الحال حقٌّ واجب ، وغريم مطالب ، ولكن أنّى لي بشكر فعلٍ أرغم أنف الدهر ، وحلّل عُقَد السحر ، بلسانٍ دخيل ، وطبع كليل ، إلاّ أنْ أُعار بلاغته فاعبّر بها عمّا في الضمير ، وأسلمُ معها من سمة التقصير ، وهذا رجاء ضيّق المجال ، وتمنٍ منيع المنال ، فمن أين للضباب صوب السحاب ؟ ، وللغراب هويّ العقاب ،

---

(١) الامتاع والمؤانسة : ١/٥٤ .

(٢) نفس المصدر : ١/٦١ .

وهيهات أن تكتسب الأرض لطافة الهواء ، ويصير البدر كالشمس في الضياء »[1] .

* * *

والى جانب هذا التقدير الكبير والاحترام البالغ الذي حظي به الصاحب من امراء عصره ورجال مصره وأقطاب الحكم والنفوذ من معاصريه ، فانا نجد احترام رجال العلم والأدب له كذلك بل فوق ذلك ، فكان إجلال العلماء والادباء له وإكبارهم لمقامه خليطاً من تقديرهم لعلمه ، وإكبارهم لمركزه ، ورجائهم لنواله ، وخوفهم من سطوته .

ولا مجال لي هنا للدخول في تفاصيل هذا الموضوع وسرد ما قيل من شعرٍ ونثر ، ولكني أروي - فيما يلي - بعض النصوص التاريخية الدالة على المطلوب ليشترك القارئ معي في الوقوف على جلية الأمر :

١ - اجتمع الصاحب - يوماً - بالقاضي أبي الحسن الهمذاني ، فكانت بينهما محادثة مطوّلة رواها أبو حيان التوحيدي ، ثم روى حال الهمذاني ساعة المكالمة فقال : « كان مثل الفأرة بين يدي السنّور ، وقد تضاءل وقمُؤَ لا يصعد له نَفَس إلا بنزع ، تذلُّلا وتقللا ، على كبره في نفسه »[2] .

٢ - يقول ميمون بن سهل الواسطي في خلال سرده لبعض مشاهداته (الصاحبية) : « حضرتُ مجلس الصاحب ليلةً بجرجان في جماعة من الفقهاء والمتكلمين كالعادة كانت عنده في أكثر ليالي الأسبوع »[3] .

٣ - « لما عزم الصاحب بن عباد على الاملاء وهو وزير ، خرج يوماً

---

(١) كمال البلاغة : ٧٦-٧٧ .
(٢) معجم الادباء : ٦/١٩٠ .
(٣) يتيمة الدهر : ٣/٣٣ .

متطلساً متحنكا بزي أهل العلم ، فقال : قد علمتم قدمي في العلم . فأقرّوا له بذلك ، فقال : وأنا متلبّس بهذا الأمر ، وجميع ما انفقته من صغري الى وقتي هـذا من مال ابي وجدّي ، ومع هذا فلا أخلو من تبعات اُشهد الله واُشهدكم اني تائب الى الله من ذنب أذنبته . . . . ، ثم خرج فقعد للاملاء ، وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملي الواحد ينضاف اليه ستة كل يبلّغ صاحبه ، فكتب الناس حتى القاضي عبدالجبار[1]» .

٤ ـ يقول الثعالبي : « احتفّ به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، مَنْ يربي عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، وملك رقاب المعاني ، فانه لم يجتمع بباب أحدٍ من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين... ، وجمعت حضرة الصاحب باصبهان والري[2] وجرجان مثل ابي الحسين السلامي ، وابي بكر الخوارزمي ، وابي طالب المأموني ، وابي الحسن البديهي ، وابي سعد الرستمي ، وابي القاسم الزعفراني ، وابي العباس الضّبي ، وابي الحسن بن عبدالعزيز الجرجاني ، وأبي القاسم بن ابي العلاء ، وابي محمد الخازن ، وابي هاشم العلوي ، وابي الحسن الجوهري ، وبني المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشاني ، وابي الفضل الهمداني ، واسماعيل الشاشي ، وابي العلاء الأسدي ، وابي الحسن الغويري ، وابي دلف الخزرجي ، وابي حفص الشهرزوري ، وابي معمر الاسماعيلي ، وابي الفياض الطبري ، وغيرهم ممّن لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عني اسمه ، ومدحه ـ مكاتبةً ـ الشريف الموسوي الرضي ، وابو اسحاق

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٥٢ .

(٢) فى النسخة المطبوعة : الزهرى ، وهو خطأ صوابه ما ذكرناه .

الصابي ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وابن نباتة »[1] .

٥ - يُروى عن الصاحب قوله : « مدحت بمائة الف بيت[2] » ، وفي رواية ياقوت والسيوطي : « مدحت بمائة الف قصيدة[3] » .

٦ - يقـول البيهقي عن الصاحب : « مدحه خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين[4] » .

وهكذا كان الصاحب بن عباد جامع شمل العلماء والادباء ، والمنفق عليهم بكرم وسخاء ، فازدحموا على بابه وتدافعوا نحوه من كل حدب وصوب ، « والمنهل العذب كثير الزحام » ، حتى أصبح اجتماعهم لديه مضرب المثل في التاريخ ، فلم يجد المؤرخون - حينما ترجموا للامير الصنهاجي المعز بن باديس وذكروا شعراءه - تشبيهاً أبلغ من قولهم : « انه اجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب بن عبّاد[5] » .

* * *

وبعـــد :

فلقد كان الصاحب في وزارته قوة طافحة بالعمل والنشاط ، دائبة الحركة في سبيل الخدمة العامة والتنظيم الصحيح :

فهو القائد في الحروب[6] .

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٦٩-١٧٠ .

(٢) الظرائف واللطائف : ٢٣-٢٤ .

(٣) معجم الادباء : ٦/٢٦٣ ، وبغية الوعاة : ١٩٦ .

(٤) معجم الادباء : ٦/٢٥٧ .

(٥) ظهر الاسلام : ١/٣٠٤ .

(٦) راجع ص ١١٦-١١٧ من هذا الكتاب .

وهو منظّم الخراج وواضع اسسه العادلة [1] .

وهو العالم الأديب المتكلم الشاعر الذي نشر العلم وخدم الدين وحمل لواء الأدب عالياً .

وهو باسط العدل بين الرعية ، وحاسم مشاكل الشعب [2] .

وهو الكريم الذي يهب المآت والالوف من الدنانير لرجال العلم في بغداد والحرمين فضلاً عن رجال بلده وحضّار مجلسه [3] .

وهو مشيّد المساجد والمشاهد المقدسة في مملكته ، حيث بنى قبر محمد بن جعفر الديباج بجرجان [4] ، وشيّد المسجد الضخم باصفهان [5] .

وهو الآمر بتخفيض بعض الضرائب عن امتّه ترفيهاً عليهم [6] .

وكان موقفه مع شعبه ومع عمّاله وموظّفيه مبنيّاً على هذا الأساس :

« واسع الحكمة طويل الخطوة كثير التوسع والمسامحة في باب النوال مع السؤّال » .

---

(١) تاريخ قم : ١٤٥ .

(٢) محاسن اصفهان : ٨٤ .

(٣) راجع ص ٦٠ـ٦٤ من هذا الكتاب .

(٤) تاريخ قم : ٢٢٣ـ٢٢٤ .

(٥) محاسن اصفهان : ٨٦ ، ويقول المافروخي فى وصفه : « اوتى فضلا ... فى صلابة الاطيان ، وايفاع المكان ، واستحكام البنيان ، والمنارة التى أجمع المهندسون على انه لم يبن فى العالم أرشق منها قدا ، وأتم مدا ، وأدق عملا ، وأحكم تفصيلا وجملا ، قد تأنق فى ابداعها الصانع وتنوق ، ولطف فى بنائها ودقق ، اتخذها من اللبن والطين فى قرار مكين ، قيدت قاعدتها من الارض بقفيز ، وشيدت قائمتها الى حرز حريز ، ارتفاعها مائة ذراع ، وسطحها باع فى باع » .

(٦) تاريخ قم : ١٦٥ .

« شديد الشكيمة ضيّق الحكة قطوف الخطوة في باب الاموال مع العمال»
« يسامح في بدرة سائلاً ، ويضايق في حبّة عاملا » .
« وكذلك الكريم يتسع من حيث السخاء ، ويضيق من حيث الوفاء[1]».

---

(١) رسائل الخوارزمى : ٢٨ .

القسم الثالث

شیوخ واساتذہ

بدأ ابن عبّاد دراسته الاولى في اصفهان ، احدى حواضر العلم والفضل في ايران ، ولم تكن له دراسة سابقة في بلد نشأته - طالقان - إلا تعلّم مبادىء الكتابة والقراءة على أبيه .

وكان طبيعياً أن يتوجه الصاحب نحو الدراسة والتعلم منذ نعومة اظفاره ، وأن تكون لديه القابلية الجيدة والتقبّل الذهني الصحيح لكل ما يقرأ ويسمع ، فكل ذلك من حسنات البيئة العلمية والبيت المثقف والتوجيه الصحيح الذي رُزقه الصاحب من يومه الأول .

وكل ما يمكن أن يستفاد من مصادرنا التاريخية ان ابا الصاحب - عباداً بن العباس - كان أول مدرّس قام بتعليم الصاحب ما يحتاجه من المقدمات العلمية والدروس الأوليّة ، ولعله درس عليه ما هو أكثر من الكتابة والقراءة كبعض الدروس النحوية أو الدينية ، أو ما شاكلها من المعلومات البسيطة التي يستطيع صبي - بعمر الصاحب - فهمها وهضمها على النحو المطلوب .

أمّا ما رواه بعض المؤرخين [1] من كون عباد أحد شيوخ ابنه في الرواية فهو من الأخطاء الواضحة ، لأن عباداً توفي وعمر ابنه تسع سنين ، ولا يمكن لصبي بهذا العمر أن يروي النصوص القديمة - دينية أو أدبية - عن أحد ، لعدم قدرته على تلقي ذلك وتمثيله في ذهنه ، واظن ان هذا الخطأ راجع - في حقيقته - الى ما ورد في بعض الكتب من وفاة عباد ابي الصاحب في عام (٣٨٥) ، فظنّ هؤلاء ان وجود عباد على قيد الحياة الى تلك السنة يستلزم سماع ابنه منه وروايته عنه ، فسجلوا ذلك بلا تمحيص ، في حين ان هذا كله من أخطاء القلم ، وان عباداً قد توفي في عام (٣٣٥) - كما مرّ عليك - [2] .

---

(١) الانساب : ٣٦٤ ، وبغية الوعاة : ١٩٦ ، والمنتظم : ١٨٥/٧ ، والنجوم الزاهرة : ١٧٠/٤ .

(٢) راجع ص ٢٠-٢٢ من هذا الكتاب .

ولما هاجر عبّاد الى اصفهان وضع لابنه اسماعيل منهجه الدراسي الدقيق ، وهيّأ له الاساتذة الاكفاء القادرين على القيام بواجبهم العلمي المطلوب ، فبدأ الصاحب دراسته بكل شوق وتلهف ورغبة ، متدرّجاً في ذلك على النحو الطبيعي المتكافىء مع تدرُّجه في الفهم والنضج والتفكير ، ومن دون أن يكون لمصابه بوفاة أبيه ـ وهو في مقتبل العمر وريعان الصبا ـ أي أثر على رغبته وإقباله .

وكان لتشجيع والدته الحنون وترغيبها له على طلب العلم وقعه الكبير في نفسه ، ورجعه البعيد في استمراره وعكوفه على ذلك ، فكانت تدفع له ـ حينما يخرج الى المسجد للقراءة ـ بعض المال ليتصدق به على أول فقير يلاقيه[1] ، ثم كانت تغمره من عطفها وعنايتها وبرها بما يسلّيه ويعزّيه عن مصابه ، ويزيده شوقاً واندفاعاً نحو درسه وكتابه .

وإذا كنّا لم نعثر ـ في المراجع والمصادر ـ على ذكرٍ لأسماء أساتذته الأولين ، وعلى أيّ إشارة لمنهج دروسه اليومية ومواضيعها العلمية ، فاننا لنكتفي بما وقفنا عليه من أسماء أساتذته الآخرين ، مشيرين الى موجز من الترجمة لهم ، والى ما سجّله الصاحب من انطباعاتٍ عنهم ، مع بيان مقدار فضلهم ، والتنبيه على فرع اختصاصهم الذي اشتهر به كل واحد منهم :

١ ـ ابن العميد :

« هو ابوالفضل محمد بن الحسين ، عين المشرق ، ولسان الجبل ، وعماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرئاسة وآلات الوزارة ، والضرب في الآداب بالسهام الفائزة ، والأخذ من

(١) معاهد التنصيص : ٢/١٥٤ ، وبغية الوعاة : ١٩٦ .

العـــلوم بالأطراف القوية ، يُدعى الجاحظ الأخير ، والاستاذ والرئيس ، يضرب به المثل في البلاغة ، ويُنتهى اليه في الاشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل ، وجزالة الألفاظ وسلاستها ، الى براعة المعاني ونفاستها ، وما أحسن وأصدق ما قال الصاحب ـ وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها ـ : بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد ، وكان يُقال : بدئت الكتابة بعبدالحميد وختمت بابن العميد . . .[1] » .

ولد في آخر سنة من القرن الثالث أو أول سنة من القرن الرابع[2] ، وتولى الوزارة لركن الدولة بعد وفاة ابي علي القمي في عام ٣٢٨ ، وكان عمره دون الثلاثين .

« كان أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب ، وتوسعاً في النحو والعروض ، واهتداءً الى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والاسلام[3] » .

و « أما تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه في ارفع درجة وأعلى رتبة ، ثم اذا ترك هذه العلوم وأخذ في الهندسة والتعاليم فلم يكن يدانيه فيهما أحد ، فاما المنطق وعلوم الفلسفة والالهيّات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته الا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلّم[4] » .

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٣٧ .
(٢) ابن العميد : ٢٤ .
(٣) تجارب الامم : ٦/٢٧٥ .
(٤) نفس المصدر : ٦/٢٧٧ .

واما الكتابة فكان الرجل مؤسس مذهب خاص فيها كان له الصدى الكبير والرجع البعيد في عصره وفيما تلاه من العصور .

وكان ابن العميد من أبرز أساتذة الصاحب واكثرهم أثراً فيه ووقعاً في نفسه ، فقد درس الصاحب عليه صنعة الكتابة والأدب ونقد الشعر[1]، وكان ابن العميد من أكابر نقّاد الأدب في عصره ، بل لعلّي لا ابالغ اذا قلت : انه أول من أسس هذا اللون من ألوان الأدب في ذلك العهد ، ومنه أخذ الصاحب فن النقد الأدبي وكتب بتأثيره رسالته في نقد شعر المتنبي والكشف عن مساوئه ، وفي ذلك يقول الصاحب :

« ما رأيت من يعرف الشعر حقّ معرفته ، وينقده نقد جهابذته ، غير الاستاذ الرئيس ابي الفضل بن العميد ـ أدام الله ايامه وحصن لديه إنعامه ـ ، فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخيُّر القافية والوزن ، وعن مجلسه ـ أعزه الله تعالى ـ أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطراف كلامه تعلقت فيما أتحلى من هذا الجنس[2]» .

ومدح ابن عباد استاذه ابا الفضل كثيراً وفي كل مناسبةٍ بالشعر الطافح بالحب الصادق والعاطفة الصحيحة والولاء المنبعث عن القلب ، ومن ذلك قوله من جملة قصيدة :

ايها الآملون حطّوا سريعاً . برفيع العماد واري الزنادِ
فهو إن جاد ضنَّ حاتم طيٍ وهو إن قال قلَّ قسّ اياد

---

(١) وفيات الاعيان : ١/٢٠٦ ، وبغية الوعاة : ١٩٦ ، وشذرات الذهب : ٣/١١٤ ، وأمل الآمل : ٤٢ نقلا عن طبقات الادباء ·
(٢) الكشف عن مساوىء شعر المتنبى : ٤٠ ·

وإذا ما ارتأى فأين زياد ... من علاه وأين آل زياد

الى أن يقول :

ومديحي إن لم يكن طال أبيا ... تاً فقد طال في مجالي الجياد

ان خير المدّاح مَنْ مدحته ... شعراء البلاد في كل نادي[1]

ويقول فيه من قصيدة أخرى :

قدم الرئيس مقدماً في سبقه ... وكأنما الدنيا جرت في طرقه

فجبالها من حلمه وبحارها ... من جوده ورياضها من خلقه

وكأنما الأفلاك طوع يمينه ... كالعبـــد منقاداً لمالك رقّه

قد قاسمته نجومها فنحوسها ... لعدوّه وسعودها في افقه[2]

٢ ـ ابن فارس :

ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريّا « المقيم بهمذان ، من أعيان أهل العلم وأفراد الدهر ، له كتب بديعة ورسائل مفيدة وأشعار جيدة وتلامذة كثيرة ، منهم بديع الزمان الهمذاني[3] » والصاحب بن عبّاد[4].

جُلب الى الريّ ليقـوم بتدريس ابي طالب مجد الدولة بن فخر الدولة ابي الحسين بن بويه ، فاغتنم الصاحب هذه الفرصة فقرأ عليه وتلقّى منه ، وكان يقول فيه : « شيخنا ابو الحسين ممن رزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف »[5].

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٤٠ .
(٢) نفس المصدر : ٣/١٤٠ـ١٤١ .
(٣) انباه الرواة : ١/٩٢ـ٩٣ .
(٤) وفيات الاعيان : ١/٢٠٦ ، وبغية الوعاة : ١٩٦ ، وأمل الآمل : ٤٢ ـ نقلا عن طبقات الادباء ـ .
(٥) معجم الادباء : ٤/٨٣ .

ونشأت بين ابن عباد واستاذه علاقة وصداقة ما فتأت تزداد قوة ومتانة على مرّ الأيام حتى بلغت أسمى مراتبها وأعلى درجاتها ، وحتى ألّف ابن فارس كتابه الجليل في فقه اللغة فأسماه « الصاحبي » نسبة لصاحبه ابن عباد ، وفي ذلك يقول :

« هذا الكتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها ، وانما عنونته بهذا الاسم لأني لما ألفته أودعتُه خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة عمر الله عراص العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره ، تجمّلا بذلك وتحسُّنا ، إذ كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وأدب مرضيّا مقبولا ، وما يرذله أو ينفيه منفيّا مرذولا ، لأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ومُفاد منه [1] » .

والمؤسف ان هذه العلاقة المتينة لم تدم طويلا ، وكان السبب في انقطاعها عداء ابن عباد لآل العميد ـ بعد موقف ابي الفتح بن العميد منه ـ وشديد تعصّب ابن فارس لهم ، ولمّا صنف ابن فارس كتاب الحجر وأرسله الى الصاحب قال : « ردّوا الحجر من حيث جاء ، وأمر له بجائزة ليست بسنية [2] » .

وروى الصاحب يوماً قول الشاعر :

جاءت بخفٍّ وحنين ورحلْ جاءت تمشّى وهي قدّام الابلْ

« قال : رأيتُ بعض الجهّال يصحف ويقول : وحنين وزجل » فسأل ابو حيان التوحيدي من بعض أصحاب الصاحب عن المقصود بهذا فقال له : انه ابن فارس معلم ابن العميد ابي الفتح [3] » .

---

(1) الصاحبي : ٢ .
(2) يتيمة الدهر : ٣/١٨٠ ، وانباه الرواة : ١/٩٣ .
(3) معجم الادباء : ٦/٢٣١ .

٣ — السيرافي :

ابو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان النحوي المعروف بالقاضي السيرافي « سكن بغداد .... وولي القضاء .... وكان يدرس القرآن والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والكلام والشعر والعروض والقوافي والحساب وعلوماً سوى هذه[1] » .

قرأ عليه الصاحب لما زار بغداد بصحبة الأمير البويهي في عام ٣٤٧ هـ ، وفي ذلك يقول :

« وانتهيت الى ابي سعيد السيرافي ، وهو شيخ البلد وفرد الأدب وحسن التصرف ، ووافر الحظ من علوم الأوائل ، فسلمت عليه ، وقعدت اليه ، وبعضهم يقرأ الجمهرة[2] » .

ثم يقول بعد أن يروي بعض المناقشات التي دارت بينهما :

« ورأيت الشيخ - بعد ذلك - عزيزاً[3] فاضلاً ، متوسعاً عالمًا ، فعلقت عليه وأخذت منه ، وحصلت تفسيره لكتاب سيبويه ، وقرأتُ صدراً منه[4] » .

٤ — ابو بكر بن كامل :

« احمد بن كامل بن خلف بن شجرة بن منصور بن كعب بن يزيد . ابو بكر القاضي : أحد أصحاب محمد بن جرير الطبري ، وكان من العلماء بالأحكام وعلوم القرآن ، والنحو والشعر وأيام الناس ، وتواريخ اصحاب

---

(١) انباه الرواة : ١/٣١٣ ، ويراجع فى ترجمته : بغية الوعاة : ٢٢١ ، وشذرات الذهب : ٣/٦٥ ، وتاريخ بغداد : ٣٤١/٧ ، والبداية والنهاية : ٢٩٤/١١ .

(٢) معجم الادباء : ٦/٢٧٦-٢٧٧ .

(٣) كذا فى النسخة المطبوعة ، وأظنه : غزيرا .

(٤) معجم الادباء : ٦/٢٧٩ .

الحديث ، وله مصنفات في أكثر ذلك »[1].

حدث الصاحب عنه[2] ، وحضر عليه ـ لما ذهب الى بغداد ـ وفي ذلك يقول:

« والقاضي أبو بكر بن كامل بقية الدنيا في علوم شتى ، يعرف الفقه والشروط والحديث ، وما ليس من حديثنا ، ويتوسع في النحو توسعاً مستحسناً ، وله في حفظ الشعر بضاعة واسعة ، وفي جودة التصنيف قوة تامة ، ومن كبار رواة المبرّد وثعلب ، والبحتري وأبي العيناء وغيرهم ، وقد سمعت قدراً صالحاً مما عنده »[3].

٥ — أبو بكر بن مقسم :

« محمد بن الحسن بن يعقوب بن الحسن بن الحسين بن محمد بن سليمان ابن عبيدالله بن مقسم أبو بكر العطار المقري النحوي .. ولد سنة ٢٦٥ ، وسمع أبا مسلم الكجي وثعلباً ويحيى بن محمد بن صاعد . . . وكان ثقة من أعرف الناس بالقراءات ، وأحفظهم لنحو الكوفيين .. »[4].

قرأ عليه الصاحب ـ لما زار بغداد ـ ، وفي ذلك يقول :

« أبو بكر بن مقسم ، وما في أصحاب ثعلب أكثر دراية وما أصحُّ رواية منه ، وقد سمعتُ مجالسه ، وفيها غرائب ونكت ، ومحاسن وطرف ؛ من بين كلمة نادرة ، ومسألة غامضة ، وتفسير بيت مشكل ، وحلّ عقد معضل ، وله قيام بنحو الكوفيين وقراءتهم ، ورواياتهم ولغاتهم »[5].

---

(١) انباه الرواة : ١/٩٧ ، ويراجع في ترجمته : شذرات الذهب : ٣/٢ ، وبغية الوعاة : ١٥٣ ، وتاريخ بغداد : ٤/٣٥٧ .

(٢) لسان الميزان : ١/٤١٣ .

(٣) معجم الادباء : ٦/٢٧٩ .

(٤) بغية الوعاة : ٣٦ ، ويراجع في ترجمته : تاريخ بغداد : ٢/٢٠٦ ، وانباه الرواة : ٣/١٠٠ ، وشذرات الذهب : ٣/١٦ ، والمنتظم : ٧/٣٠ .

(٥) معجم الادباء : ٦/٢٧٩ .

٦ — عبدالله بن جعفر بن فارس :

يقول ابن حجر في ترجمته للصاحب : « أملى مجالس في أيام وزارته حدّث فيها عن عبدالله بن جعفر بن فارس »[١] .

ولم أعثر على ترجمة لهذا الاسم في كتب الأدب والتاريخ ، ولعله عبدالله ابن جعفر بن درستويه النحوي الفارسي صاحب المبرد ، والراوي عن ابن قتيبة والدارقطني ، المعروف بشدة انتصاره للبصريين في مذهبهم في اللغة والنحو[٢] .

٧ — العباس بن محمد النحوي :

أبو الفضل الملقب بعرام ، « روى عن عبيدالله بن محمد اليزيدي ، وعنه الصاحب بن عباد ، وكان رقيقاً يتعاطى المنادمة ، وله رسيلات الى جماعة في الطنز واللهو »[٣] .

ولم أعثر على ترجمة في المراجع الأدبيّة لهذا الرجل إلا في بغية الوعاة وإنباه الرواة ، وقد ورد اسمه ـ في ثانيهما ـ هكذا : المفضل بن العباس بن محمد[٤].

٨ — ابو عمرو الصباغ :

« بدر من أبي عمرو الصبّاغ الى الصاحب جفاء ، فقام الصاحب من عنده وكتب اليه :

---

(١) لسان الميزان : ٤١٣/١ .

(٢) يراجع في ترجمته : تاريخ بغداد : ٤٢٨/٩ ، وانباه الرواة : ١١٣/٢ ، وبغية الوعاة : ٢٧٩ .

(٣) بغية الوعاة : ٢٧٦ .

(٤) انباه الرواة : ٣٨٤/٢ .

أودعتَني العلم فلا تجهلِ		كم مقولٍ يجني على مقتلِ
أنت - وإن علمتَني - سوقة		والسيف لا يبقى على الصيقل[1]

ولم أعرف - من هذا النص - أبا عمرو باسمه ولقبه التاريخي لأعثر على ترجمته ، ولعلّه لم يترجم في المصادر والمراجع لعدم اشتهاره بالعلم والفضل ، وعدم بروزه بنحوٍ من الأنحاء .

وبأبي عمرٍو هذا تنتهي قائمة أساتذة الصاحب الذين سُجلت أسماؤهم في الكتب التاريخية ، وسُجلت قراءة الصاحب عليهم وحضوره لديهم ، ولكنهم - على تعدُّدهم - أقلُّ عدداً من القائمة الحقيقية لأساتذة الصاحب وشيوخه ، لأن ابن عباد « سمع بالعراق والري واصبهان الكثير »[2] ، « وسمع الأحاديث من الاصبهانيين والبغداديين والرازيين »[3] .

وروى الدكتور البير نصري نادر[4] ، والدكتور ذبيح الله صفا[5] : ان الصاحب قد حضر على أبي هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي - شيخ المعتزلة في عصره - ، وهو قول لا يستند الى واقع - لأن وفاة أبي هاشم كانت في عام (٣٢١ هـ) قبل ولادة الصاحب بخمس سنين باجماع المؤرخين[6] ، ولعلّه التبس عليهم أبو هاشم بابنه علي الذي يُروى انه « كان عاميّاً لا يعرف شيئاً ،

---

(١) اعيان الشيعة : ١١/٥٠٢ .
(٢) أخبار اصبهان : ١/٢١٤ .
(٣) الانساب : ٣٦٤ .
(٤) فلسفة المعتزلة : ١/٢٥ .
(٥) تاريخ أدبيات ايران : ٥٣ .
(٦) تاريخ بغداد : ١١/٥٦ ، ووفيات الاعيان : ٢/٣٥٥ ، والبداية والنهاية : ١١/١٧٦ ، والنجوم الزاهرة : ٣/٢٤١ ، والمنتظم : ٦/٢٦١ ، وشذرات الذهب : ٢/٢٨٩ .

فدخل يوماً على الصاحب بن عباد فظنّه عالماً فأكرمه ورفع مرتبته ، ثم سأله عن مسألة فقال : لا أعرف ، و (لا أعرف) نصف العلم ، فقال له الصاحب : صدقت يا ولدي ، إلا أنّ أباك تقدم بالنصف الآخر » [1] .

* * *

وبالاضافة الى هؤلاء الأساتذة الذين كانوا المصدر الرئيس لمعارف ابن عباد ، والمنبع الأول من منابع ثقافته ، فقد كانت لديه مصادر ومنابع أخرى يستقي منها العلم والأدب ، ويمتاح ما يشاء من نميرها العذب ومعينها الفيّاض ، وكان لكل واحد منها أثره الكبير فيما بلغه من درجات المعرفة ورتب الفضل ومراقي الكمال الفكري المنشود :

منهـا :

مكتبته الفخمة الكبيرة التي كانت مضرب الأمثال ومهوى أفئدة أهل العلم في ذلك العصر ، فقد كانت تضم أجلّ الكتب العربيـة والفارسية وأنفسها وأغلاها ، وكان يبذل في سبيل الكتب النادرة من المال والجهد ما لا يعدّ ولا يحصى ، ولما طلب منه صاحب خراسان أن يقدم عليه ليعهد بالوزارة اليه ، ويجعل زمام الحكم بيديه ، كان مما اعتذر به قوله : « عندي من كتب العلم خاصة ما يُحمل على أربعمائة جمل أو أكثر » [2] ، ويقول أبو الحسن البيهقي تعليقاً على قول الصاحب هذا : « بيت الكتب الذي بالري دليل على ذلك ، بعدما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين ، فاني طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك الكتب عشر مجلدات » [3] .

---

(١) وفيات الاعيان : ٢/٣٥٥ .
(٢) معجم الادباء : ٦/٢٥٩ ، وبغية الوعاة : ١٩٧ ، وشذرات الذهب : ٣/١١٥ ، ووفيات الاعيان : ١/٢٠٨ ، ومعاهد التنصيص : ٢/١٥٤ .
(٣) معجم الادباء : ٦/٢٥٩ .

وفي وصف هذه المكتبة يقول ابن الأثير : « جمع من الكتب ما لم يجمعه غيره ، حتى انه كان يحتاج في نقلها الى اربعمائة جمل »[1] ، وجاء في رواية الداوودي : انها كانت حمل سبعمائة بعير[2] ، وفي رواية السيوطي : ان كتب اللغة وحدها كانت حمل ستين جملاً[3] .

أمّا عدد كتبها فقد ورد ذكره في خلال حديث للصاحب عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، حيث قال : « لقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ، ما منها ما هو سميري غيره ، ولا راقني منها سواه »[4] .

وأمّا نوع كتبها فقد كانت تضم نفائس المؤلّفات ونوادر المصنفات ، وكان الصاحب حريصاً جداً على تطعيمها بكل ما غلا ثمنه وعظم شأنه وندرت نسخته ، وحسبك دليلاً على ذلك ما رواه ياقوت بشان كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي : « بلغني ان الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده ، فلمّا تأمّله قال : هـــذه بضاعتنا ردّت الينا ، ظننتُ ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا »[5] .

وهكذا نجد هذه المكتبة الثريّة بمصادرها ونفائسها ، الغنيّة بنوادرها وكنوزها ، الزاخرة باصول الأدب والعلم والمعرفة ـ منهلاً سائغاً كرع منه

---

(١) الكامل : ١٦٩/٧ ، ومثله فى تاريخ ابن خلدون : ٤٦٦/٤ ، والمنتظم : ١٨٠/٧ .
(٢) عمدة الطالب : ١٩٥ ، ومثله فى هدية الاحباب : ١٧٠ .
(٣) المزهر : ٥٩/١ .
(٤) معجم الادباء : ٩٧/١٣ .
(٥) نفس المصدر : ٢١٤/٤ـ٢١٥ .

الصاحب حتى ارتوى ، وغرف من نميره حتى اكتفى ، فلا غرو اذا ما عددناها في قائمة منابع ثقافته ومصادر معرفته .

ومنها :

ارتياده لمجالس العلم التي كانت تعقد في تلك العصور ، واستماعه لما كان يدور فيها من مناقشات ومطارحات ومساجلات في شتى فروع الثقافة العامة ، فلقد وُفّق الصاحب الى حضور مثل هذه المجالس منذ أوائل شبابه حتى وفاته ، فكان مجلس استاذه ابن العميد غاصاً بأعلام الأدب وأقطاب الشعر في عصره ، ثم كان مجلس الأمير البويهي كذلك ، فاذا بالصاحب متنقل بين هذه المجالس كما تتنقل الفراشة الظامئة بين الورود المفعمة بالري والعبير .

وكان مجلسه الخاص به أيام وزارته « مجمعاً لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر ، ويكاد يدخل في حد الاعجاز »[1] لجمع « نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر » - على حد تعبير الثعالبي - ، فأصبح هذا المجلس مدرسة تحفل بكل ما لذّ وطاب من علم وأدب ، وشعر ونثر ، وملح ونكت وطرائف وظرائف ، ولهذا صحّ أن يعد من جملة مصادر الصاحب في معارفه ومنابعه في ثقافته .

وحسبك أن تعرف من روّاده : ابن فارس النحوي ، وأبا حيان التوحيدي ، وأبا بكر الخوارزمي ، وعلي بن عبدالعزيز الجرجاني ، والحسن ابن محمد القمي ، ومحمد بن علي الصدوق القمي ، مضافاً الى جمهور الشعراء المحدقين به ، فكان له من كل ذلك منبع ثقافي طافح يغمره بالمعرفة ويزيده

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٦٩ .

ـ على كر السنين ـ فهماً ودراية وقوة في العلم ، وتقدماً ونضجاً واندياجاً في التفكير .

وهكذا وضع الصاحب يديه على أعظم المصادر والمنابع العلمية في ذلك العهد فكوّن منها قابليته الكبيرة ، وثقافته الواسعة ـ التي ستعرفها في الفصل القابل إن شاء الله ـ .

معارفه

لم يكن الصاحب مقتصراً في دراسته على نوع واحد من أنواع الأدب وفروعه ، بل علَّ ونهل من سائر ألوان الثقافة وفنونها المعروفة في ذلك العصر ، فبرع في بعضها ولم يبرع في البعض الآخر .

وقد سجَّل المؤرخون مشاركته في المعارف الأدبية في سائر كتبهم ومصنفاتهم ، بل جعلوه (واحدزمانه) و(فريد عصره) في كل ذلك . يقول ياقوت: « الصاحب ـ مع شهرته بالعلوم ، وأخذه من كل فنٍ منها بالنصيب الوافر ؛ والحظ الزائد الظاهر ، وما اوتيه من الفصاحة ، ووفق لحسن السياسة والرجاحة ـ مستغنٍ عن الوصف ، مكتفٍ عن الإخبار عنه والرصف »[1] .

ويقول ابن خلدون : « كان أوحد زمانه علماً وفضلاً ، ورياسة ورأيا ، وكرماً وعرفاً بأنواع العلوم »[2] . وبمثل ذلك عرَّفه سائر من ذكره من مصنفي كتب الأدب والتأريخ[3] .

ونسجّل ـ فيما يلي ـ قائمة بفروع الثقافة التي كان يجيدها الصاحب ، لنعرف مقدار براعته وتمكنه من كل فرع من تلك الفروع :

---

(١) معجم الادباء : ٦/١٧١ .

(٢) تاريخ العبر : ٤/٤٦٦ .

(٣) كيتيمة الدهر : ٣/١٦٩ـ١٧٠ ، والنجوم الزاهرة : ٤/١٧٠ ، وانباه الرواة : ١/٢٠٢ ، والمنتظم : ٧/١٨٠ ، والكامل : ٧/١٦٩ ، وتاريخ ابى الفداء : ٢/١٣٠ ، وابى حيان التوحيدى فى معجم الادباء : ١٥/٤٤ ، والبداية والنهاية : ١١/٣١٤ ، وشذرات الذهب : ٣/١١٤ ، والفهرست : ١٩٤ ، وأمل الآمل : ٤٢ ، ورجال ابى على : ٥٦ .

لم يسجل التاريخ عن ابن عباد بروزاً في علم تفسير القرآن وما يتبعه من بحوث في الغريب والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وما شا كل ذلك إلاّ مرة واحدة ؛ حيث قيل له : هلاّ صنفت تفسيراً ؟ فقال : « وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً ؟ »[1] .

وسواءاً قيل ذلك للصاحب تزلّفاً ونفاقاً أو تقديراً واعترافاً بكفاءته ، فانه ليدلّ على شيوع معرفة الصاحب بهذا الفن بين أصحابه والملتفين حوله ؛ معرفةً تؤهله للكتابة فيه والبحث في أبوابه ومطالبه .

وحفلت كتب الصاحب ومؤلفاته الكلامية ببعض آرائه في شؤون التفسير واصوله ؛ وباستشهاده بكثير من الآيات القرآنية التي يُعدّ بعضها من المتشابه ، وبعضها مما يحتاج الى الحمل والتأويل ، فكان الصاحب مستحضراً لمعانيها ؛ فاهماً لمداليلها ؛ مطلعاً على الروايات المختلفة والأقوال المتعددة فيها ، بالشكل الذي يلقي بعض الضوء على معرفة مقدار براعته في هذا العلم ، ومقدار عمقه فيه وفي البحوث المرتبطة به .

وادوّن ـ فيما يلي ـ نتفاً من تفسيره وشرحه لبعض الآيات للاطلاع على مقدار كفاءته في هذا الموضوع :

١ ـ « إعلم انّا نصف القرآن بالاحكام والمتشابه على معنى نوضحه لتطلّع على الغرض منه فنقول :

من وجه إن القرآن كلّه محكم ، ونريد بذلك إحكامه وانتظامه ، وسداده

(١) الحضارة الاسلامية : ٢٧٦/١ ؛ نقلا عن المعتزلة لابن المرتضى : ٦٣ ، والمفسرين للسيوطى : ٢٤ ، وعلى بن عيسى هو المعروف بالرمانى المولود عام ٢٩٦ هـ والمتوفى عام ٣٨٤ هـ ، وكان من شيوخ المعتزلة فى عصره ، ومن رجال التفسير والكلام واللغة المشهورين .

واطراده ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ الر . كتاب احكمت آياته ﴾ ، ونصفه من وجه أنه متشابه كله ، ونريد ان بعضه يشبه بعضاً في الاعجاز والبيان ، وإقامة الدلالة والبرهان ، والبعد عن الكذب والبهتان ، والارتفاع عن أن يعارض [٨] اهل البلاغة والبيان ، وهذا كقوله : ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني ﴾ .

ونصفه بأن بعضه محكم وبعضه متشابه ، فنريد بالبعض المحكم ما لفظه مطابق لمعناه ، ولا زيادة في فحواه ، ولا نقصان في اسمه عن مسمّاه ؛ كقوله : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

والمتشابه ما أشبه لفظه لمعانٍ مختلفة ؛ فيحتاج الى تحصيلها بالأدلة ؛ كقوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم .. ﴾ الى آخر الآية ، فانّ هذه اللام في اللسان العربي محتمل أن تكون لام العلة – على ما تأولها القائلون بالجبر – ، ونحتمل أن تكون لام العاقبة فتصح على مذهب أهل العدل ، فحقها أن ترد الى مثلها من المحكم ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ وتبيّن انها لام العاقبة . وقوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ ؛ وإنما التقطوه ليكون لهم ولداً وقرة عين . لكنه أخبر الشاعر :

ولدوا للموت ما تلد الوالده

فللموت تغذو الوالدات سخالها . . البيت

وكما قال :

وام سماك فلا تجزعي فللموت ما تلد الوالده

وقد ردّ الله في تفسير الآية على وجوب الرد الى المحكم بقوله : ﴿ منه آيات محكمات هنّ ام الكتاب واخر متشابهات ﴾ ، وإنما جعلها امّاً ليردّ اليها ، كما تسمّى مكة ام القرى لمّا كان مثابة الناس اليها . وكما سمت العرب أعظم

الدواهي التي تلطم لها : ام طبق وام حبوكرى . . . ولولا هذا المعنى لكان لا وجه أن يقال : انها ام الكتاب . . الخ »[1] .

٢ ـ « زعمت المشبهة ان لله يَدَيْن على معنى الجارحة ، وأثبتت له وجهاً على معنى العضو . وقالت الموحدة : هذا فاسد ، لأن الله تعالى خالق الجواهر ، ومنزَّه عن مشابهة الخلائق ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ خلقت بيدي ﴾ أي خلقته ؛ وذكر اليد مجاز ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ ، ومعلوم ان المطر لا يد له ، وكذلك اليمين ؛ ألا ترى الى قول الشاعر في وصف الشمس :

ألقت ذكاء يمينها في كافرِ

وكذلك القبض ؛ ألا ترى ان العرب تقول : فلان قبض فلاناً ، وهو لا يريد بذلك انه قبض عليه بجارحته بل بقوته ، وأما الوجه فان العرب تذكره وتريد الشيء نفسه ؛ كقولهم : هذا وجه الحق ووجه الرأي ، وهذا معنى قوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ معناها إلا هو .

فإن سألت المشبهة فقالت : أين هو ؟. قلنا : (أين) سؤال عن مكان ، وكان الله تعالى ولا مكان ، فلما خلق المكان ولم يتغير عمّا كان علم انه لا مكان له .

فان قال : أليس على العرش استوى ، قيل له : معناه استولى ؛ كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق ⠀⠀⠀⠀ من غير سيف ودم مهراقِ

فإن قيل : هو مستولٍ على كل شيء فكيف خصّ العرش . قيل له : كما هو رب كل شيء وقال : ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ »[2] .

٣ ـ « وزعمت المشبهة : ان الله تعالى يُدرَك بالأبصار ، وقالت الموحدة :

---

(١) الهداية والضلالة : ٤٨ـ٥١ .

(٢) الابانة ـ نفائس المخطوطات : ١/١١ـ١٢ .

ان الله لا يدرك بالأبصار ، إذ لو كان مرئياً لكنا نراه ونحن أصحاب البصر..
وقد قال تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ... فإن قيل : فالإدراك : الاحاطة .
قيل : هذا فاسد في اللسان ، لأن العرب لا تفرق بين قول الرجل : أدركته بصري ورأيته ببصري ، ولو كان الادراك الاحاطة لقيل في الحائط انه مدرك لأنه بالدار محيط ، فإن احتجوا بقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ﴾ قيل : ليس لكم في ظاهرها حجة ، لأن الوجه لا يُرى به .

وبعد : فقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ عامٌّ في الدنيا والآخرة ، ولو كانت هذه الآية دالّة على الرؤية لتناقض القرآن وحاشاه من ذلك ، وتأويلها ما فسّرها علي (ع) وابن عباس رضي الله عنه وغيره من المفسّرين ان معناها ناظرة الى ثواب ربّها ، كما يقول الناظر : إنما أنظر الى الله واليك ، وكما قال الشاعر :

اني اليك لما وعدتَ لناظرٌ   نظر الفقير الى الغني الموسرِ

وقد دلنا اليه قوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ لن تراني ولكن انظر الى الجبل ﴾ ، وإنما سأله موسى عليه السلام ذلك عن قومه ، ألا تسمعه تعالى يقول : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نومن لك حتى نرى الله جهرة ـ الى قوله ـ وأنتم تنظرون ﴾ قال عز وجل : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ـ الى قوله ـ بما فعل السفهاء منّا ﴾ يعني سؤالهم الرؤية » (1) .

٤ ـ « القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله ، تكلَّم لا بآلة كما يتكلم المخلوقون ، بل بكلام أحدثه وأنشأه وخلقه ـ ومعنى خلقه : قدّره ـ ، إذ لو كان الكلام من القرآن وغيره قديماً معه لدلّ على القول بالتثنية والخروج عن جملة التوحيد » (2) .

---

(1) نفس المصدر : ١/١٣ـ١٥ .
(2) التذكرة ـ نفائس المخطوطات : ٢/٨٩ .

الحديث :

يقول ابن كثير في ترجمته للصاحب :

« سمع الحديث من المشايخ الجياد العوالي الاسناد ، وعُقد له في وقتٍ مجلسٌ للاملاء فاحتفل الناس لحضوره ، وحضره وجوه الامراء ، فلمّا خرج اليه لبس زيّ الفقهاء وأشهد على نفسه بالتوبة والانابة مما يعانيه من امور السلطان ، وذكر للناس انه كان يأكل من حين نشأ الى يومه هذا من أموال أبيه وجده ممّا ورثه منهم ، ولكن كان يخالط السلطان وهو تائب مما يمارسونه ، واتخذ بناءاً في داره سماه بيت التوبة ، ووضع العلماء خطوطهم بصحة توبته ، وحين حدّث استملى عليه جماعة لكثرة مجلسه ، فكان في جملة من يكتب عنه ذلك اليوم القاضي عبدالجبار الهمداني وأضرابه من رؤوس الفضلاء وسادات الفقهاء والمحدثين »[1] .

ويحدّث السمعاني فيقول :

« سمع الأحاديث من الأصبهانيين والبغداديين والرازيين ، وحدّث ، وكان يحث على طلب الحديث وكتابته ، وقد روى الحديث ايضاً وسمعوا منه »[2] .

والمفهوم من هذين النصين السالفين ومما شابههما من النصوص التاريخية الواردة بهذا الشأن ان للصاحب يداً كبيرة في الحديث وعلومه واصوله وفقهه ، بالشكل الذي جذب « رؤوس الفضلاء وسادات الفقهاء والمحدثين » ، ولكن المؤسف

---

(١) البداية والنهاية : ١١/٣١٥ ، وقريب منه فى المنتظم : ٧/١٨٠ ، ومعجم الادباء : ٦/٢٥٢ ، ومعاهد التنصيص : ٢/١٥٧ ، ومجمع البحرين (مادة صحب) .

(٢) الانساب : ٣٦٤ .

عدم العثور على ما يؤيد ذلك ويؤكده صحةً وقوة ووثوقاً ، فلم تحتفظ كتبه ولا كتب غيره ممن ترجم له وتحدّث عنه إلا على عدة أحاديث لا تتجاوز العشرة في الاحصاء ، وليس فيها ما يدل على عمق الغور وسعة الاطلاع الذي يجذب الفضلاء والفقهاء والعلماء ، بل ليس فيها ما يزيد على ما يستطيع أن يرويه أو يسجله كل من أُوتي شيئاً من الذكاء والفهم الذي يؤهله لحضور مجالس المحدثين ومحاضرات الأعلام الرواة المتتبعين ، ولعلّ فيما فُقِد من مؤلفات الصاحب ما يغيّر الرأي في مقدار براعة ابن عباد في هذا الفن ومقدار عمقه فيه .

واسجل في أدناه أمثلة من مرويّات الصاحب وأحاديثه الواردة في كتبه لتكون انموذجاً لسائر رواياته المسجلة الاخرى :

١ ـ « روى عبيدالله بن موسى الروياني ، عن عبدالعظيم ، عن ابراهيم ابن أبي محمود قال : قلت للرضا عليه السلام . ما تقول في الحديث الذي يروي الناس بأن الله يَنزل الى السماء الدنيا ؟ ، فقال : لعن الله المحرّفين الكلم عن مواضعه ! والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك ، إنما قال : ان الله عز وجل يُنزل ملَكاً الى السماء الدنيا ليلة الجمعة فينادي هل من سائل فاعطيه » (١) .

٢ ـ « روى علي بن الحسين السعدابادي ، عن أحمد بن أبي عبدالله ، عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني ، عن علي بن محمد ، عن أبيه محمد بن علي ، عن أبيه علي بن موسى الرضا عليهم السلام قال : خرج أبو حنيفة من عند الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام فاستقبله موسى عليه السلام ، فقال : يا غلام ممّن المعصية ؟ فقال : لا تخلو من ثلاثة :

---

(١) أحوال عبدالعظيم ـ نفائس المخطوطات : ٤/٢١ .

إمّا أن تكون من الله عز وجل ، وليس منه ، فلا ينبغي للكريم أن يعذّب عبده بما لم يكتسبه .

وإمّا أن تكون من الله ومن العبد ، فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف .

وإمّا أن تكون من العبد - وهي منه - ، فان عاقبه فبذنبه ، وإن عفا عنه فبكرمه وجوده »[1] .

٣ - « الحديث المروي : { إنكم ترون ربكم كما ترون القمر } خبر واحد ، وقد اجمع العلماء على أنه لا يوجب العلم ، هذا وفي إسناده ضعف ، ولو صحّ لكان تأويله سايغاً ، ومعنى - ترون ربكم - أي تعلمون الله في الدنيا استدلالاً ، وهو يُعْلَم في الآخرة ضرورة ، كما نحن مضطرون الى العلم بكون القمر ، والرؤية بمعنى العلم كثير في القرآن واللغة »[2] .

---

(١) نفس المصدر : ٢٢ .

(٢) الابانة - نفائس المخطوطات : ١/١٥ .

الـكلام

يقول أبو حيان التوحيدي :

« كان الصاحب كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدب شيئاً ، وأخذ من كل فن طرفاً ، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجّنة بطرائقهم ومناظراتهم[1] » .

ومن حسن الحظ أن تحتفظ لنا الأيام ببعض مؤلفاته الكلامية التي أودع فيها كثيراً من آرائه ومعتقداته ومناقشاته لمخالفيه في الرأي ، ويظهر للمتأمل في مجموعها أنّ الرجل كان على جانب كبير من الاطلاع على الكتب الكلامية المتعددة ، وأقوال المذاهب المختلفة ، بل آراء الفلاسفة الأقدمين ، وعقائد الديانات السابقة ، والمبادئ الدينية الغابرة ، وقد حاول في رسائله مناقشتها وردها ودحض حججها بأسلوبه الأدبي الجميل ، وقلمه البليغ المعروف .

ناقش الصاحب الدهريّة والمعطّلة ، والمجوس الثنويّة ، والنصارى والمتفلسفة ، والمشبّهة والبراهمة واليهود ، والمجبّرة القدرية ، والمرجّئة والخوارج ، والحشويّة والعثمانيّة . وكتب في اصول الاسلام الخمسة بتفصيل وافٍ بالموضوع ، وتكلم في الهداية والضلالة والطرق الموصلة الى كل واحد منهما ، ولم يكتف بالكتابة والتأليف في هذه المطالب حتى نظمها شعراً ورجزاً يقرر فيه رأيه المختار مشفوعاً بالاشارة الى ما يدعمه من دليل صحيح وبرهان سليم من المناقشة في نظره .

واسجل ـ فيما يلي ـ بعض آرائه ومناقشاته الكلامية بشيء من التطويل والتفصيل ، لارتباطها بعدة أديان ومذاهب ومعتقدات ، ولتعرُّض البحث فيها

(١) معجم الادباء : ٦/١٧٤ـ١٧٥ ، والامتاع والمؤانسة : ١/٥٤ .

الى بعض النقاط التي تعدّ من صميم علم الفلسفة - وإن دخلت في ضمن مباحث علم الكلام - مما يدل على تمرسه بها وتمكنه منها :

١ - « زعمت الدهريّة : ان الأجسام التي نشاهدها قديمة ، وقالت الموحدة : هي محدثة ، لأن الإمارات التي فيها من التحول والتنقل والتبدل والاجتماع والافتراق إمارات الحدوث لا القدم ، ألا ترى ان اجتماعها يحدث فيبطل افتراقها ، فاذا كانت لا تنفك من الحوادث فهي محدثة لأنها لم تتقدمها في الوجود ، وقد علمنا أنّ النطفة لو وضعت بين يدي العالم لما قدروا أن يخلقوا منها ذبابة كما قال الله تعالى . . ، ووجدناها خُلِق منها بشر سويّ ، فعلمنا انه حادث أحدثه قادر لا يشبهه القادرون »[1] .

٢ - « زعمت المعطّلة أن لا صانع للعالم ، وقالت الموحدة : له صانع وهو الله سبحانه وتعالى ، واستدلت : بأن الفعل لا بد له من فاعل ، والكتاب لا بد له من كاتب ، ألا ترى أن مدّعيا لو ادعى في دارٍ انها قديمة لا باني لها لكان عند العقلاء مجهلاً ، فكيف تسوغ هذه الدعوى في السماوات والأرضين ، مع حسن تركيبها ، وانتظام تصويرها »[2] .

٣ - « زعمت المشبّهة : ان الله يصعد وينزل ، ويجيء ويذهب ، ويبدو ويستتر ، ويظهر ويحتجب ، وقالت الموحدة : انه لا يحول ولا يزول ، لأن ما يحول ويزول ويحتجب وينتقل لا يكون أزليًا ولا قديمًا ، فهذه علامات الحدوث »[3] .

---

(١) الابانة - نفائس المخطوطات : ١/٩ .
(٢) نفس المصدر : ١/٩-١٠ .
(٣) نفس المصدر : ١/١٣ .

٤ ـ « زعمت القدرية : ان الله تعالى خالق الكفر وفاعله ، ومنشيء الزنا ومخترعه ، ومتولي القيادة وموجدها ، ومبتدع السرقة ومحدثها ، وكل قبائح العباد من صنعته ، وكل تفاوت فمن عنده ، وكل فساد فمن تقديره ، وكل خطأ فمن تدبيره .

فإن قالوا على سبب التلبيس : ان العبد يكتسب ذلك ، فاذا طولبوا بمعنى الكسب لم يأتوا بشيء معقول .

وقالت العدلية : معاذ الله أن يكون فعله إلا حكمة وحقاً ، وصواباً وعدلاً ، فالزنا فعل الزاني انفرد بفعله ، فكل قبيح منسوب الى المذموم به ، وإنما تولى المذمة العاصي ، إذ باع الآخرة بالدنيا ، ولم يعلم ان ما عند الله خير وأبقى ، ولو كان قد خلق أعمال العباد لما جاز أن يأمر بها وينهاهم عنها ، كما لم يجز أن يأمرهم بتطويل جوارحهم وتقصيرها ، إذ خلقها على ما خلقها ، ولو خالق الكفر لما جاز أن يعيب ما خلق ، ولو كان فاعل الكفر لما جاز أن يذم ويعيب ما خلق ويذم ما فعل ، ولو كان مخترع الفساد لما جاز أن يعاقب على ما اخترع ، ولا تنفك القبائح من أن تكون من الله تعالى فلا حجة على العبد ، أو من الله ومن العبد فمن الظلم أن يفرده بعقاب ما شارك في فعله ، أو من العبد فهو يستحق العقاب »[(١)] .

٥ ـ « زعمت العثمانية وطوائف الناصبية ان أمير المؤمنين عليه السلام مفضول في أصحاب رسول الله (ص) غير فاضل ، واستدلت بأن أبا بكر وعمر وُلّيا عليه ، وقالت الشيعة العدلية : فقد ولّى النبي (ص) عليهما عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل فليقولوا انه خير منهما ، وقالت الشيعة : علي

(١) الابانة ـ نفائس المخطوطات : ١/١٨ـ١٩ .

عليه السلام أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلذلك آخى بينه وبينه حين آخى بين أبي بكر وعمر ، فلم يكن ليختار الأفضل لمن آخاه عمر ، ومَن دونه لمن آخاه نفسه »[1] .

٦ ـ « هو تعالى واحد لا قديم معه ولا إلـه سواه ، إذ لو جاز إثبات اثنين لما امتنع من إثبات ثالث ورابع الى ما لا نهاية له ، ولجاز أن يتوهم كيف يختلفان ويتغالبان ، وفي تجويز الغلبة لأحدهما إثبات العجز ، والإلـه لا يكون عاجزاً »[2] .

٧ ـ « من ارتكب الكبائر من أهل القبلة فانّا لا نطلق عليه الكفر ـ كما زعمت الخوارج ـ ، إذ لو كان كافراً لما صُلّي عليه ولا ورثه المسلمون ، ولا نقول إنه مؤمن لأن صفة الايمان صفة تشريف وتعظيم ، ومرتكب الكبائر مهان ذليل ، ونقول : إنه فاسق ، وذلك (منزلة بين المنزلتين) ، فمحال أن يكون الرجل في حالةٍ مؤمناً وفاسقاً ، ولياً لله عدوّاً »[3] .

٨ ـ « نقول للمجبّرة : كيف تستيقن نفوسكم أن الله الذي هو أعلم العلماء واحكم الحكماء وأرحم الراحمين ، الذي لا تلحقه المضارّ ولا تناله المنافع ، المطبوع بالخير قبل المسألة ، والدافع الشر قبل الطلبة ـ يأمر بالايمان ولم يُرِدْه ، وينهى عن الكفر ويريده ، ويقضي بالباطل ويقدره ، وكيف يجوز أن يصرفهم عن الايمان ثم يقول : ﴿ أنّى يصرفون ﴾ ، ويخلق فيهم الإفك ثم يقول : ﴿ أنّى يؤفكون ﴾ ، وأنشأ فيهم الكفر ثم يقول : ﴿ لم تكفرون ﴾ ،

---

(١) الابانة ـ نفائس المخطوطات : ١/٢٥ .
(٢) التذكرة ـ نفائس المخطوطات : ٢/٨٨ .
(٣) نفس المصدر : ٢/٩٤ .

وفعل لبس الحق بالباطل ثم قال : ﴿ لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ ، وصدّهم عن السبيل ثم قال : ﴿ لم تصدّون عن سبيل الله ﴾ ، وحال بينهم وبين الايمان ثم قال : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ﴾ ، وذهب بهم عن الرشد ثم قال : ﴿ فأين تذهبون ﴾ ، وأضلّهم حتى أعرضوا ثم قال : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ .

إنّ هذا لو وصف في أعتى الفراعنة وأظلم الجبابرة لاستقبح ، فكيف في الحكيم الرؤوف ـ تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً ـ .

ثم ان الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ لمّا بُعِثوا اتبعوا الأدلة التي صحبتهم ، والمعجزات التي صدّقتهم ، فان التفرقة بين الصادق والكاذب ؛ والمعجز والحيلة ؛ والدلالة والشبهة ؛ إنما تستدرك بالعقل ، وتعرف بالتمييز والفحص . فلو جاز أن يأتي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بكثير مما يمتنع في العقول ، ويبطل عند ذوي الألباب ولا يسوغ ؛ لكانوا قد كذبوا أنفسهم ؛ إذ بالعقل تصديقهم وقد سقطت حجته والتبست محجته ، ولا جائز أن يأتي الأنبياء بما ينافيه ويضادّه ، ويمانه ويحادّه .

فليت شعري كيف يقبل الجبري بنبوة نبي بدليل عقل ، وقد جاء ـ على زعمه ـ بما تدفعه العقول وترفضه ، وتحيله وتنقضه ، وأبين من هذا : ان القديم ـ تعالى ـ إنما عرفناه بدليل العقل ، واستدللنا عليه بمتقن الصنع »[1] .

٩ ـ روى أبو حيّان التوحيدي فقال : « كان ابن عباد قال لكاتبه مرة . . . في شيء جرى : (نعم . العالم عتيق ولكن ليس بقديم) أي لو كان قديمًا لكان لا أوّل له ، ولمّا كان عتيقاً كان له أول ، ومن أجل هذا

---

(١) الهداية والضلالة : ٣٩ـ٤١ .

الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنه قديم ، واستحسنوا هذا الاطلاق ، وقد سألت العلماء البصراء عن هذا الاطلاق فقالوا : ما وجدنا هذا في كتاب الله - عز وجل - ولا كلام نبيّه . . . وسألت أبا سعيد السيرافي الإمام : هل تعرف العرب أن معنى القديم ما لا أوّل له ؟ فقال : هذا ما صحّ عندنا عنهم ، ولا سبق الى وهمنا هذا منهم ، إلا انهم يقولون : هذا شيء قديم وبنيان قديم ، ويسرّحون وهمهم في زمان مجهول المبدأ »[1] .

ولم يكن هذا الرأي من ابن عباد في تفسير لفظتي « قديم » و « عتيق » بدعة في عالم الآراء ، ولا جديداً عند المتكلمين ، كما لم يكن تعليق أبي حيّان على رأي الصاحب منبعثاً عن صفاءٍ في النية ونزاهة في الهدف وطهارةٍ في القصد ، بل كان يهدف من هذا التعليق الى طعن ابن عباد والتشهير به - كما اعتاد عليه في كل مناسبة - .

وقد أشار السيد الشريف المرتضى علي بن الحسين الى بعض الآراء الكلامية بهذا الشأن فقال :

« يوصف تعالى بأنه قديم ، وقد اختلف الناس في هذه اللفظة ، فقال أبو علي ومن وافقه : إن فائدتها الموجود فيما لم يزل ، فعلى هذا لا يستحق هذه اللفظة أن يسمّى بها غير الله تعالى ، وجنح الى أن قولهم : (نبأ قديم والعرجون القديم) مجاز ، وقال آخرون : اللفظة تقتضي المبالغة في وصف القديم ، وكان أبوهاشم يقوّي هذا وينصره . والصحيح في هذا : انه اختصت بما لا أوّل لوجوده .

ولا يوصف تعالى بأنه عتيق ، لأن أبا علي اعتلّ في نفي ذلك عنه بأن

(١) الامتاع والمؤانسة : ١/٢٤-٢٥ .

هذه اللفظة إنما تستعمل فيما حدثت من جنسه أمثاله ، لأنهم يقولون : تمر عتيق اذا طرأ عليه الحديث ، ولا يقال في السماء عتيقة لما لم يحدث من جنسها مثلها ، وقال أبوهاشم : هي عبارة عمّا أثّر في حاله الزمان ، وإنما قالوا تمر عتيق لما أثّر فيه الزمان ، لا بحدوث ما هو من جنسه ، وقولهم : فرس عتيق يريدون كرم أصله وجودته ، كما قالوا : البيت العتيق على سبيل المدح والتعظيم »[1] .

ومما ورد في شعر الصاحب من المعاني الكلامية قوله من قصيدة :

ومن كان بالتشبيه والجبر دائناً ... فاني في التوحيد والعدل أوحَدُ
أنزّه ربّ الخلق عن حدّ خلقه ... وقد زاغ راوٍ في الصفات ومسندُ
فهذا يقول : الله يهوي ويصعدُ ... وهذا لديه الله ـ مذ كان ـ أمردُ
تبارك رب المرد والشيب إنهم ... لأكفر من فرعون فيه وأعندُ
وآخر قال : العرش يفضل قدره ... واوهم ان الله جسم مجسّدُ
وآخر قال : الله جسم مجسّم ... ولم يدرِ ان الجسم شيء محددُ
وأنّ الذي قد حُدّ ـ لا بد ـ محدث ... إذا ميز الأمر اللبيب المؤيّدُ
وقلنا : بأن الله لا شيء مثله ... هو الواحد الفرد العليُّ الممجّدُ
يقولون : عدل أن يكلف مقعداً ... قياماً وعدوا مسرعاً وهو مقعدُ
وقلنا : بأن الله عــدل وأنه ... يكلف دون الطوق ما هو أحمدُ
وانّ ذنوب الناس ـ أجمع ـ كسبهم ... بإحداثها من دونه قد تفرّدوا

ويقول في قصيدة اخرى :

قالت : فكيف عرفت الحق هات به ... فقلت : بالفكر في الأقوال والعللِ
قالت : فهل هذه الأجسام محدثة ... فقلت : جداً وإن رمت الدليل سلي

(١) فنون من علم الكلام ـ نفائس المخطوطات : ٥/٧٣ـ٧٤ .

قالت : اريد دليلاً فيـــه مختصراً فقلت : أنْ ليس فيها غير منتقلِ
قالت : فهل صانع تدعو اليه أجبْ فقلت : لابد قولاً غير ذي مَيَلِ
قالت : فهل من دليل فيه تذكرة فقلت : بيت بلا بانٍ من الخطل
قالت : أينْ لي أجسم ذاك أم عرض فقلت : بل خالق الجنسين فانتقلي
قالت : وما ضرّ لو أثبتـه جسداً فقلت : لا توجد الأجسام في الأزل

ويقول في اخرى :

إصغ الى وصفي حدوثَ العالَمِ بحجّة كحدّ سيف صارمِ
كم أعجزت من فيلسوف عالمِ فعاد للحـــق بأنف راغمِ
جميـــع ما تشهده مؤلَّفُ مركّب منــوّع مصنّفُ
وفيه للصنع دليـــل يعرفُ لأنــــه مدبّر مصرّفُ
عزّ فما تدركه الأبصارُ كلاّ ولا تبلغه الأفكارُ
ولا له كيف ولا استقرارُ ولا له أين ولا أقطارُ
لو كان محسوساً بعين ناظرِ لكان ملموساً بكف زائرِ
وكان ذا كلٍ وبعض ظاهرِ وكان ذا حدٍ من المقادرِ
أو صحّ أن ينزل أو أن يصعدا لصحّ أن ينام أو أن يسهدا
وصحّ أن يجلس أو أن يقعدا وصح أن يولد أو أن يلدا
ولو أراد ربنا أن يُشتَما وفعل الشاتم ما قـــد حتما
لكان فيه طائعاً قد علما وكان من عدّبه قد ظلما
أو كاف الأمر بلا استطاعه ما ذَمّ من عدوه امتناعه
ولا أقام للعقاب الســـاعه افٍ لهذا القول من شناعه

اللغة :

كانت ثروة الصاحب من علوم اللغة كبيرة جداً وضخمة الى حدٍ بعيد ، وكان تمكنه منها وتبحره فيها بارز الأثر قويَّ الظهور في سائر ما احتفظ به الزمن من مراسلات ابن عباد ومكاتباته ؛ ومؤلفاته العديدة ؛ وشعره الكثير .

وكانت معرفة الصاحب باللغة وإتقانه لبحوثها وتمرسه بعلومها خبراً شائعاً ذائعاً لدى كل معاصريه الأعلام وسائر المترجمين له من رواة التاريخ ومؤرخي العلوم ؛ حتى عُدَّ في قائمة أعلام اللغة في أكثر الكتب اللغوية ومصادرها المعروفة ، وحتى قال العلامة الشهير ابن فارس في مقدمة كتابه : « الصاحبي في فقه اللغة العربية » في بيان سبب تسمية الكتاب بهذا الاسم ما نصه :

« لأني لما ألَّفتُه أودعتُه خزانة الصاحب الجليل . . . ، إذ كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وأدب مرضياً مقبولا ، وما يرذله أو ينفيه منفيّاً مرذولا ، ولأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ومُفاد منه »[1] .

ولا حاجة الى التطويل في نقل أقوال المؤرخين وآرائهم في معرفة الصاحب باللغة ، فقد كفانا كتابه القيّم « المحيط » مؤنة ذلك ، حيث نجد الصاحب فيه عالمًا لغوياً كبيراً لا يشق له غبار ، واذا كانت الأيام لم تحتفظ بمؤلفات الصاحب اللغوية الاخرى ككتاب « الجوهرة » وكتاب « الحجر » وأمثالها فان احتفاظها بالمحيط وحده كافٍ في الدلالة على مبلغ تمكن الصاحب من اللغة ووقوفه على سائر بحوثها وفروعها وفقهها ومفرداتها الكثيرة الوافرة .

---

(١) الصاحبي : ٢ .

واليك بعض مقدمة المحيط مثالاً على اسلوب الصاحب في بحثه اللغوي، ومنهجه في التأليف والتحقيق فيه :

« كلام العرب مبنيٌّ على أربعة أنحاء : الثلاثي والثنائي والرباعي والخماسي، لا يُجاوَز ببناء الكلمة والحروف ا[لأ] صلية ذلك إلا أن تلحقها الزوائد ، فقد تبلغ بها حينئذٍ سبعة نحو القَرَعْبَلانَة وهي دويبة ، فأمّا الثنائي فانه يجيء على ضربين ، ربما جاء وأصله ثلاثة نحو دم وفم وشفه ، ويتبين الذاهب منه بالتصريف ، وربما جاء ولا أصل له في الثلاثي نحو الأدوات وأسماء الزجر والحكايات مثل من وعن وصَهْ ومَهْ وطق وقد » .

« والثلاثي نحو قولك من الفعل : ذهب وضرب ، ومن الاسم : حجر وشجر .

والرباعي من الفعل نحو : دحرج وقرطس ، ومن الاسم نحو : عقرب وعبقر .

والخماسي من الأفعال لا يكون إلا بالزيادة ، فأما من الأسماء فنحو : سفرجل وشمردل . ولا يجيء الخماسي إلا وفيه حرف أو حرفان من حروف الذلاقة وهي ستة أحرف ، ولها مخرجان ، فمنها الفاء والباء والميم ؛ وهي من الشفة ، ومنها الراء والنون واللام ؛ وهي من أسلة اللسان ، وكذلك الرباعي إلا أن يكون فيه أحد حرفي الطلاقة وهما العين والقاف ؛ أوكلاهما ؛ أو السين والدال ؛ أو إحداهما ، وهو مع ذلك قليل » .

« واعلم ان من الأبنية الصحيح والمعتل ، فالصحيح : ما سلم أصل بنائه من حروف العلل وهي الواو والياء والألف ، والمعتل : ما شاب حروفَه حرف أو حرفان منها ، فأما اللفيف فما لا يكون فيه من الحروف الصحاح إلا حرف واحد » .

« فإن قال قائل : لِمَ ابتدأ الخليل عند ذكر الأبنية بالثنائي ، وقد قال سيبويه : أقل ما تكون عليه الكلمة حرف واحد ؟.

قيل له : إنما أشار بالكلمة تسامحاً منه الى حروف مفردة موصولة بأطراف الكلم لا يقدر على قطعها منها ، ولا تستقل بذواتها ، نحو : لام لقد وكاف هناك ، فأما الكلمة فلا تستحقها ـ حقيقة ـ إلا ما يمكن الابتداء به والوقف عليه ، وهذا لا يكون في أقل من حرفين »[1].

ومن آرائه المرتبطة باللغة قوله في كيفية وضع اللغات ونشأتها :

« ولولا إرسال الرسل لما عرف الناس لغات يتخاطبون بها ، وليس على ادعاء الاصطلاح فيها دليل ، إذ الاصطلاح على لغة لا يكون إلا بلغة . . . ، والتجربة تكشف ما قلناه »[2].

ومن شواهد حفظه للغريب واستحضاره لمفردات اللغة قوله يوماً للشاعر التميمي :

« كيف تقول الشعر ؟ وإن قلت كيف تجيد ؟ وإن أجدت فكيف تغزر ؟ وإن غزرت فكيف تروم غاية ، وأنت لا تعرف ما الزَّهزيق ، وما الهِبنلَع ، وما العَشْلَط ، وما الجلعلع ، وما القَهْقَب ، وما القَهْبَلِس ، وما الخلَّبوس ، وما الخُزَعبِلة ، وما القُذَعمِلَة ، وما العُمْروط ، وما الجرفاس ، وما اللَّثوس ، وما النَّعْشَل ، وما الطِرْيال ، وما الفرق بين العَرْم والوَدْم ، والحَدْم والحَذْم ، والقضم والخضم ، والنضح والرضح ، والفصم والقصم ، والقصع والفصع ، وماالعبَنْقس ، وما العَلَنْكَس ،

---

(١) المحيط : ١/٢-٣ مخطوط بمكتبة المتحف العراقي .

(٢) الابانة ـ نفائس المخطوطات : ١/١٦ .

وما الوَكال ، والزَّوْمَل ، وما الخَيْشَعور ، واليَسْتَعور ، وما الشُّنْعوف ، وما الخُذْروف ، وما الحَلَزون ، وما القَفَنْدَد ، وما الجمْليل ؛ قال الشاعر :

جاءت بخف وحنين ورحلْ   جاءت تمشّى وهي قدّام الإبلْ
مشيَ الجمليلة بالحِزق النَّقلْ

قال : ورأيت بعض الجهّال يصحّف ويقول : وحنين وزجل »[1] .

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٢٨-٢٣١ .

درس الصاحب النحو على العلاّمة اللغوي ابن فارس ، كما درس بعض المباحث النحوية على أبي سعيد السيرافي ؛ وأبي بكر بن كامل ؛ وأبي بكر بن مقسم ، فلا غرابة اذا ما كانت للصاحب يد في هذا العلم وبراعة فيه ، كما لا غرابة اذا ما عُدَّ من أعلام النحو في الكتب المعدَّة للترجمة لهم ، ككتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ، وكتاب « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطي ، وأمثالهما من المؤلفات المختصة بهذا الموضوع .

ولكنَّ الغريب الملفت للنظر ما يرويه أبوحيان التوحيدي إذ يقول :

« أمّا ابو اسحاق فانه أحبُّ الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المحجَّة الوسطى ، وإنما يُنْقَم عليه قلة نصيبه من النحو ؛ وليس ابن عباد في النحو بذاك »[1] .

وروى أبوحيان ـ تأييداً لرأيه في ضعف الصاحب بالنحو ـ هذه المطارحة :

« قال الصاحب يوماً : فَعْلٌ وأفعال قليل ، وزعم النحويون أنه ماجاء إلاّ زند وأزناد ، وفرخ وأفراخ ، وفرد وأفراد . فقلت له : أنا أحفظ ثلاثين حرفاً كلها فعل وأفعال ، فقال : هات يا مدَّعي ، فسردت الحروف ودللت على مواضعها من الكتب ، ثم قلت : ليس للنحوي أن يلزم مثل هذا الحكم إلا بعد التبحر والسماع الواسع ، وليس للتقليد وجهٌ إذا كانت الرواية شائعة والقياس مطرداً »[2] .

---

(١) الامتاع والمؤانسة : ١/٦٧ .

(٢) معجم الادباء : ١٥/٢٦ـ٢٧ .

ولقد سبق لي القول بأن ما ينفرد بنقله أبو حيان لا يصح التعويل عليه لكونه موضع شك وتهمة ، وأن الباحث المتثبت لا يمكن أن يجعل هذه الروايات مصدراً لرأي أو دليلاً على وجهة نظر ، ولهذا فليس باستطاعتي الانسياق مع هذه الادعاءآت ، وإن لم يكن لديَّ من القرائن ما يكذبها وينفيها .

ولم أعثر في مؤلفات الصاحب وفيما أُثر عنه في كتب التاريخ والأدب على رأيٍ نحوي له إلا مرة واحدة ، حيث يقول عند ذكره لأبي سعيد السيرافي ومجلس درسه :

« وابتدأ فقُرِئ عليه من كتاب المقتضب بابُ ما يجري وما لا يجري ، الى أن ذكر « وسحر » وأنه لا ينصرف اذا كان لسحر بعينه ، لأنه معدول عن الأول ، فقلت : ما علامة العدل فيه ؟ فقال : إنّا قلنا : السَّحرَ ، ثم قلنا : سحر ، فعلمنا ان الثاني معدول عن الأول . قلت : لو كان كذلك لوجب أن تطَّرد العلة في عَتَمَة ، لأنك تقول : العتمة ، ثم تقول : عتمة ، فضجر واحتدَّ ، وصاح واربد »(١) .

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٧٨ .

كان الصاحب ذا يدٍ كبيرة في علم العروض بالدرجة التي تؤهله للتأليف فيه ، وقد اعترف له بذلك سائر مؤرخيه والباحثين عنه حتى خصمه أبو حيان التوحيدي حيث قال : بأنه « حسَنُ القيام بالعروض والقوافي » [1] .

وكان نبوغه في هذا العلم وإتقانه له مبكراً جداً ، فقد استطاع وهو في الحادية والعشرين من سنيّ حياته أن يصطدم بعلاّمة اللغة والأدب أبي سعيد السيرافي ، فيثبت له خطأه في قراءته وتقطيعه لبعض الأبيات الشعرية ، وكان ذلك في عام (٣٤٧ هـ) لما سافر ابن عباد لبغداد ، وحضر مجلس درس السيرافي حيث رأى بعض طلابه يقرأ الجمهرة عليه ، حتى انتهى الى الاستشهاد بهذا البيت فقرأه هكذا :

رسم دار وقفت في طللِهْ كدت اقضّي الغداة من جللِهْ

يقول الصاحب : فقلت « أيها الشيخ هذا لا يجوز والمصراعان على هذا النشيد يخرجان من بحرين ، لأنّ :

رسم دار وقفت في طلله « فاعلاتُنْ مَفاعِلنْ فَعِلُنْ »
كدت اقضّي الغداة من جلله « مُفتعِلُنْ مَفْعُلاتُ مُفتعِلُنْ »

فذاك من الخفيف ، وهذا من المنسرح . فقال : لِمَ لا تقول : الجميع من المنسرح والمصراع الأول مخروم ؟ فقلت : لا يدخل الخرم هذا البحر ، لأنه أوله « مستفعلن مفاعِلُنْ » هذه مزاحفة عنه ، واذا حذفنا متحركاً بقّينا ساكناً ، وليس في كلام العرب ابتداءٌ به ، وإنما هو :

(1) الامتاع والمؤانسة : ١/٥٥ .

كدت أُقضي الغداة من جلله

بتخفيف الضاد ، فأمر بتغييره »[1] .

وكان يتذاكر يوماً مع استاذه أبي الفضل بن العميد شعر البحتري وفضله ، فقال له استاذه : « تعرف للبحتري ما خرج فيه عن الوزن ؟ »

يقول الصاحب : « فقلت : بلى ، أنشدني ابو الحسن بن المنجم قال : أنشدني ابو الغوث لأبيه من قصيدة :

واحق الأيام بالأنس أن يؤ ثر فيه يوم المهرجان الكبيرِ

فقال سيدنا : أردتُ غير هذا ، فقلت : لا أعرف . فأنشد قصيدته التي أولها :

ظلم الدهر فيكم وأساءا فعزاءاً بني حميد عزاءا

الى أن انتهى الى قوله :

ولماذا تتبّع الناس شيئاً جعل الله الفردوس منه جزاءا

فقلت : هو كما قال سيدنا ، لأن البيت من الخفيف ، وفيه زيادة سبب»[2].

ويقول الصاحب في تعريف العروض :

« العروض ميزان الشعر ، بها يعرف مكسورُه من موزونه ، كما ان النحو معيار الكلام به يُعرف معرُبه من ملحونه »[3] .

ويقول في مقدمة كتابه : « الاقناع في العروض وتخريج القوافي » :

« الشعر مبنيٌّ على سبب ووتد وفاصلة .

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٧٧-٢٧٨ .

(٢) الكشف عن مساوىء شعر المتنبى : ٨ .

(٣) الاقناع فى العروض : ٢/أ . مخطوط مصور بمكتبتى الخاصة .

فالسبب سببان : خفيف وثقيل ، فالخفيف متحرك بعدساكن مثل مِنْ وعَنْ ، والثقيل حرفان متحركان مثل لِمَ وبِمَ .

والوتد وتدان : مجموع ومفروق ، فالمجموع حرفان متحركان بعدهما ساكن مثل الى وعلى ، والمفروق حرفان متحركان فرّق بينهما ساكن مثل سار وباع .

والفاصلة فاصلتان : صغرى وكبرى ، فالصغرى ثلاثة أحرف متحركات بعدها ساكن مثل ذهبا وطلبا ، والكبرى اربعة أحرف متحركات بعدها ساكن مثل ذهبتا و طلبتا ، ولا يتوالى في الشعر أكثر من أربعة أحرف متحركات ، ولا يجتمع فيه ساكنان إلا في قوافٍ مخصوصة .

والمعتبر في التقطيع اللفظ دون الخط ، وكل مشدَّدٍ يعدُّ حرفين : الأول ساكن والثاني متحرك ، وكل بيت مصرَّع فعروضه على زنة ضربه أو ما يجوز في ضربه .

والعروض اسم لآخر جزءٍ في النصف الأول من البيت ، والضرب اسم لآخر جزءٍ في النصف الأخير من البيت .

والزحاف جائز كالأصل ، والكسر ممتنع ، وربما كان الزحاف في الذوق أطيب من الأصل ، والزحاف لا يقع إلا في الأسباب ، والخرم والقطع لا يقعان إلا في الأوتاد ، وسيأتي بيان الخرم والخزم في موضعهما إن شاء الله تعالى .

واصول الأفاعيل ثمانية : إثنان خماسيّان وهما فعو لن فاعلُن ، وستّة سباعيّة وهنّ مفاعيلُن فاعلاتُن مستفعلن مُفاعلتُن متفاعلن مفعولاتُ ، وماجاء بعدها فهو زحاف له أو فرع عليه »(١).

---

(١) الاقناع فى العروض وتخريج القوافى : ٢ / أ ـ ب .

وفي أثناء مناقشات الصاحب لشعر المتنبي يسجل على المتنبي مخالفته للعروض في أحد أبياته فيقول :

« وفي هذه القصيدة سقطة عظيمة لا يفطن لهـا إلا من جمع في علم وزن الشعر بين العروض والذوق وهو :

تفكره علم ومنطقه حكم　　وباطنه دين وظاهره ظرفُ

وذاك ان سبيل عروض الطويل أن تقع مفاعلن ، وليس يجوز أن تأتي مفاعيلن إلا اذا كان البيت مصرّعاً ، اللهم إلا أن يضع هو عروضاً لتمام الدائرة ، فهذه العروض قد ألزمت القبض ، لعلل ٍ ليس هذا موضع ذكرها ، ونحن نحا كمه الى كل شعرٍ للقدماء والمحدثين على بحر الطويل فلا نجد له على خطأه مساعداً »[1].

(١) الكشف : ٢٣ .

لم يكن النقد الأدبي فناً جديداً استحدث وابتكر في العصر الاسلامي ، بل كان من الفنون القديمة المعروفة عند اليونانيين في عصر نهضتهم ، وعند العرب الجاهليين الذين انتهت الينا اخبارهم ، ولكنه خضع لسنّة التطور على مر السنين ، فتدرج من وضعه البدائي البسيط الى ادواره السامية في القرنين الأولين من الهجرة ، ثم الى دوره البارز في القرن الثالث على يد المبرد وابي سعيد السكري وابن المعتز وابن قتيبة وقدامة وأضرابهم .

وكان القرن الرابع عصر ازدهار هذا الفن وبلوغه القمة في تطوره وصعوده ، « واذا كان الشعر العربي قد بلغ فيه ذروته ؛ فان النقد القديم انتهى فيه الى غايته ، سواءاً من جهة سعته وشموله أم من جهة عمقه ودقته أو من جهة براءته من الحدود الفلسفية الى درجة واضحة ، وذلك لتفرد النقاد الأدباء تقريباً بهذا الفن ؛ ونضج ملكة الذوق عندهم من كثرة ما درسوا ووزنوا ، وجمعوا بين جمال الطبع لتضلعهم في الأدب القديم ؛ وحسن الصنعة من ممارسة الأدب الحديث ، فصفا ذوقهم وعاد مهذّباً لطيفا سديداً » .

« وكان نقدهم ممتازاً بالعمق وسعة الأفاق وتحليل الظواهر الأدبية وإرجاعها الى اصولها الصحيحة ، وعاد نكراً ما كان يحبُّ قدامة أن يفرضه على الشعر من قوانين المنطق واصول الأخلاق والفلسفة ، وكانت المعركة بين النقاد تدور حول ابي تمام والبحتري ، ثم بين المتنبي وخصومه ، وكسب النقد من وراء ذلك عدة كتب ورسائل قيمة تؤرّخه في القرن الرابع ؛ مثل كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي ، وأخبار ابي تمام للصولي ، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي

الجرجاني ، عدا كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، ورسالة الصاحب بن عباد في الكشف عن مساوىء المتنبي ، ورسالة الحاتمي فيما توردہ من المعاني بين ابي الطيب المتنبي وارسطو . ودخلت مسألة السرقات الشعرية في باب النقد . وكأنه لم يبق شيء نقديٌ غفل عنه ادباء القرن الرابع او لم يفتحوا فيه على اقل تقدير »[1].

وكان ابو الفضل بن العميد - استاذ الصاحب وموجّهه الأكبر - في طليعة أعلام النقد الأدبي ورجاله اللامعين في هذا القرن ، ولكن المؤسف ان ابا الفضل - هذا - لم يسجل آراءه ودراساته في هذا الموضوع في كتاب مستقل ، فضاع اسمه وخبا ذكره ، ولولا تسجيل الصاحب في رسالته : « الكشف عن مساوىء شعر المتنبي » لبعض آراء استاذه لما عرف عنه البروز في هذا الفن والابداع فيه ، ولكن الصاحب إذ عرض لابن العميد وبعض آرائه في نقد الشعر دلّنا على براعة هذا الرجل وعلو كعبه في هذا الفن الجميل الجليل .

ولم يكن ابن العميد في معرفته بهذا الفن ناقلاً عن غيره من المتقدمين آراءهم وأقوالهم في نقد الشعر ، بل كان - مع اطلاعه الكبير على أقوال غيره - مبتكراً لبعض أصول هذا الفن وأساليبه ، وفي هذا الصدد يحدثنا الصاحب فيقول :

« ها أنا منذ عشرين سنة اجالس الشعراء واكاثر الادباء واباحث الفضلاء ، وعشرين اخرى آخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب عن أصحاب احمد بن يحيي ثعلب ، فما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته ، وينقده نقد جهابذته ، غير الاستاذ الرئيس ابي الفضل بن العميد أدام الله ايامه وحصّن

---

(۱) اصول النقد الادبى : ۱۱۲ .

لديه إنعامه ، فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخيُّر القافية والوزن ، وعن مجلسه ـ أعزه الله تعالى ـ أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطراف كلامه تعلقت فيما اتحلى من هـــذا الجنس »[1].

ثم يروي عن استاذه بعض آرائه في نقد الشعر فيقول :

« انشدتُ يوماً بحضرته كلمة ابي تمام التي أولها :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدي ومحت كما محت وشائع من بردِ

حتى انتهيت الى قوله :

كريم متى أمدْحه أمدْحه والورى معي وإذا ما لمتُه لمتُه وحدي

فقال : هل تعرف في هذا البيت عيباً ؟ فقلت : بلى ، قابل المدح باللوم فلم يوفِ التطبيق حقه ، إذ حق المدح أن يقابِلَ الهجو والذم ، على انه قد روي : (ومتى ما ذمتُه ذمتُه وحدي) ، فقال ـ أيده الله ـ : غير هذا أردت ، فقلت ما أعرف . قال : أحد ما يُحْتاج اليه في الشعر سلامة حروف اللفظ من الثقل ، وهذا التكرير في أمدحه أمدحه مع الجمع بين الحاء والهاء مرتين ـ وهما من حروف الحلق ـ خارج عن حد الاعتدال ، نافر كل النفار ، فقلت : هذا ما لا يدركه ولا يعلمه الا من انقادت وجوه العلم له ، وانهضه الى ذراها طبعه »[2].

ومما رواه الصاحب عن ابن العميد أيضاً في هذا الموضوع قوله :

« إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ويبتدأ النسج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ، وينظر

---

(١) الكشف عن مساوىء شعر المتنبى : ٤ .

(٢) نفس المصدر : ٦ـ٧ .

في أيّ الأوزان يكون أحسن استمراراً ، ومع أيّ القوافي يحصل أجمل اطراداً، فيركب مركبًا لا يخشى انقطاعه والتياثه عليه »[1].

وهكذا نشأ تلميذ ابن العميد بارعًا في هذا الفن كاستاذه ، فنقد شعر المتنبي نقداً فنيًا دقيقًا دلّ على ذوق سليم وتمكُّن كبير من اصول هذا الفن وقواعده ، وجاءت رسالته في الكشف عن مساوىء شعر المتنبي مصدراً قيما من مصادر دراسة هذا الفن في القرن الرابع ، بالنظر الى ما احتوت عليه من براعة في النقد، ودقة في الغوص الى استخراج المساوىء الفنيـة التي حفل بها بعض شعر المتنبي وبعض أبياته الركيكة .

وسواءاً كان الصاحب مندفعاً الى نقد المتنبي بدافع النزاهة وحب العلم ، أو بدافع الحقد والغضب عليه ، فان نقده وتجريحه وإظهاره العيوب والمساوىء الظاهرة فيما رواه من شعر المتنبي صحيح - في الأكثر - وغير قابل للمناقشة والرد ، وإن حاول بعضهم الدفاع عن المتنبي فلم يوفق التوفيق الكامل .

واورد - في أدناه - نماذج من نقده الأدبي الفنّي ، ليعطي بعض ملامح الصاحب في تضلعه بهذا الفن والتمكن منه :

١ - « أما السرقة فما يعاب بها ، لاتفاق شعر الجاهلية والاسلام عليها ، ولكن يعاب أنه كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري وغيره جل المعاني ثم يقول : لا أعرفهم ولم أسمع بهم ، ثم يُنْشَد أشعارهم فيقول : هذا شعر عليه أثر التوليد »[2].

٢ - « لقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل مع فساد الحسّ

---

(١) الكشف : ٩ .
(٢) نفس المصدر : ١١ .

على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكاً في امه بقوله :

رواق العز فوقك مسبطرٌ

ولعل لفظة ـ الاسبطرار ـ في مراثي النساء من الخذلان الصفيق ... وهذه القصيدة يظن المتعصبون له انها من شعره بمثابة : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ﴾ من القرآن ، و ﴿ اصدع بما تؤمر ﴾ من الفرقان . وفيها يقول :

وهـذا أول الناعين طراً　　　لأول ميتةٍ في ذا الجلال

ومن سمع باسم الشعر عرف تردده في انتهـاك الستر ، ولمّـا أبدع في هذه المرثية واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط　　　على الوجه المـكفّـن بالجمالِ

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقتَ ولكنها استعارة حداد في عرس ، ولما أحبَّ تقريظ المتوفاة والإفصاح عن أنها من الـكريمات ، أعمل دقائق فـكره ، واستخرج زبد شعره ، فقال :

ولا من في جنازتها تجـار　　　يكون وداعهم خفق النعالِ

ولعلَّ هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بامامته أحسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه　　　فطيب تراب القبر دلَّ على القبرِ

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

سلت وسلت ثم سل سليلها

حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأفجع من فقدنا من وجدنا　　　قبيل الفقد مفقود المثالِ

فالمصيبة في الراثي أعظم منها في المرثيّ »(١).

---

(١) الكشف : ١٢ـ١٤ .

٣ ـ « وأطمُّ ما يتعاطاه التفاضح بالالفاظ النافرة والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء أو غذيُّ لبن ، ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر ، فمن ذلك قوله :

أيفطمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ الى الأكلِ

ولا أدري كيف عشق التوراب حتى جعله عوذة شعره »[1].

٤ ـ « مازال يسمع الأقسام الشريفة في الشعر كقول النابغة :

إذن فلا رفعت سوطي إليَّ يدي

وكقول الأشتر :

بقَّيتُ وفري وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافي بوجـــه عبوسِ

الى كثير من هذا الجنس للمتقدمين والمخضرمين والمحدثين ، فأراد التشبُّه بهم ، والصب على قوالبهم فقال :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذٍ من الاسلامِ

وحينئذٍ هاهنا أنفر من عير منفلت »[2].

٥ ـ « ولم ننفك مستحسنين لجمع الأسامي في الشعر كقول الشاعر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهابِ

وقول الآخر :

عباد بن اسماء بن زيد بن قاربِ

واحتذى هذا الفاضل على مثالهم وطرقهم فقال :

وانت ابو الهيجا بن حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالدُ

وحمدان حمدون وحمدون حارث وحارث لقمان ولقمان راشدُ

---

(١) الكشف : ١٤ .

(٢) نفس المصدر : ١٥ .

وهذه من الحكمة التي ذكرها ارسطاطاليس وافلاطون لهذا الخلف الصالح، وليس على حسن الاستنباط قياس »[1].

٦ - « ومما لم اقدّره يلج سمعاً أو يرد اذناً قوله :

جواب مسائلي أله نظير ولا لاك في سؤالك لا ألالا

وقد سمعت بالفأفاء ولم اسمع باللألاء حتى رأيت هذا المتكلف المتعسف»[2]

٧ - « ومن مدحه ببعد الغور وقد غار فيه لعمري وما انجد ، قوله :

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذي الأفلاك منه والدُنا

فالمصراعان لتنافيهما يتبرأ أحدهما من صاحبه تبرئي من آل أبي سفيان وآل مروان ، ثم - الدنا - من الألفاظ التي لا يبالي الانسان أن يعدم مثلها من شعره »[3] .

٨ - « ومن عيون قصائده التي تحيّر الأفهام وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالارثماطيقي وبالاعداد الموضوعة للموسيقى قوله :

احاد أم سداس في احادِ لبيلتنا المنوطة بالتنادِ

وما ظنك بممدوح قد تشمر للسماع من مادحه فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة ، والمعاني المنبوذة ، أيُّ هزة تبقى هناك ، وأيُّ أريحية تثبت بهذا »[4].

٩ - « وعهدت الأدباء وعندهم ان أبا تمام أفرط في قوله :

شاب رأسي و مارأيت مشيب الـ رأس إلا من فضل شيب الفؤاد

(١) الكشف : ١٦ .
(٢) نفس المصدر : ١٩ .
(٣) نفس المصدر : ١٩ .
(٤) نفس المصدر : ٢١ .

فعمد هذا الى المعنى فأخذه ، ونقل الشيب الى الكبد ، وجعل له خضاباً ونصولاً ، فقال :

إلاّ يشبْ فلقد شابت له كبد شيباً إذا خضبته سلوة نصلا »[1] .

١٠ ـ « ومنها بيت قد حشا تضاعيفه بالضعف ، وهو :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألفُ

وهؤلاء المتعصبون له يصلح عندهم أن ينقشوا هذا البيت على صدر الكعبة ، ويُنادى في الناس قعوا له ساجدين .

وله وقد غاص فأخرج جندلة :

لولم تكن من ذا الورى اللذ منك هوْ عقمت بمولد نسلها حـــواءُ

وأنا أقول : ليت حواء عقمت ولم تأتِ بمثله »[2] .

١١ ـ « ومن تصريفه الحسن وضعه التقييس موضع القياس في قوله :

بشر تصور غاية في آيـة تنفي الظنون وتفسد التقييسا

ويليه بيت إن لم يستحِ منه أصحابه سلمناه لهم وهو :

وبه يضنُّ على البرية لا بها وعليه منها لا عليها يوسى

وليس بالحلو قوله :

صدق المخبر عنك دونك وصفه من في العراق يراك في طرسوسا »[3] .

١٢ ـ « وله يريد أن يزيد على الشعراء في وصف المطايا ، فأتى بأخزى الخزايا :

---

(١) الكشف : ٢٢ .

(٢) نفس المصدر : ٢٣ .

(٣) نفس المصدر : ٢٣ـ٢٤ .

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبدالله بعرانا

ومن الناس امه فهل ينشط لركوبها ، والممدوح ايضاً لعلّ له عصبة لا يحب أن يُركبوا اليه ، فهل في الأرض أخش من هذا التسحب ، وأوضع من هذا التبسط »[1].

هذه بعض الشواهد والنماذج من نقد الصاحب الأدبي عرضناها باسهاب للدلالة على منحى الصاحب واسلوبه في هذا الفن ، وطريقته وذوقه في اختيار ما ينقد ، وفي ذلك يقول الدكتور محمد مندور :

« لئن كان التحامل واضحاً في اقواله ، فالكثير من ملاحظاته صحيح ، وانما يقدح في المؤلف انه لم يشر الى أيّ حسنة للمتنبي ، ولا أورد له أيّ بيت من أبياته الجميلة الكثيرة العدد » .

« والذي يدهشنا من أمر الصاحب هو أن نراه ينقد المتنبي هذا النقد المر مع أنه قد تأثر به واخذ عنه . . . ، ويزيدنا دهشة ان بدار الكتب الملكية رسالة منسوبة الى الصاحب بعنوان ـ كتاب الأمثال السائرة من شعر المتنبي ـ ، وفي مقدمتها يقول المؤلف إنه قد وضعها لفخر الدولة بن بويه ، وفيها زهاء ثلثمائة وسبعون بيتاً تجري مجرى الأمثال »[2].

ثم يذهب الدكتور مندور بعد ذلك الى الشك في نسبة رسالة الصاحب في الأمثال السائرة من شعر المتنبي لمؤلفها ، ويرى انه لاسبيل الى الجزم في نسبتها اليه ، ولا دليل له على ذلك إلا نقد الصاحب المر لشعر المتنبي .

ولو تصفح الدكتور مندور مقدمة رسالة « الكشف عن مساوىء شعر المتنبي » لوجد الصاحب فيها معترفاً باجادة المتنبي واصابته في شعره فهو يقول :

---

(١) الكشف : ٢٦ .

(٢) النقد المنهجى عند العرب : ١٨٦ـ١٨٧ .

« كنت ذاكرت بعض من يتوسم بالأدب الأشعار وقائليها ، والمجوّدين فيها ، فسألني عن المتنبي فقلت : إنه بعيد المرمى في شعره ، كثير الاصابـــة في نظمه ، الا أنه ربما يأتي بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء ، فرأيته قد هاج وانزعج ، وحمى وتأجج ، وادعى ان شعره مستمر النظام متناسب الأقسام ، ولم يرض حتى تحدّاني فقال : إن كان الأمر على ما زعمت فأثبتْ في ورقة ما تنكره . . . ففعلت ، وإن لم يكن تطلّب العثرات من شيمتي ، ولا تتبُّع الزلّات من طريقتي ، وقد قيل : أيُّ عالمٍ لا يهفو ، وأي صارم لا ينبو ، وأي جواد لا يكبو »(١) .

فالصاحب ـ إذن ـ لا ينقد المتنبي هذا النقد المر لينكر إجادته وإبداعه في شعره ، وانما تدفعه روح الحرية الأدبية المحايدة الى تسجيل مساوئه الفنية في رسالة خاصة ، ثم الى تسجيل براعته الأدبيـــة في رسالة اخرى هي رسالة : « الأمثال السائرة » ، ثم الى التأثر بالمعاني المبتكرة التي حفل بها شعر المتنبي والاستشهاد بتلك المعاني في نثره ورسائله ، وهذه هي النزاهة الأدبية بمعناها الصحيح ، إذ تقول للمحسن : أحسنت ، وللمسيء : أسأت ، وأروي في ادناه نص ما سجله الصاحب في الثناء على المتنبي في مقدمة رسالته « الأمثال السائرة » ليكون مسك الختام :

قال : « وهذا الشاعر مع تميزه وبراعته ، وتبريزه في صناعته ، له في الأمثال خصوصاً مذهب سبق به امثاله . فأمليت ما صدر عن ديوانه من مثل رائع في فنه ، بارع في معناه ولفظه ، ليكون تذكرة في المجلس العالي ، تلحظها العين العالية ، وتعيها الأذن الواعية »(٢) .

---

(١) الكشف : ٣ .
(٢) الامثال السائرة : ورقة ٢ ، مخطوط مصور بمكتبة الامام الحسن العامة .

التاريخ :

صنّف الصاحب في هذا الفن عدة كتب ذكرتها المراجع القديمة ، ولم يبق منها الى اليوم سوى كتاب « عنوان المعارف في ذكر الخلائف » ، ورسالة « أخبار عبدالعظيم الحسني » .

وبالرغم مما حفل به هذان الكتابان من أنباء متنوعة ومعلومات متعددة ، فانهما لا يدلّان على عمق في الدراسة ، أو دقةٍ في البحث ، أو إبداع في تحليل المشاكل التاريخية المعقدة ، بل كل ما نستفيده منهما ان مؤلفهما من ذوي الاطلاع على كتب التاريخ والوقوف على رواياته وحوادثه ، وان الكتابين ـ بدورهما ـ عرض مختصر الروايات والحوادث المرتبطة بموضوع كل واحد منهما .

واورد فيما يلي نتفاً مقتبسة من هذين الكتابين لتكون نموذجاً للمعلومات التي حفلت بها كتب الصاحب التاريخية ، وللاسلوب الذي يعرض فيه هذه المعلومات :

١ ـ « ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل ، ودفعته امه الى اظآره من بني سعد بن بكر فكان عندهم خمس سنين ، ثم ردّوه عليها فأخرجته امه الى أخواله بالمدينة بعد سنة ، فتوفيت بالأبواء وردته ام أيمن حاضنته الى مكة ، وخرج مع أبي طالب الى الشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وشهد الفجار وهو ابن عشرين سنة ، وخرج الى الشام في تجارة لخديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وتزوجها بعد ذلك بشهرين وأيام ، وبنيت الكعبة ورضيت قريش بحكمه (ص) وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وبُعث عليه السلام وهو ابن أربعين سنة ، وتوفي عمه أبو طالب وهو ـ عليه السلام ـ قد قارب

الخمسين ، وتوفيت خديجة بعده بثلاثة أيام ، ثم خرج الى الطائف ومعه زيد ابن حارثة بعد ثلاثة أشهر من موت خديجة ، ثم رجع الى مكة واسري به الى بيت المقدس بعد سنة ونصف من رجوعه الى مكة ، ثم هاجر ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر وعبدالله بن اريقط ، وخلّف أمير المؤمنين عليه السلام بمكة على ودايع للناس كانت عنـــده حتى أدّاها ثم لحق به ، وكانت هجرته - عليه السلام - وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، ودخل المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الاول ، وكان التاريخ من ذلك ثم ردّ الى المحرم»(١).

٢ - « أبو العباس السفاح عبدالله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ابن عبدالمطلب ، امه ريطه بنت عبيدالله بن عبدالله بن غبدالدار الحارثية ، بويع له في شهر ربيع الأول ، وقيل الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وكانت مدة بقاء الأمر له أربع سنين وعشرة أشهر . توفي في شهر ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة بالأنبار ، وصلى عليه عيسى بن علي ، وكان اشترى بردة النبي عليه السلام بأربعمائة دينار ، ووزيره أبو سلمة الخلال ، وفيه يقول الشاعر :

ان الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيرا

وبعده خالد بن برمك ، وكاتبه أبو الجهم بن عطية ، وحاجبه خالد بن الهيثم مولاه ، ونقش خاتمه : (الله ثقة عبدالله وبه يؤمن) وقاضيه يحي بن سعيد الأنصاري »(٢).

٣ - « خاف [عبدالعظيم الحسني] من السلطان فطاف البلدان على انه فيبج ، ثم ورد الريّ وسكن بسربان في دار رجل من الشيعة في سكة الموالى ،

---

(١) عنوان المعارف - نفائس المخطوطات : ١/٧-٨ .

(٢) نفس المصدر : ١/٢٣-٢٤ .

وكان يعبد الله عز وجل في ذلك السربان ، يصوم النهار ويقوم الليل ، ويخرج مستتراً فيزور القبر الذي يقابل الآن قبره وبينهما الطريق ، ويقول : هو قبر رجل من ولد موسى بن جعفر عليهما السلام ، وكان يقع خبره الى الواحد بعد الواحد من الشيعة حتى عرفه أكثرهم ، فرأى رجل من الشيعة في المنام كأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إن رجلاً من ولدي يحمل غداً من سكة الموالي فيدفن عند شجرة التفاح في (باغ) عبدالجبار بن عبدالوهاب ، فذهب الرجل ليشتري الشجرة ، وكان صاحب (الباغ) رأى رؤيا في ذلك ، فجعل موضع الشجرة مع جميع (الباغ) وقفاً على أهل الشرف والتشيع يدفنون فيه ، فمرض عبدالعظيم ـ رحمة الله عليه ـ ومات ، فحمل في ذلك اليوم الى حيث المشهد »[1] .

(١) أخبار عبدالعظيم ـ نفائس المخطوطات : ٤/١٩ـ٢٠ .

الطب :

يقول الثعالبي :

« سمعت أبا جعفر الطبري الطبيب المعروف بالبلاذري يقول : إنّ للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعيرنيها إن كانت عنده ، فذكر انها في جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت واستبعدت ما حكاه عن تطبّب للصاحب ، ونسبته في نفسي الى التزيّد والتكثر ، الى أن ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوّبة للصاحب برسالة قدرتُها تلك التي ذكرها أبو جعفر ، ووجدتها تجمع الى ملاحة البلاغة ورشاقة العبارة حسنَ التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر في علمه وقوة المعرفة بدقائقه »[1] .

ويقول ابن أبي اصيبعه :

« طلب الصاحب من جبرئيل بن عبيدالله بن بختيشوع أن يعمل له رسالة في الطب يذكر فيها الأمراض التي تعرض من الرأس الى القدم ، فعمل رسالة صغيرة قصرها على ذكر ما طلب منه وقدّمها للصاحب ، فوصله بما قيمته ألف دينار . . . ، ولما عاد الى بغداد . . . أقام مشتغلاً بالتصنيف ، فتمم كناشه الكبير وسمّاه بالكافي بلقب الصاحب بن عباد لمحبته له »[2] .

كما ألف جبرئيل للصاحب أيضاً مقالةً في أنّ أفضل اسطقسّات البدن هو الدم[3] .

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٨٠ .
(٢) عيون الانباء : ١/١٤٦ .
(٣) نفس المصدر : ١/١٤٨ .

وهكذا نجد الصاحب مهتماً كل الاهتمام بدراسة علم الطب وفهمه ، والاطلاع على دقائقه وفروعه ، وسواءاً كانت رسالته التي ذكرها الثعالبي بتلك الدرجة من العمق والدقة وسعة الاطلاع أو لم تكن ، فانها تدلنا على وقوف الصاحب وقراءته لكتب جالينوس وابقراط والأفروديسي ، وفهم آرائهم ونظريّاتهم العلميّة . ومن شواهد ذلك قوله في هذه الرسالة :

« وعجب مولاي من تكرُّهه شمَّ الفواكه ، ولا عجب اذا عُرف السبب ، فان العفونة التي في العروق قد طبقت روائحها آلات الشم ، فما يصل اليها من الروائح الزكيّة يرد على النفس مغموراً بتلك الروائح الخبيثة فتتكرّهها ولا تقبلها ، وتأباها ولا تؤثرها ، وهذا قياس بيّن على ما كشفه الأفروديسي » .

ثم يقول الصاحب في أواخر الرسالة :

« وجالينوس شرط في العلاجات أجمع استحفاظ القوى ، لأنَّ الذي يفعله الضعف لا يتداركه أمر ، إلا ان ذلك بإزاء ما قال الحكيم الأول بقراط في البدن السقيم : إنك متى زدتَه غذاءاً زدته شراً ، وهو نفسه يقول : إن الحمية التي في نهاية الدقة ليست بمحمودة ، والطرفان من الاسراف والاجحاف مذمومان » [1] .

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد : ٢٣٠ .

مؤلفاته

سجّل بعض المؤرخين[1] للصاحب (١٨) مؤلفاً في شتى فروع العلم والأدب والثقافة الاسلامية ، كما ارتفع هذا العدد في مؤلفات بعض المتأخرين حتى بلغ (٣٠)[2] و (٣١)[3] و (٣٧)[4] .

ومهما كان عدد هذه المؤلفات كثرةً أو قلةً ، فانها لتدل على وجود رغبة كبيرة في نفس الصاحب تحفزه على التأليف والتصنيف ، وتبعثه على أن يتحلل من أعباء الحكم وواجبات الوزارة في كثيرٍ من الأحيان ليؤدي حق هذه الرغبة ، ويشبع نهمها ، ويحقق لها ما تريد ، فكان من نتيجة ذلك كله : هذه المؤلفات التي بحث فيها الصاحب أكثر المواضيع التي تمكن من دراستها وفهمها ، وعرف من نفسه إتقانها ، والمقدرة على البحث فيها ، والتدقيق في شؤونها .

وفي هذا الفصل حاولت أن أعرض لمؤلفات الصاحب بكثير من التفصيل والشرح والتحقيق ، فأشرت الى طبع المطبوع منها ، وأماكن وجود المخطوط منها ، ومواضع النقل عنها في كتب الأدب والتاريخ ، وشرحت فكرة كل كتاب من الكتب الموجودة ، مع تسجيل عدد صفحاته ، وحاولت تحديد

---

(١) معجم الادباء : ٦/ ٢٦٠ ، وهدية العارفين : ١/ ٢٠٩ .

(٢) أعيان الشيعة : ١١/ ٤٢٧ـ٤٣١ .

(٣) الغدير : ٤/ ٤١ـ٤٢ .

(٤) مقدمة الهداية والضلالة : ٢٠ـ٢٢ .

تاريخ تأليفه اذا عثرت على ما ينير السبيل اليه ، كما رويت أيضاً بعض نصوصه وما جاء في أوله وآخره ، لأعطي القارئ صورة موجزة كافية عن كل كتاب من هذه الكتب القيمة .

وبالنظر الى عدم العثور على كل مؤلفات الصاحب ؛ بل الى فقدان بعضٍ منها خلال النكبات التي مني بها العلم والأمة العربية فيما سلف من الأيام ، فقد قسَّمتُ هذه المؤلفات الى ثلاث قوائم تشمل مؤلفات الصاحب الموجودة حالياً ، ومؤلفاته التي احتفظت المصادر الأدبية ببعض نصوصها ، ومؤلفاته التي فقدت أو انطوت في زوايا لا يصل اليها النور .

أ ـ مؤلفات الصاحب الموجودة

١ — الابانة :

أسماها بعض متأخري المؤرخين : « الابانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل »[١] ، وأسماها السيد الصدر : « الابانة عن الامامة »[٢] ، وفي كتاب بروكلمان : انها « الابانة عن مذهب أهل العدل بحججٍ من القرآن والعقل » ، وان نسخة منها في مكتبة الميرزا محمد الطهراني بسامراء[٣] .

وورد اسم هذه الرسالة في مقدمتها حيث قال الصاحب : « هذا مختصر في الإبانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل » .

ولم أعثر في الكتب القديمة على ذكرٍ لاسم هذه الرسالة أو نقل عنها ، ولكن اسلوبها في العرض والبحث مشابه لاسلوب الصاحب في بقيــــة كتبه ومؤلفاته ، كما ان كثيراً من آرائها لا يختلف عن آراء الصاحب فيما ثبتت نسبته اليه من مصنفاته ، وأما حصر الرسالة بموضوع الامامة كما ورد في تأسيس الشيعة فلم أجد له ما يؤيده ، لأن بحثها شامل لجميع مباحث اصول الدين الاسلامي ، والتعرض للامامة في آخرها بسيط مختصر لا يستدعي تسمية الرسالة به ، بل ان أكثر فصولها منصب على أسماء الله تعالى وصفاته وأقوال الفرق

---

(١) الذريعة : ١/٥٧ ، والغدير : ٤/٤٢ .

(٢) تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام : ١٦١ .

(٣) تاريخ الادب العربى : ١/١٣٦ ، ومثله فى أعيان الشيعة : ١١/٤٣٠ .

الاسلامية المختلفة بهذا الشأن ، الأمر الذي حداني الى احتمال أن يكون كتاب « الابانة » هو كتاب « أسماء الله وصفاته » الذي ذكره الأقدمون في قائمة مؤلفات ابن عباد ؛ والى احتمال أن تكون تسمية الرسالة بالابانة مستحدثة مقتبسة من مقدمتها التي مرّ نقلها آنفاً .

والرسالة مطبوعة في عام ١٣٧٢ هـ في النجف الأشرف في (٢٠) صفحة من صفحات المجموعة الاولى من « نفائس المخطوطات » ، وتضم مكتبة المرحوم الشيخ الهادي كاشف الغطاء أقدم نسخة عثرت عليها من هذه الرسالة ، حيث تمّ نسخها في عام (١٠٦٠ هـ) .

أما تاريخ تأليفها فلم يرد ذكره في الرسالة كما لم يرد ذكره في كتب التاريخ ، ولكنني - بعد الاطلاع على رأي الصاحب في مسألة الامامة في هذه الرسالة ؛ ومقارنته برأيه فيها كما ورد في شعره الذي نظمه في أواسط عمره وأواخره - ؛ أرجح أن تكون من اولى مؤلفاته التي كتبها في صدر شبابه ومبدأ عهده بالبحث والتأليف [1] .

عرض الصاحب في هذه الرسالة لآراء خصومه في الشؤون الكلامية ، وكرّ عليها بالمناقشة والنقض بالأدلة العقلية الراجحة لديه ، ثم أردف كل دليل منها بآية أو آيات من القرآن الكريم تسند ما ذهب اليه .

يبدأ الصاحب رسالته بقوله :

« هذا مختصر في الابانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل ، والله نستهدي ونستكفي ، واليه نفزع ونلتجي .

زعمت الدهرية : ان الأجسام التي نشاهدها قديمة ، و قالت الموحدة : هي محدثة لأن الإمارات التي فيها من التحول والتنقل والتبدل والاجتماع والافتراق

(١) يراجع فى تفصيل ذلك ص ٨٤-٨٥ من هذا الكتاب .

إمارات الحدوث لا القدم ، ألا ترى ان اجتماعها يحدث فيبطل افتراقها ، فاذا كانت لا تنفك من الحوادث فهي محدثة ؛ لأنها لم تتقدمها في الوجود ، وقد علمنا ان النطفة لو وضعت بين يدي العالم لما قدروا أن يخلقوا منها ذبابة كما قال الله تعالى : ﴿ ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ ، ووجدناها تخلق منها بشر سوي فعلمنا انه حادث أحدثه قادر لا يشبهه القادرون » [1] .

ومما أورده الصاحب في هذه الرسالة قوله في مناقشة المجبرة :

« زعمت المجبرة القدرية ان الله يضل أكثر عباده عن دينه ، فانه ما هدى أحداً من العصاة الى ما أمرهم به ؛ وان الأنبياء عليهم السلام أراد الله ببعثهم الزيادة في عمى الكافرين ، وقالت العدلية : الله لا يضل عن دينه أحداً ، ولم يمنع أحداً الهدى الذي هو الدلالة ، ومن لم يهتد فبسوء اختياره غوى . قال الله تعالى : ﴿ فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ ، على أنا نقول : إن الله يضل من يشاء ويهدي ، وانه يضل الظالمين عن ثوابه وجنانه ، وذلك جزاء على سيئاتهم ؛ وعقاب على جرمهم . قال الله تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ـ الى قوله ـ اولئك هم الخاسرون ﴾ ، فأما الضلال عن الدين فهو فعل شياطين الجن والإنس ، ألا ترى ان الله تعالى ذمّ عليهم فقال : ﴿ وأضلهم السامري ﴾ [2] .

وفي ختام الرسالة يقول :

« وأما من نابذ علياً عليه السلام وحاربه ، وشهر سيفه في وجهه ، فخارج عن ولاية الله ، إلا من تاب بعد ذلك وأصلح ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » [3] .

---

(١) الابانة ـ نفائس المخطوطات : ١/٩ .
(٢) نفس المصدر : ١/٢١ـ٢٢ .
(٣) نفس المصدر : ١/٢٨ .

٢ — الاقناع :

ذكر هذا الكتاب في كثير من المصادر باسم : « الاقناع في العروض »[١]، كما ذكر باسم : « العروض » في مصادر اخرى[٢] ، وأسماه بروكلمان[٣] : « الاقناع في العروض وتخريج القوافي » ، وذكر ياقوت في مؤلفات الصاحب : كتاب العروض الكافي وكتاب نقض العروض[٤] ، وفي الصفحة الاولى من مخطوط هذا الكتاب الذي تم نسخه في عام ٥٥٩ هـ سمي باسم : « الاقناع في العروض وتخريج القوافي » ، وأظن أن بروكلمان قد استند الى هذا المخطوط في تسمية الكتاب بالاسم الذي مرّ ذكره .

أما سبب تسميته باسم : « العروض » في بعض المراجع فأظن انها مقتبسة من موضوع بحث الكتاب ، أو انها مستقاة مما جاء في آخر بحث العروض إذ يقول الصاحب : « نجز العروض بحمد الله والمنّة »[٥] ، ثم يبدأ بعد ذلك بمبحث تخريج القوافي .

عثرت من هذا الكتاب على نسختين مخطوطتين كتبت اولاهما بخط حديث واضح في رابع شهر شوال من عام ١٣٠٣ هـ في « ٤١ » ورقة ، وتحتفظ مكتبة الامام الحسن العامة بنسخة مصورة منها عن نسختها الأصلية المحفوظة بمصر ،

---

(١) كشف الظنون : ١/١٤٠ ، وهدية العارفين : ١/٢٠٩ ، وأعيان الشيعة : ١١/٤٢٩ ، والذريعة : ٢/٢٧٥ ، والغدير : ٤/٤١ .

(٢) نزهة الألباء : ٣٩٩ ، وانباه الرواة : ١/٢٠٣ ، وروضات الجنات : ١٠٦ .

(٣) تاريخ الأدب العربى : ١/١٣٦ .

(٤) معجم الادباء : ٦/٢٦٠

(٥) الاقناع : ٣٨/أ . نسخة مصورة بمكتبة الامام الحسن العامة .

أما ثانيتهما فقد كتبت بخط نسخ قديم في سلخ شهر رجب من عام ٥٥٩ هـ في « ٧٥ » صفحة ، وجاء في الصفحة الاولى منها ما نصه : « صاحبه كاتبه محمد بن تركانشاه » ، وتحتفظ مكتبتي الخاصة بنسخة مصورة منها عن أصلها المحفوظ في باريس .

قسّم الصاحب الكتاب الى مقدمة وأبواب وخاتمة ، فبحث في المقدمة تعريف العروض وفائدته وانقسام الشعر الى سبب ووتد وفاصلة ، ثم انقسام كل واحد من هذه الأسباب الى فروع وأقسام ، ثم ذكر ما يستتبع ذلك بنحوٍ موجز ، وأردف هذا البحث بتفصيل أبواب العروض على النحو التالي :

١ — باب الطويل : أصله وعروضه وأضربه
٢ — باب المديد : » » »
٣ — باب البسيط : » » »
٤ — باب الوافر : » » »
٥ — باب الكامل : » » »
٦ — باب الهزج : » » »
٧ — باب الرجز : » » »
٨ — باب الرمل : » » »
٩ — باب السريع : » » »
١٠ — باب المنسرح : » » »
١١ — باب الخفيف : » » »
١٢ — باب المضارع : » » »
١٣ — باب المقتضب : » » »

١٤ — باب المجتث : أصله وعروضه وأضربه

١٥ — باب المتقارب : » » »

١٦ — باب الخرم والخزم :

ثم الخاتمة في تخريج القوافي .

افتتح الصاحب الكتاب بقوله :

« العروض ميزان الشعر بها يعرف مكسوره من موزونه ، كما ان النحو معيار الكلام به يعرف معربه من ملحونه ، والشعر مبنيٌّ على سبب ووتد وفاصلة »(١) .

وجاء في ختام الكتاب قوله :

« الحروف في القافية خمسة : التأسيس ، والردف ، وحرف الرويّ ، والوصل والخروج . الحركات ستٌّ : الرس ، والاشباع ، والحذو ، والتوجيه ، والمجرى ، والنفاذ . والهاء إذا كان ما قبلها ساكناً لم تكن وصلاً ، كقول الشاعر :

له كفّان كفٌّ كفُّ ضرٍ وكفٌّ فواضلٍ خضل نداها »(٢) .

ومن نماذج مباحث الكتاب ما جاء في مبحث تخريج القوافي :

« حرف الروي : الحرف الذي يبني عليه الشاعر قصيدته ، ولابدَّ لشعرٍ منه ، مثل اللام من حومل ، وحركته إذا كان متحركاً : المجرى .

الردف : كل ألف أو واو أو ياء تكون قبل حرف الروي بلا فصل ، مثل ألف حال وواو غفور وياء نصير ، وحركة ما قبل الردف : الحذو ،

---

(١) الاقناع : ورقة ١/أ .

(٢) نفس المصدر : ورقة ٤١/ب

والواو والياء يشتركان في قصيدة واحدة ردفاً ، والألف تنفرد .

التأسيس : كل ألف يدخل بينها وبين حرف الروي حرف لا يجب تكريره بعينه ؛ مثل ناصب وكواكب ، وحركة ما قبل التأسيس : الرس ، والحرف الذي يدخل بينهما فلا يجب تكريره يسمّى : الدخيل ، وحركته الإشباع .

الوصل – ويقال له الصلة – : كل ألف أو ياء أو واو أو هاء تكون بعد حرف الروي بلا فصل ؛ مثل ياء حوملي وواو حوملو وألف حوملا وهاء حومله ، والهاء التي هي هاء الصلة تكون موقوفة وتكون متحركة ؛ مثل حوملها أو حوملهو أو حوملهي ، فحركة الهاء : النفاذ .

الخروج : كل ألف أو واو أو ياء تكون بعد الصلة المتحركة ؛ مثل ألف إجمالها الأخيرة وواو إجمالهو وياء إجمالهي »[1] .

ومن نماذج مباحث الكتاب أيضاً ما جاء في الكلام عن باب الوافر :

« أصله مفاعلتن ست مرات ، وله عروضان وثلاثة أضرب :

البيت الأول :

عروضه مقطوفة وضربه مقطوف ، والمقطوف : ما سقط من آخره زنة سبب خفيف بعد سكون خامسه ، كان أصله مفاعلتن فسكنتْ لامُه فصار مفاعلْتن ؛ فنقل الى مفاعيلن وحذف منه لن فبقي مفاعي فنقل الى فعولن ؛ وهو :

لنا غنم نسوّقها غزار … كأن قرون جلّتها العصيُّ

تقطيعه :

لنا غنمُنْ نُسَوْوِ قُها غزارُنْ … كأنْنَقرو نَجِلْلَتِهَلْ عِصِيْيُو

مفاعلتن مفاعلتن فعولن … مفاعلتن مفاعلتن فعولن

(1) الاقناع : ٣٨ ب – ٣٩ أ .

البيت الثاني :

عروضه مجزوءة وضربه مجزوء ، وهو :

لقـــد علمت ربيعة أنـ ... حبلك واهن خلقُ

تقطيعه :

لقد علمتْ ربيعَتُأنْ نَحَبْلُكَوا هِنُنْخَلِقُو

مفـــاعلتن مفـــاعلتن مفـــاعلتن مفـــاعلتن

البيت الثالث :

عروضه مجزوءة ، وضربه مجزوء معصوب ، والمعصوب : ما سكن خامسه كان أصله مفاعلتن فسكنتْ لامه ونقل الى مفاعيلن ، وهو :

اعاتبها وآمرها فتغضبني وتعصيني

تقطيعه :

اعاتبها وآمرها فتغضبني وتعصيني

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن

زحافه

يجوز في كل مفاعلتن إلا التي في ضرب البيت الثاني أن يسكّن خامسه ، فينقل الى مفاعيلن ويسمّى : معصوباً ، ويجوز اذا صار مفاعيلن أن يحذف ياؤه فيبقى مفاعلن ويسمّى : معقولاً ، والمعقول ما سقط خامسه بعد سكونه ، ويجوز أن يحذف نونه فيبقى مفاعيل ويسمّى : منقوصاً ، والمنقوص ما سقط سابعه بعد سكون خامسه ، ويجوز فيه الخرم ، فاذا خُرم مفاعلتن بقي فاعلتن فينقل الى مفتعلن ويسمّى : أعضب ، وإن خُرم وقد صار مفاعيلن بقي فاعيلن فينقل الى مفعولن ويسمّى : أقصم ، فان خُرم وقد صار مفاعيل بقي فاعيل فينقل الى مفعول ويسمّى : أعقص ، فان خرم وقد صار مفاعلن بقي فاعلن ويسمّى أجم »[1] .

---

(١) الاقناع : ورقة ١١/أ و ب ـ ١٢/أ

٣ — الأمثال السائرة :

ذكرها بروكلمان [١] باسم « الأمثال السائرة من شعر المتنبي » ؛ وأشار الى وجود نسخة خطية منها في مصر ، وبهذا الاسم أسماها بعض المتأخرين الذين ترجموا للصاحب وسجّلوا قائمة مؤلفاته [٢] ، كما أسماها بهذا الاسم أيضاً ناسخ النسخة الخطية والاستاذ امتياز علي عرشي الرامپوري [٣] ، وذكرها الزركلي فقال : « قد جمع الصاحب بن عباد لفخر الدولة نخبة من أمثال المتنبي وحكمه» [٤]، ولم يسجل للرسالة اسماً معيّناً .

وفّقتْ هذه الرسالة للنشر أربع مرّات .

(أولها) في كتاب أنوار الربيع في أنواع البديع للسيد علي خان المشتهر بابن معصوم المدني المتوفى عام (١١١٨ هـ) ، ويقول السيد علي خان في التقديم لها :

« مدار الناس الآن على أمثال أبي الطيب المتنبي دون غيرها غالباً ، وقد جمع منها ابن حجة في شرح بديعيّته جملةً حسنة ، ولكني وقفتُ للصاحب كافي الكفاة اسماعيل بن عباد رحمه الله تعالى على رسالة جمع فيها أمثـال أبي الطيب السائرة لمخدومه فخر الدولة ، ووُجد بخط فخر الدولة على نسخة الأصل علامات على رؤوس بعض الأبيات ؛ وهي علامات ما اختاره من الأمثال ، وقد رأيت أن اثبت الرسالة المذكورة بعينها ؛ واثبت العلامات المزبورة لفخر الدولة ـ وهي خاء معجمة ـ علامة الانتخاب ، وإنما نقلتها على ما هي عليه تعجباً من

---

(١) تاريخ الأدب العربى : ١/١٣٦

(٢) مقدمة الهداية والضلالة : ٢٢ ، ومجلة ثقافة الهند : مجلد ٤ عـدد ٤ ص ٤٧ .

(٣) ثقافة الهند : العدد الأول من المجلد الخامس : ١٤

(٤) الأعلام : ١/٧٦

جودة نقده ودلالة على أنه اختيار الملوك وذوي الهمم العالية »[1].

ولعلّ تسمية الرسالة باسم : « الأمثال السائرة » مأخوذة من تعبير السيد علي خان إذ يقول : « جمع فيها أمثال أبي الطيب السائرة » ، ثم نفهم من مجموع كلامه انه اطلع على نسخة الأصل المخطوطة في حياة الصاحب نفسه ، وقد جاءت فيها علامات لفخر الدولة التي وضعها بقلمه على بعض أبيات الرسالة .

(ثانيها) في المجلد السابع والعشرين من مجلة المقتطف ؛ في ص ٩٥٣ — ٩٦٠ من العدد العاشر وص ١٠٥٠ — ١٠٥٦ من العدد الحادي عشر ، من دون أي إشارة الى المصدر الذي نقلت عنه الرسالة ، وقالت المجلة في التقديم لها ما نصه :

« أمثال المتنبي ؛ جمعها الصاحب بن عباد لفخر الدولة ، ويليق بكل طالب أن يكثر من تلاوة هذه الأبيات حتى يستظهرها ، ويصير قادراً على استحضارها »[2].

(ثالثها) في رسالة مستقلة طبعت ببيروت عام ١٩٥٠ م باسم : « أمثال المتنبي » ، واذا كنت لم اطلع على نسخةٍ منها رغم فحصي البالغ فاني أعتقد انها منقولة عن مجلة المقتطف الآنفة الذكر ، بدليل اتفاقهما في تسمية الرسالة بـ « أمثال المتنبي » .

(رابعها) في مجلة ثقافة الهند ـ مجلد ٥ عدد ١ ـ[3] ، وقد ذكر ناشرها السيد امتياز علي بأنه نقلها عن نسخة مخطوطة من كتاب أنوار الربيع .

وقد عثرت ـ بالاضافة الى هذه النسخ المطبوعة ـ على نسخة خطية صوّرتها مكتبة الامام الحسن العامة عن نسخة مصر ، وهي في ١٦ صفحة من الحجم

(١) أنوار الربيع : ١٦٨

(٢) المقتطف : مج ٢٧ ص ٩٥٣ .

(٣) من ص ١٤ ـ الى ـ ٤٤ .

الكبير (فولسكاب)، وقد كتبت بخط نسخ حديث لا يتعدى هذا القرن ، وليس في آخرها ذكر لاسم الناسخ أو لسنة النسخ .

ويفيدنا قول الصاحب في مقدمة هذه الرسالة من أنه ألفها للأمير السيد الشاهنشاه فخر الدولة انها كانت من أواخر مؤلفاته أو آخرها على وجه الضبط ، فهي قد أُلّفت بعد عام ٣٧٢ هـ الذي أصبح فيه فخر الدولة أميراً سيداً شاهنشاها ، وليس لدينا من كتب الصاحب ما عُلِم تأليفه بعد هذا الدور .

وقبل أن أنتقل من هذا الموضع أود أن اشير الى ان الدكتور محمد مندور قد أظهر الشك في نسبة هذه الرسالة للصاحب ، وقد ذكرنا ـ فيما سبق من فصول الكتاب ـ دليل شكه ومناقشة هذا الدليل فلا نعيد [1] .

يبدأ الصاحب رسالته بقوله :

« الحمد لله الذي ضرب الأمثال للناس ، لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، وصلى الله على أفصح العرب ، وسرّ عبدالمطلب ، صلى الله عليه وعلى آله أخيار الأمم ، وأنوار الظلم .

كم مثلٍ ضرب فيه الحجة البالغة ، والحكمة الواضحة ، ثم ان الله تعالى قد أحيي بالأمير السيد الشاهنشاه فخر الدولة وملك الامة ـ أطال الله بقاه ، ونصر لواه ـ داثر العلوم والآداب ، وأقام برأيه ورايته أسواقهما وكانت [2] في يد الكساد بل الذهاب ، فهو يقدّم على المعرفة ، ويقرّب على التبصرة ، لا كالملوك الذين يقال لهم :

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

---

(١) تراجع ص ١٨٧ ـ ١٨٨ من هذا الكتاب .

(٢) في الأصل المخطوط : وان كانت .

ومن نعم الله ـ تعالى ـ عليه ؛ أدام الله النعم لديه ، ان الله قرن ألفاظه بفصل المقال ، ووشح كلامه بضرب الأمثال ، وسمعته ـ أعز الله نصره ـ يتمثل كثيراً بفصوص من شعر المتنبي هي لب الاب . . . فأمليت ما صدر عن ديوانه من مثل رائع [1] في فنه ، بارع في معناه ولفظه ، ليكون تذكرة في المجلس العالي »[2] .

ويختم الصاحب رسالته بهذه الأبيات :

إن النفوس عدد الآجالِ

ورب قبيح وحلى ثقالِ أحسن منها الحسن في المعطالِ

فخر الفتى بالنفس والأفعالِ من قبله بالعم والأخوالِ [3]

ومما اختاره في أثنائها من شعر المتنبي هذه الأبيات :

واذا الشيخ قال أف فما مـ ـلّ حياة وإنما الضعف ملاّ

آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولّى

أبداً تسترد ما تهب الدنـ ـيا فيا ليت جودها كان بخلا

وهي معشوقة على الغدر لا تحـ ـفظ عهداً ولا تتمم وصلا

كل دمع يسيل منها عليها وبفك اليدين عنها تُخلّى [4]

(١) في الأصل المخطوط وفي ثقافة الهند : واقع ، وهو تصحيف واضح •

(٢) الأمثال السائرة : ٢ • مخطوط مصور بمكتبة الامام الحسن العامة •

(٣) نفس المصدر : ١٦

(٤) نفس المصدر : ٩

٤ — التذكرة :

ورد ذكرها مكرراً في كتب الباحثين المتأخرين [١] ، ولكني لم أجد لها ذكراً في كتب المتقدمين إلا عند ابن شهراشوب [٢] فقط .

نشرت الرسالة أخيراً ضمن المجموعة الثانية من « نفائس المخطوطات » في عام (١٣٧٣ هـ) في (٩) صفحات ، وكانت النسخة التي طبعت عليها التذكرة منتسخة بدورها عن نسخة قديمة يرجع تاريخها الى عام (٨١٣ هـ) حسبما يذكر ناسخها في آخر الرسالة [٣] ، ولكني لم أعثر – مع الأسف – على نسخة الأصل بالرغم من شدة الفحص عنها ، ويذكر الشيخ الطهراني انه رأى نسخة منها بخط الشيخ شرف الدين المازندراني تاريخ كتابتها سنة (١٠٥٥هـ)[٤] ، ولست أدري أين تحل هذه النسخة الآن ؟.

لم يرد في الكتاب ما يشعر بتاريخ تأليفه ، ولكني أعتقد انه من إنتاج الصاحب الشاب يوم كان مأخوذاً بالاعتزال والدعوة اليه ، منغمساً في ذلك كل الانغماس ، فقد قسم اصول الدين على طريقة المعتزلة ، وبحثها بحثاً اعتزالياً صرفاً ، ولدى مقارنة هذه الرسالة بالابانة التي مرت الاشارة اليها استطيع أن أقول انها متأخرة عن الابانة في تاريخ التأليف لأن رأيها في الامامة متدرج نحو التشيع ومنساق اليه ، وإن تشابهت الرسالتان كثيراً في اسلوب البحث وسرد الأدلة وطريقة التفكير والمناقشة .

---

(١) روضات الجنات : ١٠٦ ، وأعيان الشيعة : ٤٢٩/١١ ، والذريعة : ٢١/٤ ، والغدير : ٤١/٤

(٢) معالم العلماء : ٨

(٣) نفائس المخطوطات : ٨٦/٢

(٤) الذريعة : ٢٢/٤

يبدؤها الصاحب بقوله :

« الأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والصدق في الوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فصلُ المقالة النظر ، لأن بالتدبر والتمييز يعرف الصحيح من السقيم ، قال الله تعالى : ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ فاعتبروا يا اولي الأبصار ﴾ ، والتقليد فاسد ، لأنه يوجب أن يعذر الله جميع المبطلين الذين قلّدوا آباءهم الظالمين »[1] .

ويختم الصاحب كتابه بقوله :

« وخيرة الناس بعده من اختاره لاخوّته عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ، لاجتماع الجهاد والعز والعلم والزهد والسابقة فيه ، وهذه الخصال متفرقة في غيره ، قال عز وجل : ﴿ والسابقون السابقون اولئك المقربون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وفضّل الله المجاهدين على القاعدين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾»[2].

ومن نماذج بحوث الكتاب قول الصاحب في العدل :

« نقول : الخير والشر من عند الله ، ونريد به الحياة والموت ؛ والغنى والفقر ؛ والعافية والسقم ؛ والخصب والجدب ، فأما القبائح والفضائح فلا تكون من أحكم الحكماء .

ونقول : حسناتنا من الله ؛ ليس بمعنى انه قطعها ، ولكن أعان عليها ،

---

(١) نفائس المخطوطات : ٢/٨٧

(٢) نفس المصدر : ٢/٩٥

وهدى اليها ، وأمر بها ، وأراد فعلها ، كما يقول الانسان للعالِم الذي أخذ عنه : جميع ما أُحسنه منك ، كما قال تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

ونقول : سيآتنا من الشيطان ، ليس بمعنى انه فعلها ، ولكن وسوس بها وحسّنها وزيّنها ودعا اليها ، كما قال عز وجل : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان ﴾ »[1] .

---

(١) نفائس المخطوطات : ٢/٩٢

٥ — ديوان شعره :

أشار اليه أكثر المؤرخين من قدماء ومحدثين [١] ، وفي بروكلمان : ان منه نسختين بمكتبة أيا صوفيا بتركيا ونسخة بالهند [٢] ، وذكر السيد محسن الأمين وجرجي زيدان : ان نسخة منه في مكتبة أيا صوفيا [٣] .

ولدى تصوير نسختي أيا صوفيا والاطلاع عليهما ظهر انهما ديوان صاحب آخر ، هو الصاحب بن مكانس ، وان مفهرس المكتبة لم يدقق في قراءة النسختين ، فسجّل نسبتهما الى اسماعيل بن عباد بمجرد رؤيته لاسم الصاحب ، وتبعه في هذه النسبة المستندة الى الخطأ كلٌّ من بروكلمان والأمين وزيدان .

أما نسخة الهند التي أشار اليها بروكلمان فقد وقفت على تصوير لها بمكتبة الامام الحسن العامة في (٣٧) ورقة ، فرأيتها لا تحوي كل شعر الصاحب ، بل اقتصرت على خصوص شعره الديني المذهبي فقط ، وهي منسوخة في شهر جمادى الآخرة سنة (١١٧٢ هـ) بخط عبدالله بن ابراهيم بن اسماعيل بن القاسم ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله اسماعيل بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم ابن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين .

ورأيت في مكتبة العلامة الشيخ محمد علي اليعقوبي في النجف مجموعة جمع فيها المرحوم الشيخ محمد السماوي شعر الصاحب المدوّن في يتيمة الدهر ومناقب آل أبي طالب وبعض الكتب الأدبية المطبوعة ، وكتبها بخطه في (٥١) صفحة ،

---

(١) كمعجم الادباء : ٦/٢٦٠ ، وانباه الرواة : ١/٢٠٣ ، ومعالم العلماء : ٨ ، وبغية الوعاة : ١٩٧ ، وكشف الظنون : ١/٧٩٦ ، وهدية العارفين ١/٢٠٩ ، وتأسيس الشيعة : ١٦١ ، والغدير : ٤/٤١

(٢) تاريخ الادب العربي : ١/١٣٦ .

(٣) أعيان الشيعة : ١١/٤٣١ ، وتاريخ آداب اللغة العربية : ٢/٢٧٥ .

ويقول في التقديم لها :

« أما بعد : فهذه تقاصير من شعر الصاحب اسماعيل بن عباد جمعتها مرتباً على الحروف ، لأن ديوانه لم أجده في العراق وطلبته من الهند فلم يتيسر لي - مع وجوده - ، فأردت جمع ما في اليتيمة والمناقب وغيرهما منه ، فرأيت السيد المحسن العاملي - أدام الله فضله - قد جمع ذلك في أعيان الشيعة فرتّبته وزدته ، وعسى الله أن يمن بباقيه »[1] .

وأظن ان نسخة الهند التي أشار اليها السماوي هي التي اطلعت على مصوّرٍ لها في العراق - كما مر - ، وإذن فهي النسخة الفريدة في العالم حسبما ترشدنا اليه فهارس المخطوطات وبحوث المعنيّين بهذه الشؤون .

يبدأ الديوان بهذه القصيدة :

« قال الصاحب الجليل كافي الكفاة أبو القاسم اسماعيل بن عباد - رحمه الله تعالى - في التوحيد :

لقد رحلت سعدى فهل لك مسعدُ ... وقد أنجدت غلوا فهل لك منجدُ

لقد بتُّ أرجو الطيف منها يزورني ... وكيف يزور الطيف مَن ليس يرقدُ

وقد كان لي من مدمع العين منبعٌ ... فغار بنار الوجد فهي توقَّدُ

رعيتُ بطرفي النجم لمّا رأيتها ... تباعد بُعد النجم بل هي أبعدُ

تنير الثريّا وهي قرط مسلسل ... وإن كرَّ فيها الطرف در مبدّدُ

وتعترض الجوزاء وهي ككاعب ... تميّلُ من سكراتها وتميّدُ

وتحسبها طوراً أسيرَ جنايةٍ ... ترنّح عند المشي وهو مقيّدُ

ولاح سهيل وهو للصبح راقبٌ ... فشوهد منه طرفُ باكٍ مسهّدُ

(١) شعر الصاحب : ٢ . مخطوط بمكتبة اليعقوبى .

أُردد عيني في النجوم كأنها دنانير لكنّ السماء زبرجد »[1]

وجاء في ختام الديوان :

« وقال أيضاً :

قالوا : خراسان أخرجت رشاً ليس له في ملاحها ثاني
فقلت : لا تنكروا محاسنه فمطلع الشمس من خراسان

الى هذا المحل الذي وجدته منقولاً ... وما سواه مما لحق من شعر الصاحب فنقلته من خط بعض الشيعة ... وقال أيضاً :

وشادنٍ [جماله] تقصر عنه صفتي
أهوى لتقبيل يدي فقلت : قبّل شفتي

وقال في وصف الخمر :

رقَّ الزجاج ورقَّت الخمرُ وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمرُ

وقال أيضاً يرثي كثير بن أحمد الوزير :

يقولون لي : أودى كثير بن أحمد وذلك رزءٌ في الأنام جليلُ
فقلت : دعوني والعلا نبكهِ معاً فمثل كثير في الرجال قليلُ

تمام هذا الديوان المبارك كان في ليلة الأحد ليلة رابع عشر من شهر جمادى الآخر من شهور سنة اثنتين وسبعين ومائة بعد الألف من هجرته النبوية صلوات الله عليه وعلى آله .. الخ »[2] .

---

(١) ديوان الصاحب : ٨/أ ٠ مخطوط مصور بمكتبة الامام الحسن العامة

(٢) ديوان الصاحب : ٣٦ ب ـ ٣٧ أ

٦ — رسائل الصاحب :

أسماها بعض المؤرخين : « الكافي في الرسائل »[1] ، وذكر ياقوت في مؤلفات الصاحب : « ديوان رسائله عشرة مجلدات ، وكتاب الكافي رسائل »[2] ، كما ذكر حاجي خليفة : « كافي الرسائل[3] ، ورسائل ابن عباد »[4] ، كما ذكرها أيضاً لفيف آخر بأسماء مختلفة ترجع جميعها الى معنى واحد[5] .

قال حاجي خليفة : ان الرسائل مرتبة على خمسة عشر باباً[6] ، وقال ياقوت : إنها عشرة مجلدات - كما مر - ، وقال أبو حيان التوحيدي : انها ثلاثون مجلدة[7] ، وأظن ان رواية التوحيدي أرجح الروايات ، لأنه اطلع على مكتبة الصاحب وطُلِب منه نسخ هذه المجلدات ؛ فهو أعرف بها وبعدد مجلداتها من غيره ، كما أظن أن سائر ما ينسب لابن عباد من « منتخبات

---

(١) الفهرست : ١٩٤ ، ووفيات الاعيان : ٢٠٨/١ ، وتاريخ ابى الفداء : ١٣٠/٢ ، وشذرات الذهب : ١١٤/٣ .

(٢) معجم الادباء : ٢٦٠/٦ .

(٣) كشف الظنون : ١٣٧٦/٢

(٤) نفس المصدر : ٩٠١/١

(٥) انباه الرواة : ٢٠٣/١ ، وتاريخ ابن خلدون : ٤٦٦/٤ ، ونزهة الالباء : ٣٩٩ ، ومعاهد التنصيص : ١٥٧/٢ ، وبغية الوعاة : ١٩٧ ، وتأسيس الشيعة : ١٦١ ، وأعيان الشيعة : ٤٢٩/١١ ، والغدير : ٤١/٤ .

(٦) كشف الظنون : ٩٠١/١

(٧) معجم الادباء : ٣٤/١٥

خطية »[1] و « فصول أدبية ومراسلات عبادية »[2] مقتبس كله من مجموع رسائله الذي ذكره أبو حيان التوحيدي .

والمؤسف أن تكون عهود نكبات العلم والثقافة في سالف الأيام قد أتلفت - فيما أتلفت - هذه المجلدات الثلاثين من رسائل ابن عباد ، وتحتفظ اليوم مكتبة باريس الوطنية بمجلد واحد من هذه المجلدات كتب عام (٥٧٧ هـ)، وهو يحتوي على منتخبات من رسائل الصاحب أسماها بروكلمان : « المختار من رسائل الصاحب »[3] ، وقد طبعت هذه المنتخبات بمصر عام (١٣٦٦ هـ) في (٢٤٥) صفحة ، بتحقيق الاستاذين عبدالوهاب عزام وشوقي ضيف .

جاء في أول الكتاب :

« ذكرتَ - أطال الله بقاءك - شديد حرصك على تحفّظ بعض رسائل الصاحب كافي الكفاة رضي الله عنه ، واحتياجك على من تستعين به على جمع ذلك مبوّباً ، مختاراً الأشف فالأشف منه . فوعدتك القيام لك به ، وجرّدت له عنايتي ، وخرّجت من كل باب من أبواب ديوان رسائله العشرين عَشر رسالات ليخفّ حجم هذا المجموع ولا يعتاص تحفّظه . وقد رجوتُ أن يقع ذلك منك موضع الوفاق ، والله ولي التوفيق والارشاد »[4] .

وفيما يلي فهرس أبواب الكتاب :

الباب الأول — في البشائر والفتوح .

الباب الثاني — في العهود .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : ٢/٢٧٥ .

(٢) مقدمة الهداية والضلالة : ٢٢

(٣) تاريخ الادب العربى : ١/١٣٦

(٤) رسائل الصاحب : ١

الباب الثالث — في الأمان والأيمان والموافقات والمناشير ومراعاة الكبيسة من السنين وما يجري مجراه .

الباب الرابع — في أمر الحجيج والمصالح والثغور .

الباب الخامس — في الاستعطاف وما يجانسه .

الباب السادس — في إصلاح ذات البين والدعاء الى الطاعة وتهجين العقوق بين ذوي الأرحام وما يشاكل ذلك .

الباب السابع — في المدح والتعظيم .

الباب الثامن — في الذم والتهجين وما يجري مجراه .

الباب التاسع — في التهاني .

الباب العاشر — في التعازي .

الباب الحادي عشر — في الإخوانيات والمداعبات .

الباب الثاني عشر — في التشكر .

الباب الثالث عشر — في الاستزادة والتقريع .

الباب الرابع عشر — في التنصل والاسترضاء .

الباب الخامس عشر — في الشفاعات .

الباب السادس عشر — في توصية العمال بتجنّب المال وإظهار العفاف وحسن السياسة .

الباب السابع عشر — في الأدب والمواعظ .

الباب الثامن عشر — في فصول وغُرَر وتوقيعات ودُرَر .

الباب التاسع عشر — في النوادر وهي الكتب النادرة .

الباب العشرون — في الشوارد وهي الكتب المختلفة المعاني .

وجاء في ختام الكتاب ما نصه :

« وله :

كتابي ومولانا محبوٌّ من النعم بما يتجلى صنع الله فيه باهراً للعيون ، محققاً للظنون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وتأخرت كتبي عن مولاي لكرور علــــل عليَّ صارت حِلْفا لازماً ، وطبعاً ثانياً ، حتى عادت الصحة كطارقٍ مستغرَب ، وطارىءٍ مستبدَع ، وعولت في المهمات أجمع على ما ينهيه أبو فلان ، فقد عرف في كل باب ما عرفته وعلم منه ما علمته ، وقد نهض منذ أيام ، والله ييسِّر المنائح . . .

وكان مولاي - أدام الله عزه - بشَّر بما تيسر في كذا ، فابتسمت ثغور الأمل ، وآذنت بنهاية المراد في أقرب أمد ، لا زالت عزائم مولانا غنائم لأوليائه ، وصوارم على أعدائه . وكتاب البشرى بغية الطرف ليجلوه ، والروح ليغذوه .

آخر الباب العشرين ، وبه تمام هذا المجموع من الديوان ، والحمد لله حق حمده ، والصلاة على النبي محمد وآله »[1] .

---

(١) رسائل الصاحب : ٢٤٤ - ٢٤٥

٧ — رسالة في أحوال عبد العظيم :

نشرتُ هذه الرسالة في المجموعة الرابعة من نفائس المخطوطات عام ١٣٧٤هـ في (٤) صفحات ، وقلتُ في أثناء التقديم لها :

« المؤسف جداً اننا لم نشاهد ذكراً لاسم هذه الرسالة في كتب التاريخ والتراجم القديمة كمعجم الادباء ويتيمة الدهر ووفيات الأعيان وأمثالها [١] ، ولـكن لدينا من القرائن ما يبعث على الاطمئنان بصحه نسبتها ، كتقدم تاريخ كتابة النسخة الأمّ ، وكاشتمال هذه الرسالة على الاهتمام بالعدل والتوحيد ؛ وذِكر ما روي عن عبد العظيم فيهما ؛ ومدح المترجم له بكونه ممن يقول بهما ، وهذا مشابه لنمط اسلوب الصاحب واهتمامه بهذين الأصلين من اصول الدين في سائر كتبه الكلامية .

والنسخة التي طبعت عليها الرسالة مخطوطة عام (١٣٢٤ هـ) في النجف الأشرف ، وهي منتسخة ـ بدورها ـ عن نسخة المحدث المغفور له الميرزا حسين النوري . . . المخطوطة عام (٥١٦ هـ) بخط بعض بني بابويه » [٢] .

بدأ الصاحب هذه الرسالة بقوله :

« سألتَ عن نسب عبد العظيم الحسني المدفون بالشجرة ؛ صاحب المشهد ـ قدّس الله روحه ـ وحالِه واعتقاده ، وقدرِ علمه وزهده ، وأنا ذاكر ذلك على اختصارٍ ، وبالله التوفيق .

هو أبو القاسم عبد العظيم بن عبدالله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن

---

(١) ورد ذكر هذه الرسالة فى بعض الكتب المتأخرة كروضات الجنات : ١٠٧ ، وأعيان الشيعة : ١١/ ٤٣٠ ، والغدير : ٤/ ٤٢

(٢) نفائس المخطوطات : ٤/ ١٧

ابن علي بن أبي طالب عليه وعلى آبائه السلام . ذو ورعٍ ودين ، عابد معروف بالأمانة وصدق اللهجة ، عالم بامور الدين ، قائل بالتوحيد والعدل .. الخ »[1] .

وجاء في ختام الرسالة :

« روى عبيد الله بن موسى ، عن عبد العظيم ، عن ابراهيم بن أبي محمود قال : قال الرضا عليه السلام : ثمانية أشياء لا تكون إلا بقضاء الله وقدره : النوم واليقظة ، والقوة والضعف ، والصحة والمرض ، والموت والحياة .

ثبّتنا الله بالقول الثابت من موالاة محمد وآله ، وصلى الله على سيدنا رسوله محمد وآله أجمعين »[2] .

---

(1) نفائس المخطوطات : ٤/١٩

(2) نفس المصدر : ٤/٢٢

٨ – رسالة في الطب :

لم أجد بين المؤرخين القدامى من ذكر هذه الرسالة غير الثعالبي صاحب اليتيمة ، فقد أشار اليها ، وأسماها بهذا الاسم ، ونقلها نصاً في كتابه [١] ، وروى عن بعض معاصريه كثيراً من المدح والثناء عليها ، ولم أكن لافردها وأخصها بالذكر لولا اهتمام الثعالبي بها ، وإكباره لما تضم من فوائد وتحوي من نكاتٍ ودقائق .

ووردت هذه الرسالة في كتاب « رسائل ابن عباد » على شكل رسالةٍ مرسلة منه الى صديقه أبي العبّاس الضبيّ بمناسبة مرض ألّم به ، فاحتلت من الكتاب ما يزيد بقليلٍ على صفحتين .

بدأها الصاحب بقوله :

« وصل كتاب مولاي فلصق بيدي ، ونَدِي على كبدي ، ولم أدر بماذا أنعته وقد ملأ قلبي وملأ صدري ، وكيف أصفه وقد أمتع نفسي ورفع طرفي ، وهل أقول نسيم الرياض تدرّجت الشمال على أنوارها ، وأغريت الصبا بإخراج أسرارها ، أم أقول الحياة عادت في الجسد ، والروح سرى في البدن ، فله على كل مستحسنٍ أنيق فضل ، وعند كل حضارٍ سبق وخَصل » [٢] .

ويقول في آخرها :

« أغنى الله مولاي عن الطب والأطباء بالسلامة والشفاء ، وقد كتبت في كذا ما يغني اهتمام سيدي به عن ترديد ذكره :

وإذا رميتَ الى ابن عزمٍ حاجةً فاعلم بأن جناحها يَستَيسِرُ » [٣] .

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٨٠–١٨٢

(٢) رسائل الصاحب : ٢٢٨ – ٢٢٩.

(٣) نفس المصدر : ٢٣٠

لم يذكرها أحد من المؤرخين ، ولكنها ليست بحاجة الى تأييد تاريخي في صحة انتسابها لمؤلفها ، لأن نسختها الخطية منسوخة في حياة الصاحب عام (٣٦٤ هـ) ومزدانة بخطه ، وقد كتب الصاحب عليها ما نصه :

« بسمه تعالى . أنهاه أدام الله فضله ، وكتب اسماعيل بن عباد . شهر رجب الفرد سنة ست وستين وثلاثمائة . الحمد لله وحده »[(١)] .

والنسخة محفوظة في خزانة كتب الوجيه مجيد موقّر في طهران ، وقد نشرت في عام ١٣٧٤ هـ في (٢٠) صفحة ، فكانت الكتاب الأول من منشورات « أنجمن فرهنگي مهر » .

ومن الاطلاع على تاريخ نسخها عام (٣٦٤ هـ) وتاريخ تعليق الصاحب عليها عام (٣٦٦ هـ) نستطيع أن نقول إنها من مؤلفاته في أواخر شبابه ، ومنهجها في البحث والتفكير شبيه جداً بمنهج الصاحب في الابانة والتذكرة وغيرها من مؤلفاته الكلامية .

يبدأ الصاحب كتابه بقوله :

« الحمد لله الواحد العدل فلا يجور فيما أنشأ وابتدع ؛ الرحيم فلا ظلم فيما ابتدأ واخترع ؛ الحكيم الذي لا باطل فيما قدّم وأخّر ؛ العليم فلا سفهَ فيما قضى وقدّر ، المنزّه عن إضلال العباد عن الدين ؛ وإغوائهم عن الحق المبين ، الذي لا يدّخر عن عباده إحساناً ، ولا يختزل دونهم إرشاداً وبياناً ، المتعالي عن فعل القبائح وإرادة الفواحش والفضائح ، وصلى الله على نبيه المبعوث

(١) رسالة في الهداية والضلالة : ٥٢ .

لهداية الكافّة ، المرسل بالرحمة والرأفة ، وعلى أهل بيته نجوم الاسلام وشموس الايمان ، وسلّم تسليما .

أمّا على اثر ذلك ـ أدام الله توفيقك لما يرضيه ، ونزّهك عمّا يعتقد أبناء الإلحاد فيه ـ سألت أن أذكر لك جملة من الكلام في الهداية والضلال ، يزداد بها نفاذ بصيرتك ونقاء سريرتك ؛ في وصف الله ـ عزّ اسمه ـ بالعدل ؛ وتنزيهه عما يحيله القدريّة من صريح الجور والظلم ، فقد تقدم من كلام سلفنا في هذا الباب ما يغني . . . ونبتدئ القول فحذوه » [1] .

ويقول في ختام الرسالة :

« جعلنا الله ممن أقرّ بذنبه ، ولا يحيل به على ربّه ، وتوفّانا على القول بتوحيده ، والاقرار بعدله ، وموالاة نبيه محمد خير خلقه والنجوم الزاهرة من أهل بيته ، صلى الله عليه وعليهم وسلّم تسليما » [2] .

ومن نماذج مباحث الكتاب قوله :

« فأما الختم والطبع والأغلال التي أخبر أنّها في الأعناق فعلى طريق التمثيل ، كأنهم لما لم يستفهموا هذه الآيات شُبّهوا بمن ختم على حواسه وحيل بينه وبين رشاده . ألا ترى انه قال : ﴿ صمٌّ بكم عمي ﴾ ، وليسوا في الحقيقة كذلك ، لكنهم كانوا بهـذه المثابة لما لم يعملوا هذه الأدوات في هذه الآيات .

والذي يدلّ أنّ ذكر الأغلال والأقياد مجاز قولُ الأفوه الأودي :

كيف الرشاد وقد صرنا الى نفرٍ لهم عن الحق أغلال وأقيادُ

(١) رسالة فى الهداية والضلالة : ٣٤ .

(٢) نفس المصدر : ٥١

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها ﴾ ، فلو أن على قلوبهم الأقفال - على الحقيقة - لكان في أعناقهم الأغلال على الحقيقة .

وقد أخبر الله تعالى بما هو أكثر من هذا في التمثيل فقال : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء ﴾ وهم لم يكونوا أمواتاً ، ولكن في حكمها »[1] .

(١) الهداية والضلالة : ٤٦ .

١٠ – عنوان المعارف :

ذكره ياقوت الحموي في معجمه باسم : « عنوان المعارف في التاريخ » [١] ؛ فكان هو المؤرخ الوحيد الذي سجّل اسم الكتاب في قائمة مؤلفات ابن عباد ، ثم كان المرحوم السيد محسن الأمين أول من كشف عنه النقاب ، إذ عثر على نسخة خطية منه كتبت في شهر رجب سنة (٤٢٠ هـ) أي بعد وفاة الصاحب بخمس وثلاثين سنة [٢] ، فكانت هذه النسخة بقدم تاريخها وقرب عهدها من حياة مصنفها مصدراً كافياً لاثبات انتسابها للصاحب ، كما كانت – في الوقت نفسه – أمّا لسائر النسخ الخطية الموجودة اليوم .

طبع الكتاب ضمن المجموعة الاولى من نفائس المخطوطات في النجف الأشرف سنة (١٣٧٢ هـ) في (٢٩) صفحة ، ويدور بحثه الموجز على تاريخ النبي (ص) ومَنْ خوطب بعده بالخلافة حتى المطيع العباسي ، كما ذكر في آخر عرضه للامويين تاريخ من بويع له بالخلافة في عهد بني امية كالحسين ابن علي ، وابن الزبير ، ومحمد بن الحنفية وغيرهم .

ويظهر من مقدمة الكتاب ان الصاحب قد ألّفه بطلبٍ من بعض أصدقائه من دون أن يذكر اسمه أو أية اشارة اليه ، فلم استطع معرفته كما لم استطع معرفة تاريخ تأليفه ؛ لعدم وجود أي قرينة تدل على ذلك .

افتتح الصاحب مؤلّفه بقوله :

« قد أسعفتك بالمجموع الذي التمسته ؛ في نسب النبي صلى الله عليه وعلى آله ؛ وبنيه وبناته ، وأعمامه وعمّاته ، وجمل من غزواته ، وسائر

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ .
(٢) أعيان الشيعة : ١١/٤٣٠

ما يتصل بذلك من ذكر مولده ومدفنه وهجرته ، وتسمية أفراسه ونوقه وسيفه ودرعه ، وأتبعت ذلك بذكر من خوطب بالخلافة على النسق ، غير مرتّب للمفضول والفاضل والجائر والعادل ، إذ لو ابتدأت بأتم الخلفاء فضلاً، وأعدلهم عدلاً ، لافتتحت بسيد المهاجرين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين ، وذكرت عند انتهائي الى كل منهم اسمَ امه ، ونبذاً من حاله ، وأسماء خلفائه وكتّابه وحجّابه ، ونقش خاتمه ، بعد أن آثرتُ الاختصار الذي طلبتَه ، والايجاز الذي حاولتَه ، ووسمت هـــذا المختصر بـ ـ عنوان المعارف وذكر الخلائف ـ ، فاذا أنت حفظته أتاك ما بعده بشرحٍ وايضاح ، وتلخيص وإفصاح ، إن شاء الله » [1] .

وجاء في ختام الكتاب :

« المطيع بن المقتدر : أبو القاسم الفضل ، امه شعلة ، بويع له يوم الخميس لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة » [2] .

ومن مباحث الـكتاب قوله فيمن بويع بالخلافة في مدة بني امية :

« أبو عبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهو إمام الحق بايع له أهل الكوفة على رأس تسع وخمسين سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام من الهجرة ، وأخرج له يزيد من حاربه وقتله بالطف يوم عاشوراء سنة احدى وستين من الهجرة ، وكانت له سبع وخمسون سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، وكان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . تولّى قتله وحزَّ رأسه سنان بن أنس لعنه الله .

---

(١) عنوان المعارف ـ نفائس المخطوطات : ١/٥ .
(٢) نفس المصدر : ١/٣٣ .

عبدالله بن الزبير : أبو بكر . امه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وهو أول مولود ولد في الهجرة . هاجت فتنته بعد قتل الحسين عليه السلام ، وحج بالناس سنة ستين ولم يُبايَع له ، ثم حج بهم سنة احدى وستين ، وبعث اليه يزيد بالجنود وحاربه ، وكان يوم الحرة ، وبايع الناس ابن الزبير سنة خمس وستين بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية ، وقتل ابن الزبير يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين .

أبو القاسم محمد بن أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو محمد بن الحنفية . خلع المختارُ بن أبي عبيدة ابنَ الزبير وبايع لمحمد عليه السلام ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذن لعلي بن أبي طالب عليه السلام إن وُلِد له ولد بعده أن يكنيه بكنيته ويسميه باسمه ، ودفن بالبقيع سنة احدى وثمانين من الهجرة في ربيع الأول ، وهو ابن خمس وستين سنة لم يُحسَب كلها »[1] .

---

(١) عنوان المعارف ــ نفائس المخطوطات : ١/٢٠ ــ ٢١ .

١١ — الفرق بين الضاد والظاء :

لم أجد من المؤرخين في القديم والحديث مَنْ ذكر هذه الرسالة ، ولكنني عثرت في مكتبة الامام الحسن العامة على صورة لها عن النسخة الأصلية المحفوظة في مكتبة الفاتح بتركيا ، وقد جاء في آخرها ما نصه : « تم الكتاب ، وفرغ من مشقه يوم الأربعاء ثاني عشر رجب سنة عشرين وخمسمائة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليما »[١] .

وتقع الرسالة بمجموعها في (١٣) ورقة ، ويدور موضوعها على تسجيل الفروق اللغوية بين حرفي الضاد والظاء ، حيث رأى مؤلفها خلط الكتّاب بين هذين الحرفين والتباس أمرها عليهم ، فدعته غيرته على اللغة الى تأليف هذه الرسالة ، لتكون سبباً في إصلاح هذه الأخطاء ورفع الايهام والالتباس عن موارد استعمال هذين الحرفين .

يبدأ الصاحب رسالته بقوله :

« كتاب الفرق ما بين الضاد والظاء المعجمتين ، وتمييز بعضها من بعض ، ومعرفة تأليف أبنيتهما ، إذ كانا حرفين قد اعتاص معرفتهما على عامة الكتّاب ، لتقارب أجناسهما في المسامع ، وإشكال أصل تأسيس كل واحد منهما ، والتباس حقيقة كتابتهما ، لأن في ترك النظر في ذلك إفساداً للغة ، وتغييراً لأحكام العربية ، وهجنة على من لم يحطْ به معرفة ، ومخالفة لحقائق الهجاء ، وبياناً في تفسير المعاني ، ألا ترى انك اذا قلت : قرّظت الرجل وقرّضته ... فالتقريظ مدحك إيّاه ، والتقريض ذم واعتياب ، وقولك : عظل الرجل اخته اذا

(١) الفرق بين الضاد والظاء : ١٣/أ .

منعها أن تتزوّج ، وعضلها اذا عهد اليها ، وأنا أبيّن كل ظاء انتقلت من كلام العرب ، وما ورد من نظائره من الضاد ، وبالله التوفيق »[1] .

وجاء في آخر الرسالة :

« الجلفاظ : الذي يقير السفن ، ويقال : اجلنظز الرجل اذا وقع على ظهره ورفع رجليه »[2] .

ومن أمثلة البحث اللغوي في هذه الرسالة ما يلي :

« الظرب : حجر نابت الأصل في أرضٍ أو جبلٍ ، نابئ الطرف محدّد ، وجمعه ظراب ، قال الشاعر :

إن جنبي على الفراش لنابٍ[3] كتجافي الأسرّ فوق الظرابِ

الأسرّ : بعير في سُرّته داء ، وعامر بن ظرب : من فرسان الجاهلية ، والظرابي والظربى جمع الظربان وهو : دابة لا يطاق فسوُه ، وقال :

وهل أنتم إلا ظرابيُّ فضة تفاسى وتستنشي بآنفها الطخمِ »[4]

---

(1) الفرق بين الضاد والظاء : ١/ب .

(2) نفس المصدر : ١٣/أ .

(3) في المخطوط : لنات ، والتصحيح من لسان العرب : ١/٥٦٩ .

(4) الفرق بين الضاد والظاء : ٧/ب .

١٢ — الكشف عن مساوئ شعر المتنبي :

هكذا ورد اسم الرسالة في بعض المصادر التاريخية [١] ، وسميت في مصادر اخرى باسم : « الكشف عن مساوي المتنبي » [٢] كما سميت في بعض الكتب : « إظهار مساوئ المتنبي » [٣] ، وفي بعض آخر : « الأخذ على أبي الطيب المتنبي » [٤] .

روى بعض نصوصها لفيف من الادباء في مؤلفاتهم [٥] ، وإن لم يصرح بعضهم باسم الصاحب حين النقل [٦] ، وتعد هذه الرسالة ـ بحق ـ من أهم مصادر تاريخ النقد الأدبي في القرن الرابع ـ على ما مرَّ تفصيله ـ [٧] .

طبعت الرسالة بمصر سنة (١٣٤٩ هـ) في (٢٤) صفحة ، وكانت النسخة المطبوعة بتصحيفها وأخطائها وتحريفها مشوّهة سقيمة الى حدٍ بعيد . ووقفتُ في مكتبة الامام الحسن العامة على نسخة مصوّرة منها عن أصلها المخطوط المحفوظ في مكتبة دير الاسكوريال باسبانيا ، وهي حديثة الكتابة مغربية الخط أسماها ناسخها : « رسالة الصاحب كافي الكفاة في كشف عيوب المتنبي » ، وتقع في (٢١) ورقة .

---

(١) الفهرست : ١٩٤ ، ووفيات الاعيان : ١/٢٠٨ ، وروضات الجنات : ١٠٦ ، وتاريخ الادب العربى : ١/١٣٦ ٠

(٢) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ ، وبغية الوعاة : ١٩٧ ، وكشف الظنون : ٢/١٤٩١ ، وتأسيس الشيعة : ١٦١ ٠

(٣) معجم الادباء : ١٤/٢٤ ، ويتيمة الدهر : ٤/٤ ٠

(٤) نزهة الالباء : ٣٩٩ ٠

(٥) يتيمة الدهر : ١/١٢٣ـ١٤٥ ، ونهاية الارب : ٥/٢٢١ ٠

(٦) الوساطة بين المتنبى وخصومه : ٣٥٢ و٣٥٤ ٠

(٧) تراجع ص ١٨٠ـ١٨٢ من هذا الكتاب ٠

يظهر من مقدمة الرسالة انها كتبت لشخص معيّن لم يرد ذكره فيها ولم يشر ناشرها اليه ، ولكن ناسخ النسخة الخطية يقول في صدرها : انها الّفت لأبي الحسين حمزة بن محمد الاصبهاني .

أما تاريخ تأليفها فلم يرد نص فيه ، ولكنه كان قبل عام (٣٦٠ هـ) الذي توفي فيه ابن العميد ، لأن الصاحب يذكر استاذه ابن العميد فيها فيقول في الدعاء له : « أدام الله أيامه ، وحصّن لديه إنعامه »[(١)] ، واذا علمنا تاريخ قصد المتنبي لابن العميد في أرجان ومدحه له سنة ٣٥٤ ، وعلمنا طلب الصاحب من المتنبي أن يزوره في اصفهان ويمدحه ورفض المتنبي لذلك وثورة الصاحب على هذا الرفض نفهم ان الرسالة قد كتبت في الفترة الواقعة بين عامي ٣٥٤ ـ ٣٦٠ .

يبدأ الصاحب الرسالة بقوله :

« أما بعد أطال الله مدتك ، وأدام في العلوم رغبتك ، فالهوى مركب يهوي بصاحبه ، وظهر يغير براكبه ، وليس من الحزم أن يزري العالم على نفسه بالعصبية ، ويضع من علمه بالحمية ، فالناس مع اختلافهم وتباين أصنافهم ، متفقون على أنّ تغايب الأهواء يطمس أعين الآراء ، وان الميل عن الحق يبهم سبل الصدق ، وكنت ذاكرت بعض من يتوسم الأدب في الأشعار وقائليها والمجودين فيها ، فسألني عن المتنبي فقلت : انه بعيد المرمى في شعره ، كثير الاصابة في نظمه ، إلا أنه ربما يأتي بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء ، فرأيته قد هاج وانزعج ... ولم يرض حتى تحداني فقال : إن كان الأمر كما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره ، وقيّد بالخط ما تذكره . . . ففعلت وإن لم يكن تطلّب العثرات من شيمتي »[(٢)] .

---

(١) الكشف : ٤ .

(٢) نفس المصدر : ٣ .

ويقول في آخرها :

« وكانت الشعراء تصف المآزر تنزيهاً لألفاظها عما يُستبشع ذكره حتى تخطّى هذا الشاعر المطبوع الى التصريح الذي لم يهتد له غيره فقال :

اني على شغفي بما في خمرها لأعفُّ عما في سراويلاتها

وكثير من العهر أحسن من عفافه هذا .

هذه ـ أيدك الله ـ مقدمة علقتها ليستدل بها على ما بعدها ، ولو أتيت بنظائرها مما أخرجت من شعره لأضجرت القارئ وأملات السامع ، وإن دام هؤلاء الأغمار على النفار لم يعدموا الزيارة ولم يفقدوا الزيادة .

فمن شاء فليعذر ومن شاء فليلُمْ فـللصدق أولى من وفاق البهائمِ »[1].

ومن نماذج بحوث الرسالة هذا المثال :

« ومن بدائعه الظريفة عند متعاقي حبله ، وفواتحه البديعة عند ساكني ظله :

شديد البعد من شرب الشمولِ ترنج الهنـــد أو طلع النخيلِ

فلا أدري استهلال الأبيات أحسن ، أم المعنى أبدع ، أم قـــوله : « ترنج » أفصح .

ومن لغاته الشاذة وكلماته النادة :

كل آخائه كرام بني الدنـ يا ولـكنه كريم الكرامِ

ولو وقع الآخاء في زائية الشماخ لاستثقل ، فكيف مع أبيات منها :

قد سمعنا ما قلت في الأحلامِ وأنلناك بدرة في المنـــامِ

والـكلام اذا لم يتناسب زيّفه جهابذته ، وبهرجه نقاده »[2] .

---

(١) الكشف : ٢٦ ، والبيت الاخير لم يرد فى النسخة المطبوعة ، وانما أضفناه من المخطوط .

(٢) نفس المصدر : ١٦-١٧ .

١٣ ـ المحيط :

ذكره أكثر علماء اللغة ورجال التاريخ في موسوعاتهم ومؤلفاتهم ، ولكنهم اختلفوا في عدد أجزائه فعينها بعضهم سبعاً [١] ، وأوصلها آخرون الى عشر [٢] ، ويروي الوزير القفطي عن ياقوت الرومي الناسخ انه نسخ منه نسخة بالاجرة في سبعة مجلدات [٣] .

ومهما كان من أمر المجلدات وعددها فانه خلاف في القشر ولا علاقة له بصميم مباحث الكتاب بعدما عثرنا على نسخة كاملة منه في بعض المكتبات العراقية تضم سائر الحروف الهجائية من دون أي نقص أو خرم أو فقد شيء منه .

وقفت على قطعة مصورة من هذا الكتاب بمكتبة الامام الحسن العامة ، كتبت في القرن السابع بخط جميل جيد مشكول في (٢٧٥) ورقة ، تبدأ بباب المضاعف من حرف الخاء ـ الخاء والقاف ـ وتنتهي بآخر حرف القاف ، وتحتفظ مكتبة أحمد الثالث بتركيا بالنسخة الأصلية من هذه القطعة .

كما وقفت في مكتبة المتحف العراقي ببغداد على نسخة كاملة من هذا الكتاب كتبها المرحوم الشيخ محمد السماوي سنة (١٣٥٤ هـ) عن نسخة كتبت للسيد علي بن السيد أحمد نظام الدين المدني المعروف بابن معصوم سنة (١١١٧هـ) ،

---

(١) وفيات الاعيان : ١/٢٠٨ ، ومعاهد التنصيص : ٢/١٥٧ ، والبداية والنهاية : ١١/٣١٦ ، وشذرات الذهب : ٣/١١٤ ، وكشف الظنون : ٢/١٦٢١ .

(٢) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ ، وبغية الوعاة : ١٩٧ ، وتاريخ آداب اللغة العربية : ٢/٣٠٨ ، وتأسيس الشيعة : ١٦١ .

(٣) انباه الرواة : ١/٢٠١ .

وتتألف نسخة السماوي من مجلدين : أولهما في (٤٤٤) صفحة وثانيهما في (٤١٥) صفحة .

وتحتوي دار الكتب المصرية على قطعة من الكتاب كتبت في القرن السابع في (٢٧٤) ورقة ، تبدأ بباب الفيف من حرف الفاء وتنتهي الى باب الخامي من السين ، ولكن لم يتسن لي الوقوف عليها ، كما لم يتسن لي الوقوف على نسخة كربلاء التي سمعت انها في ملك أحـــد السادات هناك ، ولكنه لا يسمح بالاطلاع عليها .

يبدأ الجزء الأول من نسخة السماوي بما نصه :

« كلام العرب مبنيٌّ على أربعة أنحاء : الثلاثي والثنائي والرباعي والخامي ، لا يُجاوَز بناء الكلمة والحروف ا [لأ] صلية ذلك الا أن تلحقها الزوائد ، فقد تبلغ بها حينئذٍ سبعة نحو القَرَعْبلانة وهي دويبة »[1] .

وجاء في آخر الجزء الأول :

« القفندر من الرجال : القصير الحاذر ، والضخم من الابل ، والأبيض من كل شيء . القفنديل : الضخم من الابل . ادلنفق الرجل : أسرع وتقدَّم ، وخرق مدلنفق : بعيد ممتد . القفرنبة : القصيرة القمئة : ويقال : قفرنية بالياء »[2] .

وورد في أول المجلد الثاني :

« باب الكاف — باب الثنائي المضاعف — باب الكاف والشين :

كشّ : كشّ البكر يكش كشيشاً : وهو صوت من الكشيب والهدير ،

---

(١) المحيط : ٢/١ . مخطوط بمكتبة المتحف العراقي .

(٢) نفس المصدر : ٤٤٣/١ .

والـكشكشة : لغة تعرف لربيعة يقولونها عند كاف التأنيث نحو : عليـكش وبـيكش ، وبحر لا يكشكش : أي لا ينزح .

شكّ : الشك : نقيض اليقين . شكّكني أمرك وأمرك يشك عليّ ، والشكة : ما يلبسه الرجل من السلاح ، والشك : ظلع خفيّ ؛ بعير شاك وقد شك واشتك اشتكاكاً ، والشكايك : الفرق من الناس ؛ الواحدة شكيكة ، والشكاكة من الأرض : ناحية منها ، والشكوك : الجوانب ، وشككت الى فلان وشككته : أي ركنت اليه ، وشككت اليه البلاد : قطعتها ، وانه لبعيد الشكة : أي الشقة ، وشك عليّ الأمر ، وشق بمعنىً ، ولجام شكي : أي عسر ، والشكيكة : السلة التي تكون فيها الفاكهة »[1] .

وجاء في آخر الجزء الثاني وهو ختام الكتاب :

« اليؤيؤ : طائر يشبه الباشق ؛ والجمع اليئآياء واليئآئي ، واذا قيل : هل يزوركم فلان قالوا : نعم يا أي نعم يزورنا ، ويقولون يا اذهب : أي يا هذا ، وقرئ قوله عز وجل : ﴿ ألا يسجدوا ﴾ أي ألا يا هؤلاء اسجدوا ، والياء : الحرف ، وقصيدة ياويّة : اذا كانت مبنية على الياء ؛ ويائيـــة ؛ كذلك ؛ وقيل ميويّة ، وييّيت ياءاً حسنة أي كتبت ياءاً حسنة »[2] .

أما تسلسل الحروف الهجائية فلم يستعمل فيه طريقة الألفباء ولا الأبجدية المعروفة ، بل اتبع فيه الناحية الصوتية فقسّم الحروف الى مجموعاتٍ متعددة تختلف باختلاف أصواتها حسب الجدول التالي :

حلقيّة — ع ، ح ، هـ ، خ ، غ

---

(۱) المحيط : ٢/٢ .

(٢) نفس المصدر : ٤١٥/٢ .

لهويَّه — ق ، ك

شجريه — ج ، ش ، ض

أسليَّه — ص ، س ، ز

نطعيَّه — ط ، د ، ت

لثويَّه — ظ ، ذ ، ث

ذلقيَّه — ر ، ل ، ن

شفويه — ف ، ب ، م

هوائيه — و ، أ ، ي »[1]

---

(١) المحيط : ١/٢ .

١٤ — المنظومة الفريدة :

أسماها مفهرس مخطوطات دار الكتب المصرية بهذا الأسم ، ولعله استقاه مما جاء في آخر المنظومة إذ يقول الناسخ : « تمت وبالخير عمت الفريدة المشتملة على أفضل كل عقيدة » .

والمنظومة ـ المشار اليها ـ قصيدة واحدة من قصائد ابن عباد التي وردت في ديوانه المخطوط وفي عدة كتب اخرى ، وقد شاء أحد الناسخين أن يفردها في النسخ في (٣) صفحات إعجاباً بها واستئناساً بمضامينها ، فكان لها بعد ذلك اسمها المعين وذكرها الخاص في فهرس دار الكتب .

عدد أبيات القصيدة (٦٤) بيتاً ، وتاريخ النسخ سنة (١٠٨٧ هـ) ، وهي كثيرة الأخطاء والتصحيف والتحريف مما يدل على أن كاتبها لا يحسن العربية ولا يفهمها كما يجب .

جاء في أولها :

قالت : أباالقاسم استخففتَ بالغزلِ (١) فقلت : ما ذاك من همي ولا أملي
قالت : أريد اعتذاراً منك تظهره فقلت : عذراً ولا أخشى من العذلِ
قالت : ألحُّ على تكرير مسألتي فقلت : ما أنا عن رأيي بذي حوَلِ (٢)

الى أن يقول :

قالت : فمن صاحب الدين الحنيف أجبْ فقلت : أحمد خير السادة الرسلِ (٣)
قالت : فهل معجز وافى النبي بــه قلت : القران وقد أغنى عن الاولِ

(١) فى المخطوط : الحففت ، والتصحيح من الديوان المخطوط .
(٢) المنظومة الفريدة : ص ١ . مخطوط مصور بمكتبة الامام الحسن العامة .
(٣) فى المخطوط : الاول ، والتصحيح من الديوان .

قالت : فمن بعده كان الولاء له   قلت : الوصي الذي أربى على زحلِ [1]

ويقول في ختامها :

قالت : أتيتَ ابن عباد بمعجزة   فقلت : لا تعجبي فالشعر من خولي

قالت : فهل منشد ترضى لينشدها   فقلت : كل كريم النجر ينشد لي [2]

وقد شرح القاضي جعفر بن أحمد بن يحيي البهلولي هذه القصيدة شرحاً جميلاً مفصلاً وقفت منه على نسختين :

(الاولى) مصوَّر النسخة المحفوظة في الخزانة التيمورية بمصر ، وهي في (١٤) ورقة بخط يمني حديث ، وليس في آخرها ذكر للناسخ أو لسنة النسخ .

(الثانية) مصوَّر النسخة المحفوظة في المكتبة الامبروزيانية في ايطاليا ، وهي في (٢١) ورقة بخط يمني واضح ، وليس فيها ذكر للناسخ أو لتاريخ النسخ سوى ما جاء في الصفحة الاولى منها من تسجيل تملك لها سنة (١١١٣هـ) .

جاء في أول الشرح :

« قالت : أبا القاسم استخففتَ بالغزلِ

فقلت : ما ذاك من همي ولا شغلي

يحكي عن قائلة خاطبته في استخفافه بالغزل وهو إعراضه عن اللهو والصبا فأجابها ان ذلك أمر لا يصرف اليه همته ، ولا يعلق به أمره » [3] .

وجاء في ختام الكتاب :

« قالت : فهل لك في نظم لنرويه   فقلت : ان جوابي منه حيٌّ هلِ

---

(١) المنظومة الفريدة : ٢ .

(٢) نفس المصدر : ٣ .

(٣) شرح المنظومة : ٢/أ . مصور نسخة ايطاليا .

ثم جلا هاهنا انها طلبت منه شعراً فأجابها الى ما سألته معجلاً :

قالت : فأملِ على هذا الفتى عجلاً   فقلت : هذا ولم ألبث ولم ابلِ
قالت : أمبتدهاً في القول مرتجلاً ؟   فقلت : ما قلت شعراً غير مرتجلِ
قالت : أتيت ابنَ عباد بمعجزة   فقلت : لا تعجبي فالشعر من خولي
قالت : فهل منشد ترضى لينشدها   فقلت : كل كريم النجر ينشد لي

تمت القصيدة المباركة بتفسيرها ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما »(١) .

(١) شرح المنظومة : ٢١/أ .

ب ـ مؤلفات الصاحب المفقودة

« التي روت كتب الأدب والتاريخ بعض نصوصها »

١٥ ــ الأنوار :

لم يذكره أحد من القدماء سوى السيد رضي الدين علي بن طاووس ، فقد أشار اليه وتحدَّث عنه وروى بعض نصوصه المرتبطة بموضوع بحثه فقال :

« الباب الرابع والسبعون بعد المائة : فيما نذكره من أمر النبي (ص) مَنْ حضر من أصحابه بالتسليم على مولانا عليّ (ع) بأمير المؤمنين ؛ من كتاب (الأنوار) تأليف الصاحب الفاضل اسماعيل بن عباد ..... فقال اسماعيل بن عباد في كتاب الأنوار الذي ذكرناه ما هذا لفظه :

الإمام الأول : اسمه علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ ، وله أسامٍ كثيرة في التوراة والانجيل والفرقان والزبور ، وبشرحها يطول الكتاب . يكنّى (أبو الحسن) ، ولقّبه رسول الله (ص) أميرَ المؤمنين خاصاً له ؛ حين قال لأصحابه : قوموا وسلّموا عليه بإمرة المؤمنين ، روى ذلك أبو بردة وغيره في قصة طويلة ، ويقال له المرتضى والوصيّ والوليّ ، ولقّبه النبي (ص) بالوزير »[1] .

---

(١) اليقين فى امرة أمير المؤمنين : ١٧٤ــ١٧٥ .

١٦ — الروزنامجة :

وهي كلمة فارسية بمعنى (اليوميّات) سجّل فيها الصاحب كثيراً من القصص الأدبية والمطارحات العلمية والنوادر الشعرية التي تمّ له سماعها والاطلاع عليها في بغداد ، حينما زارها بصحبة الأمير البويهي عام ٣٤٧ ، ويظهر من بعض نصوصها انه كتبها لاستاذه ابن العميد ليطلعه على كل ما شاهد وما جرى له في رحلته .

ومن نماذجها وصفُ الصاحب لما اتفق له مع أبي محمد الوزير المهلبي :

« استدعاني الاستاذ أبو محمد فحضرت ، وابنا المنجم في مجلسه ، وقد أعدّا قصيدتين في مدحه ، فمنعهما من النشيد لأحضره ، فأنشدا قعوداً وجوّدا بعد تشبيب طويل وحديث كثير ، فان لأبي الحسن رسماً أخشى تكذيب سيدنا إن شرحتُه ، وعتابه إن طويتُه ، ولئن أحصل عنده في صورة متزيّد أحب إليّ من أن أحصل عنده في رتبة مقصّر : يبتدىء فيقول ببحّة عجيبة - بعد إرسال دموعه وتردّد الزفرات في حلقه واستدعائه من جؤذر غلامه منديلَ عبراته - : والله والله . . وإلاّ فأيمان البيعة تلزمه بحلّها وحرامها وطلاقها وعتاقها ، وما ينقلب اليه حرام ، وعبيده أحرار لوجه الله تعالى ، إن كان هذا الشعر في استطاعة أحد مثله ، واتفق من عهد أبي دؤاد الأيادي الى زمان ابن الرومي لأحدٍ شكله ، بل عيبه ان محاسنه تتابعت ، وبدائعه ترادفت ، فقد كان في الحق أن يكون كل بيت منه في ديوان يحمله ويسود به شاعره ، ثم ينشد فاذا بلغ بيتاً يعجب ويتعجب من نفسه فيه قال : أيها الوزير مَنْ يستطيع هذا إلا عبدك علي بن هارون بن علي بن يحيي بن أبي منصور المنجم جليس الخلفاء وأنيس الوزراء .

ثم ينشد الابن ، والأب يعوّذه ويهتز له ويقول : أبو عبدالله ، استودعه الله ، ولي عهدي ، وخليفتي من بعدي ، ولو اشتجر اثنان من مصر وخراسان لما رضيتُ لفصل ما بينهما سواه ، أمتعنا الله به ورعاه .

وحديثه عجب ، وإن استوفيته ضاع الغرض الذي قصدته ، على أنه ـ أيّد الله مولانا ـ من سعة النفس والخلق ، ووفور الأدب والفضل ، وتمام المروءة والظرف ، بحالٍ أعجز عن وصفها ، وأدل على جملتها أنه ـ مع كثرة عياله واختلال أحواله ـ طلب سيفُ الدولة جاريته المغنيّة بعشرين ألف درهم أحضرها صاحبه ، فامتنع من بيعها ، وأعتقها وتزوّج بها » [1] .

ومما جاء في هذه اليوميّات قوله :

« توفّرتُ على عِشْرة فضلاء البلد ، فأول من كارثني [2] أولادُ المنجم لفضل أبي الحسن علي بن هارون وغزارته ، واستكثاري من روايته وطيب سماعه ولذيذ عشرته ، فسمعت منه أخباراً عجيبة وحكايات غريبة ، ومن ستارته أصواتًا نادرة مشنّفة مقرطقة يقول في كلٍ منها : الشعر لفلان والصنعة لفلان ؛ أخذَتْه هذه عن فلان أو فلانة حتى يتصل النسب باسحاق أو غيره من أبناء جنسه ، وكان أكثر ما يُعْجَب به مولاها أبيات له أولها :

ضلّ الفراق ولا اهتدى ونأت فلا دنت النوى
وهوى فلا وجد القرا رَ معنّفٌ أهل الهوى

فاتفق أن سألت أول ما سمعت اللحن فيه عن قائله ، فغضب واستشاط ، وتنكر واستوفز ، ونفر وتنمّر ، وقال : تقول لمن هذا ؟ أما يدل على قائله ؟ أما يعرب عن جوهره ؟ أما ترى أثر بني المنجم على صفحته ؟ » [3] .

---

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٠١ـ١٠٢ ، ومعجم الادباء : ١٥/١١٣ـ١١٤ .
(٢) كارثني : اشتند علي وعارضني .
(٣) معجم الادباء : ١٥/١١٦ـ١١٧ .

١٧ — السفينة :

وهي – حسبما يظهر مما نقل عنها – مجموعة جمع فيها الصاحب ما يستحسنه من الشعر الجيّد الذي يسمعه أو يقف عليه في كتب الأدب ، وكان الصاحب حريصاً عليها أشدّ الحرص ، بخيلاً بها كل البخل ، وأظن ان هذا الحرص والبخل ناشىء من اعتزازه بها ومعرفته بقيمتها الأدبية الكبيرة .

لم يذكرها أحد غير الثعالبي ، فقد نقل عنها بعض الأبيات الشعرية مع الاشارة الى مصدر نقله ، وكان ذلك في ثلاثة مواضع :

١ – قال في ترجمة أبي الضياء الحمصي :

« حدّثني أبو عبدالله الحامدي قال : أنشدني أبو محمد الخازن قال : من الفوائد التي سرقتها من سفينة الصاحب التي كان لا يمكّن منها أحداً قول أبي الضياء في بعض الرؤساء :

وما خلقت كفاك إلا لأربعٍ ... وما في عباد الله مثلك ثاني
لتجريد هنديٍّ وإسداء نائلٍ ... وتقبيل أفواه وأخذ عنانِ » [١]

٢ – وقال في ترجمة أبي محمد البوصرآبادي :

« قرأت شعره في سفينةٍ لأبي عبد الله الحامدي ذكر فيها انه استملاه من أبي محمد الخازن وانه سُرِق من سفينة الصاحب بخطه » [٢] .

٣ – وقال في ترجمة أبي الثريّا الشمشاطي :

« حدثني الحامدي : ان من الأبيات التي علقها الصاحب في سفينته قول أبي الثريّا من مقطعة في مختطّ :

كأنه البدر في لألاء غرّته ... قد زار جبريل في عيدٍ فقلّمهُ » [٣]

---

(١) تتمة اليتيمة : ١/٢٧ .
(٢) نفس المصدر : ١/٤٢ .
(٣) نفس المصدر : ١/٧٠ .

لم يذكره من المتقدمين غير ياقوت الحموي [1] ، ولكن ورد ذكره في كتب المتأخرين في عدة مواضع ، ويقول الشيخ الطهراني : انه عثر على قطعة منه في ذيل نسخة من كتاب « التذكرة » كتبت في عام (١٠٥٥ هـ) بخط الشيخ شرف الدين المازندراني [2] ، ونقل الأميني في كتابه فصلاً من نهج السبيل في تفضيل علي (ع) ؛ من دون أن يشير الى مصدر نقله ، وأظنه منقولاً عن النسخة التي أشار اليها الطهراني فيما سبق ذكره .

يقول ناسخ التذكرة :

« ذكر الصاحب رحمه الله في آخر كتاب نهج السبيل : ان أمير المؤمنين علياً عليه السلام أفضل الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وآله ، واستدل عليه بأن الأفضلية تستحق بالسابقة والعلم والجهاد والزهد فوق جميعهم ، فلا شك انه متقدمهم وغير متأخر عنهم ، وقد سبقهم بمنازلة الأقران وقتل صناديد الكفّار وأعلام الضلالة ، وهو الذي آخى النبي صلى الله عليه وآله بينه وبينه حين آخى بين أبي بكر وعمر ، ورضيه كفواً لسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء سلام الله عليها ، ودعا الله أن يوالي من والاه ويعادي من عاداه ، وأخبرنا انه منه بمنزلة هارون من موسى لفضلٍ فيه ، وقال عليه السلام : اللهم ائتني بأحبّ الخلق اليك يأكل معي هذا الطائر ، ولا يكون أحبّهم الى الله إلا أفضلهم ، وقال : أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها ، وقال : أنا ما سألت الله شيئاً إلا سألت لعلي مثله حتى سألت له النبوة فقيل : لا ينبغي لأحد من بعدك ، ولم يكن

(١) معجم الادباء : ٦/ ٢٦٠ .
(٢) الذريعة : ٤/ ٢٢ .

يسألها إلا لفضله ، ولهذا استثنى النبوة في حديث : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، فصبر على المحن ، وثبت على الشدائد ، ولم تزده[١] أيام توليته إلا خشونة في الدين ، وأكلاً[٢] للجشب ، ولبساً للخشن ، يستقون من علمه ، وما يُستقى[٣] إلا ممن هو أعلم ، خير الأولين وخير الآخرين ، عُهد اليه في الناكثين والقاسطين والمارقين ، وقتل[٤] بين يديه عمار بن ياسر المشهود له بالجنة لبصيرته في أمره ، وشبَّهه رسول الله بعيسى بن مريم كما شبَّهه بهارون ، لا يضرب[٥] الأمثال إلا بالأنبياء ، وتصدَّق بخاتمه في ركوعه حتى أُنزل فيه : ﴿ انما وليكم الله ورسوله ـ الآية ـ ﴾ ، وآثر المسكين واليتيم والأسير على نفسه حتى انزل فيه : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً ﴾ .. الخ »[٦] .

---

(١) في الغدير : ترده .

(٢) في الغدير : أكله

(٣) في الغدير : يستقى . بالبناء للمعلوم .

(٤) في الغدير : وقيل .

(٥) في الغدير : لا تضرب ، مع أن ضمير الفاعل راجع الى رسول الله (ص) .

(٦) الغدير : ٤/٥٨ـ٥٩ .

جـ - مؤلفات الصاحب المفقوده

١٩ — أخبار أبي العيناء :

ذكره ياقوت [١] ، ولم يتعرض له غيره .

٢٠ — أسماء الله وصفاته :

سمّاه بهذا الاسم كل من ابن خلكان [٢] وحاجي خليفة [٣] والخونساري [٤] والصدر [٥] ، وأسماه ابن النديم [٦] وياقوت [٧] : « مختصر أسماء الله وصفاته » .

٢١ — الأعياد وفضائل النيروز :

هكذا أسماه ابن النديم [٨] وبعض المتأخرين عنه [٩] ، وورد باسم

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ .
(٢) وفيات الاعيان : ١/٢٠٨ .
(٣) كشف الظنون : ٢/١٣٩١ .
(٤) روضات الجنات : ١٠٦ .
(٥) تأسيس الشيعة : ١٦١ .
(٦) الفهرست : ١٩٤ .
(٧) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ .
(٨) الفهرست : ١٩٤ .
(٩) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ ، ووفيات الاعيان : ١/٢٠٨ ، وشذرات الذهب : ٣/١١٥ .

« الأعياد » في كتب آخرين [1] ، وذكر حاجي خليفة « الأعياد » اسماً لكتابٍ و « فضائل النيروز » اسماً لكتاب آخر [2] .

٢٢ — الامامة :

يقول ابن النديم :

« كتاب الامامة يذكر فيه تفضيل علي بن أبي طالب وتثبيت إمامة مَنْ تقدمه » [3] ، وعلى هذا النحو ذكره كثير من المؤرخين [4] .

ويقول ابن العماد :

« كتاب الامامة يذكر فيه فضائل علي رضي الله عنه وتثبيت إمامته على من تقدمه لأنه كان شيعياً » [5] .

وذكر ياقوت للصاحب كتاباً في تفضيل علي بن أبي طالب وتصحيح إمامة من تقدمه [6] ولم يسمّه ، وأظن انه يقصد هذا الكتاب .

٢٣ — تاريخ الملك واختلاف الدول :

لم يذكره من المؤرخين غير ياقوت الرومي [7] .

---

(١) معاهد التنصيص : ١٥٧/٢ ، وتأسيس الشيعة : ١٦١ .

(٢) كشف الظنون : ١٣٩٤/٢ و١٢٧٨/٢ .

(٣) الفهرست : ١٩٤ .

(٤) وفيات الاعيان : ٢٠٨/١ ، وتاريخ ابى الفداء : ١٣٠/٢ ، ومعاهد التنصيص : ١٥٧/٢ ، وكشف الظنون : ١٣٩٨/٢ .

(٥) شذرات الذهب : ١١٥/٣ .

(٦) معجم الادباء : ٢٦٠/٦ .

(٧) نفس المصدر .

٢٤ — التعاليل :

ذكره ابن شهراشوب [١] ، ولم أعثر على ذكرٍ له عند غيره .

٢٥ — جوهرة الجمهرة :

هكذا أسماها لفيف من المؤرخين القدامى والمتأخرين [٢] ، وأسماها حاجي خليفة باسم « الجوهرة » [٣] تارة وباسم « جوهر الجمهرة » [٤] تارة اخرى ، وأخبر الطهراني عن وجود نسخة من هذا الكتاب في الكاظمية [٥] ، ولكن لم يتسنَّ لي الاطلاع عليها ، بل لعلّها بحكم المفقود .

٢٦ — الحجر :

قال ابن فارس النحوي :

« أخبرني علي بن أحمد بن الصباح قال : حدثنا أبو بكر بن دريد قال : حدثنا ابن أخي الأصمعي عن عمه : ان الرشيد سأله عن شعر لابن حزام العكلي ففسَّره ، فقال : يا أصمعي إن الغريب عندك لغير غريب ، فقال : يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً ، وهذا كما قال

---

(١) معالم العلماء : ٨ .

(٢) نزهة الالباء : ٣٩٩ ، ومعجم الادباء : ٦/ ٢٦٠ ، وانباه الرواة : ١/ ٢٠٣ ، وبغية الوعاة : ١٩٧ ، وتأسيس الشيعة : ١٦١ .

(٣) كشف الظنون : ١/ ٦٠٦ .

(٤) نفس المصدر : ١/ ٦١٩ .

(٥) الذريعة : ٥/ ٢٩٢ .

الأصمعي ، ولكافي الكفاة ـ أدام الله أيامه وأبقى للمسلمين فضله ـ في ذلك كتاب مجرّد »[1] .

٢٧ — الزبريّة :

ذكره ابن النديم[2] وياقوت[3] .

٢٨ — الشواهد :

تفرّد ابن شهراشوب[4] بين القدامى بذكره .

٢٩ — الفصول المهذبة للعقول :

٣٠ — القضاء والقدر :

ذكرهما الشيخ الأميني في كتابه[5] ، ولم أجد ذكراً لهما في بحوث القدماء .

٣١ — الوزراء :

ذكره بعض المؤرخين بهذا الاسم[6] ، وأسماه أبو الفدا : « كتاب الوزارة »[7] ، ووصفه ياقوت بأنه « لطيف »[8] ، وذكره حاجي خليفة

---

(١) الصاحبي : ١٥ـ١٦ .
(٢) الفهرست : ١٩٤ .
(٣) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ .
(٤) معالم العلماء : ٨ .
(٥) الغدير : ٤/٤١ـ٤٢ ، وورد ذكر ثانيهما فى روضات الجنات : ١٠٧ .
(٦) الفهرست : ١٩٤ ، ووفيات الاعيان : ١/٢٠٨ .
(٧) تاريخ ابى الفداء : ٢/١٣٠ .
(٨) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ .

بهذا الاسم وقال : بأن الشيخ تاج الدين علي بن أنجب بن الساعي البغدادي قد ذيّله في مجلد واحد [١] ، وذكره في مقام آخر باسم « أخبار الوزراء »[٢].

٣٢ ـــ الوقف والابتداء :

ذكره القفطي[٣] والأنباري ، وقال الأنباري عند ذكره لهذا الكتاب : « يُحكى عنه انه لما صنّف كتاب الوقف والابتداء كان ذلك في عنفوان شبابه ، فأرسل اليه أبو بكر بن الأنباري وقال له : إنما صنفتُ كتاب الوقف والابتداء بعد أن نظرتُ في سبعين كتاباً تتعلق بهذا العلم ، فكيف صنفتَ هذا الكتاب مع حداثة سنّك ؟ فقال الصاحب للرسول : قل للشيخ : نظرتُ في النيف وسبعين التي نظرتَ فيها ونظرتُ في كتابك أيضاً »[٤] .

(١) كشف الظنون : ١٤٦٩/٢ .

(٢) نفس المصدر : ٣٠/١ .

(٣) انباه الرواة : ٢٠٣/١ .

(٤) نزهة الالباء : ٣٩٩ـ٤٠٠ .

كتب اخرى

١ — الزيديين :

ذكره ياقوت الحموي [١] ، وأظنه تصحيفاً لكتاب « الزيدية » المار الذكر ، فظنها ياقوت كتابين مستقلين .

٢ — الكافي في الترسل :

ذكره عبدالرحيم العباسي بهذا النص [٢] ، وورد ذكره في مصادر اخرى باسم : « الكافي في الرسائل » [٣] أو « كافي الرسائل » [٤] أو « الكافي ـ رسائل » [٥] مما يظهر انه جامع لرسائل الصاحب أو بعض منتخبات منها ، فلا يصح ـ مع هذا ـ أن نفرد له رقماً في أعداد مؤلفات الصاحب ـ كما فعل بعض المتأخرين ـ .

٣ — المقصور والممدود :

ذكر بروكلمان انه للصاحب بن عباد وانه نشر بعناية المستشرق برونله

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ .

(٢) معاهد التنصيص : ٢/١٥٧ .

(٣) الفهرست : ١٩٤ ، ووفيات الاعيان : ١/٢٠٨ ، وتاريخ ابى الفداء : ٢/١٣٠ ، وشذرات الذهب : ٣/١١٤ .

(٤) كشف الظنون : ٢/١٣٧٦ .

(٥) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ .

في عام (١٩٠٠ م) [١] ، وتابعه على قوله هذا الدكتوران عبدالوهاب عزام وشوقي ضيف [٢] ، والصحيح انه لابن ولاّد كما سجل على غلافه من دون أي شك في ذلك أو ريب .

٤ — نقض العروض :

ذكره ياقوت [٣] في مؤلفات الصاحب ، وتبعه بعض المتأخرين على ذلك ، ولا أجد معنىً مناسباً لهذه التسمية ، وكيف ينقض الصاحب العروض وهو من علماء هذا الفن والمؤلفين فيه ؟

(١) تاريخ الادب العربى : ١/١٣٦ .

(٢) رسائل الصاحب بن عباد ـ المقدمة : ك .

(٣) معجم الادباء : ٦/٢٦٠ .

القسم الرابع

حديثُ المراجع الأدبية والتاريخية عن أدب ابن عباد حديثٌ متعدد الجوانب مترامي الأطراف ، وبحثها في ذلك الأدب وخصائصه من قدحٍ فيه الى مدحٍ له الى إعجابٍ به الى مبالغةٍ في شأنه بحثٌ كبير منطوٍ على شيء كثير من الاطناب والتفصيل .

ولا عجب من ذلك ، فقد اتيح لابن عباد من الحظ والشهرة ما لم يُتَحْ لأكثر العلماء والادباء من معاصريه ، فكان له من ماله ونفوذه ، وقوته وجاهه ، وغناه وسلطانه ، وغروره وعجبه بنفسه ، ما يحمل الناس ويحثهم على ذكره والتحدث عنه واللهج بأخباره وآثاره ، بين مدح وقدح وثناء وذم وإكبار وثلب ، تبعاً لظرف كل واحد من اولئك المتحدثين ومقدار نجاحه أو خيبته في اجتذاب هذا الرجل الكبير ، والتمتع بما آتاه الله من أسباب الغنى والجاه .

رأي الادباء القدامى في أدب الصاحب :

وقد اوتي الصاحب من الحظ ما حمل أكثر معاصريه الأدباء على التحدث عنه والاعتراف بأدبه وبراعته فيه ، وطول باعه في فنون النثر والشعر ، على اختلافٍ في نوعيّة الاعتراف من الصراحة أو التضمين .

فالثعالبي يرى ان الصاحب قد « بلغ من البلاغة ما يعدّ في السحر ، ويكاد

يدخل في حد الاعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتَي الشرق والغرب »[1] .

وابن النديم يذهب الى أن الصاحب « أوحد زمانه وفريد عصره في البلاغة والفصاحة والشعر »[2] .

وأبو حيان التوحيدي ـ عدو الصاحب ـ يصرح بأنه « كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدبٍ خفيفٍ أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافاً ، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجّنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتّاب . . . . ويقول الشعر ، وليس بذاك ، وفي بديهته غزارة ، وأما رويّته فخوّارة »[3] .

والوزير ابن سعدان يسأل أبا حيان عن بلاغة الصاحب وعن تحديد نسبتها لبلاغة ابن العميد فيجيبه بأنه قد سأل جماعة من الأدباء عن هذا الأمر فأجابوه بأجوبة مختلفة[4] تدور كلها على الشتم والسباب الرخيص ، وسواءاً كان أبو حيان صادقاً أو واضعاً لما نقل من آراء ، فانها لتدل بمجموعها على ضخامة السمعة الأدبية التي كان يتمتع بها الصاحب في ذلك العصر .

وسار الادباء والمؤرخون ـ فيما تلا القرن الرابع من قرون ـ على هذا النحو من الرأي في أدب ابن عباد ، فأثنى عليه من أثنى ، ونقل شتمَ أبي حيان مَنْ نقل ، من دون أن نجد جدة في الرأي وطرافة في البحث وحرية في المناقشة ، حتى انتهى بنا المطاف الى هـــذا العصر عصر الدراسات المنهجية والبحوث الموضوعية

(١) يتيمة الدهر : ٣/١٦٩ .
(٢) الفهرست : ١٩٤ .
(٣) الامتاع والمؤانسة : ١/٥٤ـ٥٥ .
(٤) نفس المصدر : ١/٦١ـ٦٦ .

رأي الأدباء المحدثين :

وجاء الدارسون المحدثون فأدلوا بدلوهم مع الدلاء ، واستخرجوا ما استطاعوا أن يستخرجوا من رأي طريفٍ وفكرة جديدة في أدب ابن عباد .

فالاسكندري « يعد ابن عباد ثاني ابن العميد في حلبته ، وأبلغ من سلك طريقته ، غير انه اولع بالسجع والجناس »[1] .

والزّيات يرى ان الصاحب قد سار على نهج ابن العميد « وأربى عليه في الحلية اللفظية ، ولاسيما في السجع والجناس ...... ومنزلته بعد البديع وقبل الخوارزمي ، وله ذوق سليم في صوغ الشعر ، ونظر صادق في نقده »[2] .

ويقول الدكتور أحمد أمين - في أثناء حديثه عن القرن الرابع - :

« أدب هذا العصر تقدم خطوات في السجع والمحسّنات اللفظية ، والمبالغة البلاغية ، فالصابي وابن عباد أفرطا في السجع وكادا يلتزمانه ، وغيرهما يسجع وإن كان لا يلتزم ، هذا الى الامعان في الاستعارات والمجازات والتشبيهات ، وتفننوا في تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطُرَف فيما يصنعون من حلّي وأدوات زينة »[3] .

وحين يتحدث الدكتور زكي مبارك عن ابن عباد يصرح بأن « أشعاره ورسائله تدل على أنه كان اعجوبة من أعاجيب زمانه ، وانه كان من أوفى الناس حظاً في دقة الفهم ، وبراعة القول ، وسعة الاطلاع »[4] .

(١) الوسيط : ٢١٢ .
(٢) تاريخ الادب العربى : ٢٣١ .
(٣) ظهر الاسلام : ١/١٣٣ .
(٤) النثر الفنى : ٢/٢٤٤ .

والدكتور شوقي ضيف يذهب الى ان ابن عباد «كان أحد أساتذة البلاغة في عصره، وقد بلغ بمذهب التصنيع مبلغاً عظيما من الزخرف والتنميق ومايتصل بذلك من الزركشة والتطريز»[1].

وفي مقدمة رسائل ابن عباد يقول الدكتور عبدالوهاب عزام وصاحبه:

«إن الصاحب عُني في رسائله بالسجع فلا ينفك عنه إلا نادراً، كما عُني بطول الجمل وتحليتها بالبديع، وخاصة الجناسات والاقتباسات والتشبيهات والاستعارات، وإن من يقرن رسائله الى رسائل القاضي الفاضل وحلبته من كتّاب العصور التالية، يدرك ان هؤلاء الكتاب انما استنّوا في رسوم كتاباتهم بالسنن التي نراها هنا عند الصاحب، ونقصد سنن تطويل العبارات وما يطوى فيها من سجع وبديع، وهي سنن اقتفى الصاحب فيها استاذه ابن العميد، ومن المعروف ان ابن العميد تناول الكتابة ممن سبقوه وهي مليئة بالسجع ... ولم يكتف ابن العميد بالسجع فقد أضاف اليه البديع، وكان يشغف بالطباق، ثم جاء الصاحب من بعده فارتفع بالكتابة الديوانية الى الصورة التي وصفناها، وهي صورة تستمد خطوطها وألوانها من السجع والتشبيهات والاستعارات والجناسات والاقتباسات وكل ما يمكن أن يعدّ حلية بيانية»[2].

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى : ١٤٨ .

(٢) رسائل الصاحب ـ المقدمة : ت .

الأدب في القرن الرابع[1] :

واذا رجعنا الى الخصائص الأدبية لهذا القرن لنعرف مقدار تأثيرها في تفكير ابن عباد ومقدار تأثر الصاحب بها نجد ان النثر والشعر قد خضعا ـ كما هو طبيعي لهما ـ لسنن الحضارة والترف والاختلاط بالامم الاخرى غير العربية وبفلسفاتها وآرائها وآدابها ، فكان لهما من مجموع هذه السنن مذهب خاص طبع هذا القرن بطابعه ؛ هو نتيجة تطور القرون بما حملت من عناصر التجديد والتحضر والتدرج المطرد .

وكان القرن الرابع ـ بما زخر به من آثار الترف والرفاه وضروب الزركشة والزخرفة والتلوين ـ ذا أثر كبير على الأدب بكلا فرعيه ، حيث نقله من جوه الفطري المادئ ؛ واطاره القائم على الاهتمام بالروح والمعنى والخيال الواضح الأداء ، الى عالم الزخرفة والتصنيع والاهتمام بالتزويق والمظاهر اللفظية .

فكان للنثر ـ أكثر النثر ـ هذا الذي نحسه ونراه من التزام بالسجع في جميع الرسائل والمكاتبات ، وتأنق في كتابة الاخوانيات والفكاهات وصور الحياة العامة ، وإمعان في المبالغة ، وإكثار من التشبيه والاستعارة ، الى ما شاكل

---

(١) ليس المقصود من هذا العنوان هو البحث المستوعب فى الادب ومذاهبه وخصائصه فى القرن الرابع ، فان ذلك مما تضيق به المجلدات فضلا عن الصفحات المعدودات ، ولكن الغرض منه هو الاشارة ـ بايجاز ـ الى أهم الملامح والخطوط التى تجلت فى أدب هذا القرن نثرا وشعرا ، فطبعته بطابعها ووسمته بميسمها ، وعلى القارىء الراغب فى الاطلاع على تفصيل ذلك أن يرجع الى الكتب المؤلفة فى هـذا الموضوع ، وفى طليعتها : ظهر الاسلام للدكتور أحمد أمين ، والنثر الفنى للدكتور زكى مبارك ، والفن ومذاهبه فى النثر العربى ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، وكلاهما للدكتور شوقى ضيف .

ذلك من شؤون وخصائص لم يكن يعرفها النثر فيما سبق من عصوره ، أو لم يكن يعرفها على هذا النحو من الالتزام والشيوع والانتشار .

وكان للشعر ـ أكثر الشعر ـ هذا الذي نلمسه ونشاهده من اهتمام بالتصنيع والجناس الشكلي والتلوين البديعي والزخرفة اللفظية ، وصراحةٍ في الكُدية والتسوُّل ، وتكشّفٍ في المجون والخلاعة ، وتغزلٍ مفضوح بالجواري والقيان والغلمان ، ووصفٍ لمظاهر الترف والنعيم ، الى ما شابه ذلك من نواحٍ لم يتطرق لها الشعر في عهوده السالفة ، أو لم يتظاهر بها اكثر الشعراء ـ وإن نظموا فيها ـ ، أو لم يكن يعرفها ادباء القريض القدامى .

وهكذا أصبحنا « نرى كثيراً من الأدب في هذا العصر شكلاً تنقصه الروح ، كما كانت الحياة الاجتماعية المترفة شكلاً بلا روح »[1] .

* * *

وكان لكل هذه الخصائص الأدبية — التي مرّ ذكرها بايجاز — أثرها الكبير الواضح على نثر ابن عباد وشعره ، وكان لمذهب التصنيع الأدبي صداه المدوي في نفسه ، وانعكاساته البارزة في أدبه ، وتأثيره البليغ على كل ما خطه قلمه من مكاتبات ورسائل وقصائد ومقطعات ، حتى عدّه مؤرخو الأدب من أساتذة هذا المذهب في ذلك القرن .

وليس ذلك بمستغربٍ من الصاحب بعد معرفة تلمذته على ابن العميد في الأدب والكتابة والترسّل . وابن العميد — كما روت المصادر — من مؤسسي فن التصنيع ومنظميه ، بل ممن طوّر هذا الفن وأضاف اليه وأزاد عليه ، فتلقى ابن عباد من استاذه هذا الاسلوب الخاص في الكتابة وهذا المذهب المعيَّن من المذاهب الأدبية ، فنال فيه رتبة (الاستاذية) بعد حين .

---

(1) ظهر الاسلام : ١/١٣٤ .

نثر ابن عباد :

ومن أبرز ما يلاحظ في نثر ابن عباد هذا الالتزام بالسجع وهذا الاهتمام بأمره ، وعجّت كتب الأدب القديمة والحديثة بذكر ذلك حتى جعلته من أجلى خصائص نثر ابن عباد وأوضح ملامحه ، وحتى نسبت اليه ما نسبت من تصرفات حمقاء وحركات رعناء دفعه اليها كلفه بالسجع وحبه له ، كما توضحه الوقائع التالية :

١ — « قال أبو حيان : كان ابن عباد يأتي بالسجع في اثر كلامه ، مع رويّة طويلة وأنفاس مديدة ، وحشرجة صدرٍ ، وانتفاخ منخريه ، والتواء شدقيه ، وتعويج عنقه » [(١)] .

٢ — وقال ايضاً : « مما يدل على ولوع ابن عباد بالسجع ومجاوزته الحدّ فيه بالافراط قوله يوماً : حدثني أن ناش وكان من سادة الناش ، جعل السين شيناً ، ومرّ في هذا الحديث ، وقال : هذه لغة » [(٢)] .

٣ — ومما رواه أبو حيان أيضاً عن الصاحب : « قال ابن عباد لشيخ من خراسان في شيء جرى : والله لولا شيء لقطّعتك تقطيعاً ، وبضعتك تبضيعاً ، ووزعتك توزيعاً ، ومزّعتك تمزيعاً ، وجزّعتك تجزيعاً ، وأدخلتك في خزائنك — ثم وقف ساعة ثم قال : — جميعاً » [(٣)] .

٤ — وقال أبو حيان في حديثه عن ابن عباد : « كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه

(١) معجم الادباء : ٦/٢٦٤ .
(٢) نفس المصدر : ٦/٢١٣ .
(٣) نفس المصدر : ٦/٢١٣ .

البلاد . قلت لابن المسيّبي : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها الى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشّم امور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخلّيها ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها »[1] .

٥ — « كان ذو الكفايتين ابن العميد يقول : خرج ابن عباد من عندنا من الري متوجهاً الى اصفهان ، ومنزله ورامين وهي قرية كالمدينة ، فجاوزها الى قرية غامرة وماءٍ ملح ، لا لشيء إلا ليكتب الينا : كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار »[2] .

٦ — « لقاضي قم قال الصاحب بن عباد : أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم ، فكان القاضي يقول اذا سئل عن سبب عزله : أنا معزول السجع من غير جرم ولا سبب »[3] .

ولدى التحقيق في سند رواية هذه القصص نجد أن أكثرها مروي عن أبي حيان التوحيدي بالنص على اسمه ، والباقي منها منقولٌ عنه أيضاً — فيما أظن — وإن لم يصرّح بذلك .

وقد سبق لي القول مراراً في تضاعيف هذا الكتاب بأن أحاديث أبي حيان ومروياته لا يمكن أن تعتبر مصدراً موثوقاً معتمداً عليه ما لم تشفع بروايات غيره من معاصري الصاحب الثقات .

واني لأعجب — أشد العجب — من بعض الباحثين المتأخرين إذ جعلوا

---

(١) معجم الادباء : ٦/٢٠٧ـ٢٠٨ .

(٢) نفس المصدر : ٦/٢٢٠ـ٢٢١ .

(٣) معجم البلدان : ٧/١٦١ .

من هذه الروايات المشكوكة مصدراً للبحث وأساساً للرأي من دون مناقشة لها أو وقوفٍ منها موقف التشكيك والتأمل ، فلم يتورع الدكتور أحمد أمين من أن يعتمد على هذه الروايات فيقول في أثناء الحديث عن كتّاب القرن الرابع :

« وزاد الطين بلة الصاحب بن عباد المعاصر لهم فقد كان يعزل الوالي أو يولّيه ليحصل من ذلك على سجعة »[1] .

ومهما يكن من أمر ، فالذي لا شك فيه ان الصاحب من محبّي السجع وعشّاقه ، ولكنه لم يصل في حبه وعشقه له الى تلك الدرجة التي زعمها أبو حيان ، وحسبنا من رسائله وكتبه أوضح شاهد على ذلك ، إذ نجده - في كثير من الأحيان - تاركاً للسجع مستعملاً الازدواج والجناس البديعي ، كما نجده في كثير من الأحيان أيضاً سجّاعاً مقبول السجع جميل التعبير لا يظهر عليه أدنى تكلف أو تعقيد فيه ، في الوقت الذي نجده في بعض تعابيره ذا سجع متكلّف ظاهر النبوّ والثقل ، ولكن هذا النحو من سجعه قليل جداً ، ولا يجوز أن يؤخذ منه الحكم على سائر نتاج هذا الرجل الأديب .

واورد فيما يلي - من دون انتقاء واختيار - بعض كلمات الصاحب وجمله وأقواله الحافلة بالسجع والازدواج ، لتكون نموذجاً لاسلوب الصاحب وأدبه :

« حضرة هي الغاية القصوى من المجد ، وسدرة المنتهى بين أهل الأرض » .

« وصل كتاب مولاي فكانت فاتحته أحسن من كتاب الفتح ، وواسطته أنفس من واسطة العقد ، وخاتمته أشرف من خاتم الملك » .

« سلام كما هبّ نسيم السحر على صفحات الزهر ، ولذّ طعم الكرى بعد برح السهر » .

---

(١) ظهر الاسلام : ٢/٩٨ .

« بعض الوعد كلمع السراب ، وبعضه كنقع التراب » .

« سحائب الصيف أثبت من قولك ، والخط في الماء أقوى من عهدك » .

« كلام كصوب الغمام ، وسجع كسجع الحمام » .

« الحجيج وفد الله ، وهم له متاجرون ، وفي طلب ثوابه مسافرون ، والى بيته الحرام سائرون ، ولقبر نبيه صلى الله عليه وسلم زائرون » .

« فلان كريم ملء لباسه ، موفق مدّ أنفاسه ، ذو جدٍ كملوّ الجد ، وهزل كحديقة الورد ، وعشرته ألطف من نسيم الشمال ، على أديم الماء الزلال ، وألصق بالقلب ، من علائق الحب »[1] .

ومن نماذج رسائله المطولة قوله في رسالةٍ له بمناسبة فتح جرجان :

« كتابنا من المعسكر المنصور بظاهر جرجان ، على سمت خراسان ، يوم الأربعاء لثمان بقين من ذي القعدة ، وقد أنزل الله النصر أعمّ إنزال ، فكشفنا الناكثين كشف الاستئصال ، وسرنا اليهم يومنا هذا هاجمين على معسكرهم مستنصرين بنصر الله ، مستظهرين بعون الله ، معوّلين على ما عوّد الله مولانا الملك السيد المنصور عضد الدولة ، وتاج الملة ، وعوّدنا من الإظفار والإظهار ، فحكّم أولياءُ الحق في أشياع الباطل سيوفَ الانتقام ، وجزروهم جـــزر الأنعام ، فولّى المفلول تاش والمنقوص فائق والعاق علي والمنحوس قابوس وقد كلوا طبائع الخذلان ، وأتاهم بأس الله من كل مكان ، ناكصين على الأعقاب ، راجعين على الادراج ، وغَنِم أنصارنا كراعهم وأموالهم ، وأسلحتهم وخيامهم ، وهام من نجا من استلحام الحديد عاريًا ، لا يلوي أوّل على آخر .

(١) نقلنا هذه الفقرات من : يتيمة الدهر ، وثمار القلوب .

وقد سرّينا في طلبهم الأتراك ركضاً ، والأعراب حثّاً ، والأكراد حضّاً ، وأمرناهم بأن لا يُكذّبوا عن نيسابور بإذن الله ، وسيستأسر من أخطأه السيف بمشيئة الله ، إن الله متبع الخاسرين الغادرين ذلاً بعد ذل ، ووهناً بعد وهن ، فالحمد لله الذي منح وأنجح ، ومنّ وأحسن ، ويسّر ونصر ، حمداً يحرس الدولة ، ويحفظ الدعوة ، ويوزعنا شكر ما ذلّل لنا من هذا الخطب الذي أعيا القرون ، وأعجز القروم »[1] .

ومن جملة نماذج نثر الصاحب ما ورد في بعض رسائله وكلماته من فِقَر تشبه الشعر روعة وجمالاً ، وتبهج النفس بنغمها وصفائها وعذوبة ايقاعها ، كما تجده في الجمل التالية :

« ألفاظ كما نورت الأشجار ، ومعان كما تنفست الأسحار » .

« نثر كما تفتّح الزهر عن كميمه ، ونظم كما تنفّس السَحَر عن نسيمه ، وتبسّم الدر عن نظيمه » .

« نثر كنثر الورد ، ونظم كنظم العقد » .

« يهدي اليك سلاماً كرقة خده ، ونسيم عرفه ، وغزارة دمعك من بعده » .

« أنا على طرف بستانٍ أذكرني ورده المتفتح بخلقك ، وجدوله السابح بطبعك ، وزهره الجنيّ بقربك » .

« كتابي هذا وقد أرخى الليل سدوله ، وسحب الظلام ذيوله » .

ثم ننتقل الى نماذج أخرى من نثر الصاحب حاول فيها إخضاع المطالب العلمية والمواضيع الجافة للتعبير الأدبي الجميل ، حيث كتب في الطب والخراج

(١) رسائل الصاحب : ٣٣ .

والري والزراعة والحسبة وما شاكل ذلك ، فيقول في رسالته الطبية المرسلة الى أبي العباس الضبي :

« الأقراص في أواخر الحميّات خير ما نُقّيَتْ به الكبد ، وأُصلحت به العروق ، وقوي به الطحال ، . . . وانما اغترّ مولاي بأيام السلامة ، فكان ينبسط بأنواع الطعام ، ويسرف في تناول الشراب ، فامتلأ الجسم من تلك الكيموسات الردية ، وورد بلداً شديد التحليل ، مضطرب الأهوية ، فوجدت النفسُ عوناً على حلّ ما انعقد ، ونقض ما اجتمع ، وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لأن الجسد يخلص خلاص الابريز اذا زال عنه الخبث ، وسُبك ففارقه الدرن »[1] .

ويقول في عهد حسبة :

« واهتمّ بأمر المعايير والمكاييل ، والقسطاسات والموازين ، اهتماماً يقتضيه افتقارُ المعاملات أجمع اليها ، ورجوع المبايعات عليها ، فقد عظم الله تعالى في نص المصحف ، وزْرَ الباخس وإثم المطفّف . . . وأجْرِ الرعية ، على طريقة سوية ، في المنع عن المجاهرة بما يُحْظَر ، والمبادرة بما يُنْكَر ، غير مفرق بين أبناء الثروة واليسار ، وإخوان الخلة والإعسار ، فالجماعة عبيد الله ، لا تختلف فيهم حدود الله ، بل الأغنياء - إلا من عصم الله - أجْرَأ على المناكير ، وأقدر على بلوغ اللذات بالتبذير . . . وألزم النساء اذا تخللن الأسواق والمحال ، وداخلن الشوارع وقابلن الرجال ، أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ويمددن جلابيبهن على وجوههن ، فذلك أدفع للمحة الفاسق ونظرته ، وأسلم للعبد الصالح وعفته »[2] .

---

(١) رسائل الصاحب : ٢٢٩ .

(٢) نفس المصدر : ٤٠-٤١ .

وهكذا يوصلنا التأمل في هذه النماذج الأدبية (الصاحبية) الى نتيجة ثابتة لا تقبل الجدل هي : ان الصاحب أديب من الطراز الأول في عصره ، وكاتب من ذوي القابلية الكبرى في هذا الفن ، واستاذ من اساتذة التصنيع المبرزين في القرن الرابع . وان كل ما حاول أبو حيان تلفيقه ووضعه - وهو بصدد شتم الصاحب والوقيعة به - واضح البطلان ظاهر الخطأ مفضوح الغرض والهدف المقصود منه .

واذا تركنا موضوع سجع الصاحب وازدواجه في نثره ، وحاولنا الوقوف على الخصائص الأدبية الاخرى البارزة في كلامه وترسُّله ، نجد انه يعنى كثيراً بالاقتباس من القرآن الكريم والشعر الجيد والأمثال البليغة ، واستخدام التشبيهات والاستعارات ، واستعمال الأساليب البديعية استعمالاً جميلاً يتكرر في اكثر تعابيره .

ثم نجد انه يكثر من حشر الجمل المعترضة والعبارات الفاصلة بين المبتدأ والخبر ، والفعل ومفعوله ، وفعل الشرط وجوابه ، بالشكل الذي لم نعثر على مثله عند كتّاب ذلك القرن إلا فيما ندر .

فمن شواهد فصله بين المبتدأ والخبر قوله :

« مواهبُ الله عند مولانا الملك السيد - وإن كانت فائتة للتعديد ، ضامنة للمزيد ، سابقة للحصر ، غامرة للشكر ، متجاوزةً حدود العرف ، ممتنعةً على أيدي الإحصاء وألسنة الوصف ، مقبلةً بالفتوح المتوالية ، مشتملةً على الكلم العالية ، ناظمةً أشتات العوائد ، شافعةً غر المآثر بزهر المحامد - يحكم تفضُّل الله فيها باستعلاء نجمه » [1] .

---

(١) رسائل الصاحب : ١٥ .

ومن أمثلة فصله بين الفعل ومفعوله قوله :

« كنّا أعلمناك - عند ذكرنا حال ابراهيم بن المرزبان في انتقاض عزيمته ، واستمرار هزيمته ، واستنقاذ الأجل ذَماءه من ظبي السيوف وقد شارفته ، وشبا الحتوف وقد شافهته ، وذهابه على وجهه فريداً موحّداً ، وطريداً مشرّداً ، لا يعلم أين المفر ، وكيف المقر ، قد احتملته رياح الخيبة ، ومهابة الزانات المطيفة ، واستأمن أتباعه متعرفين الخير في مباعدته ، كما تعرّفوا الخسر في مساعدته - أنّ وهسوذان بن محمد قد طالت الدولة العالية مداجاته »[1] .

ومن نماذج الفصل بين فعل الشرط وجوابه قوله :

« إذا تصفح أهل اصبهان ما فاض عليهم من بركات أيامنا ، وانصبّ اليهم من ثمرات إنعامنا ، وكثر من خيراتهم في ظل سلطاننا ، وتوفر من سعاداتهم في كنف إحساننا ، حتى عاد المرمل غنياً مستظهرا ، والمُقْوي موسراً مكثرا ، والمستتر المخفي لشخصه مباهياً بحاله ، والمنقبض المكاتم لنفسه مسامياً بماله ، ومن كانت السلامة معظم مناه ، والأمن غاية ما يسمو اليه مداه ، تشير اليه الأصابع وتنعطف عليه ، وتفيّأ أفناءُ الناس أفنيةَ الخصب والدعة ، بعد البؤس والمتربة ، وتفسّحوا في ضروب اللذات ، بعد التشحط في حصول الأقوات ، هذا الى ما تعمدنا به صنفاً صنفاً من فضلٍ امتدّ باعه ، ونظرٍ اتسعت رباعه ، وتسويغ كَبُر قدره ، وتخويلِ فُرِض شكره - علموا ... »[2] .

(١) رسائل الصاحب : ١٦ .

(٢) نفس المصدر : ١٧٥ .

شعر ابن عباد :

واذا انتقلنا الى شعر الصاحب نجد ان مذهب التصنيع والزخرفة اللفظية والأساليب البديعية قد أثَّر أثره البارز في شعر ابن عباد ، ونقش ملامحه الواضحة في كل منظومه ، فجاء أكثره ظاهر الصناعة والتكلف والتمحل ، وإن ورد فيه بعض القطع والأبيات التي تعد في الرتبة العليا من الأدب العربي صفاءَ نغم ، وانتقاءَ لفظٍ ، ورقة معنى ، وروعة صياغة .

وكان اهتمام الصاحب بتضمين قصائده بعض القصص والحوادث والروايات والمناقشات ذا تأثير كبير على شعره بوجه عام ، وعلى ما ارتبط منه بالنواحي الدينية والمذهبية التي حاول بحثها وإقامة الأدلة على ما اختار منها نظماً على الأخص ، فجاء شعره المتعلق بهذه الشؤون متأرجحاً متنوعاً يسمو مرة ويهبط مرّات .

واذا رجعنا الى ديوانه المخطوط لنقرأ فيه أساليب التصنيع نجد ان الصاحب قد خطا في الزخرفة خطوات كبرى لم يُعرف مثلها ولم يشاهد نظيرها عند غيره من شعراء عصره وادباء عهده ، ولعلّ لثرائه اللغوي يداً في هذه الزخرفة المعقدة المعتمدة على مجموعة كبرى من الأدوات اللفظية التي لا تتسنى لغير أعلام اللغة ورجالها المتمرسين .

ولنقرء له هذه النماذج المسجلة في أدناه لنعرف مقدار ما كان له من يدٍ في فن التصنيع والزركشة :

١ ـ قال من قصيدة في اصول الدين :

قالت : أبا القاسم استخففت بالغزلِ فقلت : ما ذاك من همي ولا شغلي
قالت : أريد اعتذاراً منك تظهره فقلت : عذراً وما أخشى من العذلِ

قالت : الحُّ على تكرير مسألتي فقلت : ما أنا عن رأيي بذي حولِ
قالت : اريــد رشاداً منك أتبعه فقلت : سمعاً فان الرشد من قِبَلي

ويستمر في القصيدة على هذا النحو من (قالت — قلت) حتى يوصلها في العدد إلى (٦٠) بيتاً .

٢ ـ وقال من قصيدة يخاطب بها الامام علياً عليه السلام :

أنت الذي بسيفه ورمحه الدين كملْ
أنت الذي في الوحي تبـ يين علاه قـد نزلْ
أنت الذي نام على الـ فراش في ليل الوجلْ

ويسير على التزامــه بابتداء كل بيت بلفظ « أنت الذي » حتى تبلغ القصيدة (٤٩) بيتاً .

٣ ـ وقال من اخرى في مدح الامام علي عليه السلام :

ألف : أمير المؤمنين عليٌ باء : به ركن اليقين قويٌ
تاء : توى أعداءه بحسامه ثاء : ثوى حيث السماك مضيٌ
جيم : جرى في خير أسباق العلا حاء : حوى العلياء وهو صبيٌ

وهكذا يتسلسل في هذا الاسلوب حتى آخر الحروف الهجائية ، ثم يعلن اعتزازه وتبجحه بهذا النحو من الصناعة فيقول :

أهدى ابن عباد اليه هــذه غرّاء لم يفطن لهــا شيعيٌ
يرجو بها حُسنَ الشفاعة عنده حَسَنُ الولاء موحدٌ عدليٌ

٤ ـ ويقول في قصيدة رابعة :

مشيب عراه لو يدوم مشيبُ مشيب به ثوب الرشاد قشيبُ
قشيب ولـكن يخلق المرء عنده ويلقى ضروب الانس وهو مريبُ
مريب إذا ما قيل هل تذكر الظبا وعهدي بجنب الجانبين يطيبُ

ويستمر على هذا الشكل من جعل كل قافية كلمة اولى من صدر البيت الذي يليها حتى يبلغ بالأبيات (٣٣) بيتاً .

٥ ـ واشتد بالصاحب حبه للزخرفة والصنعة فنظم قصيدة كاملة خالية من حرف الألف ، ثم أعجبه هذا الإغراب في النظم فعمل عدة قصائد خلت كل واحدة منها من حرف من حروف الهجاء ما عدا الواو ، حيث عجز عن نظم قصيدة بدونه [1] ، ومن حسن الحظ أن يضم ديوان الصاحب قصيدتين من هذه القصائد المتكافئة تعطينا صورة كاملة عن القصائد الاخرى .

فمما جاء في قصيدته الخالية من الألف قوله :

قد ظلّ يجرح صدري ... من ليس يعدوه فكري
ظبي بصفحة بدرٍ ... يزهو به سطر شعرِ
كم ملتُ فيه لوصلٍ ... وكم يميل لهجرِ
يغري همومي بقلبي ... فكم يجور ويغري

وقال في ختامها :

كوفيٌّ خذه فطبعي ... قد زفّ درة بحرِ
بدفقة لم تُنَشَّرْ ... لغير طبعي وفكري
تمت على حذف حرفٍ ... يدور في كل ذكرِ
ومعجزي مستمرٌّ ... في مد نظمي ونثري
فلن يحلّ لحرٍّ ... تشبيهُ شعرٍ بشعري

وجاء في مطلع قصيدته الخالية من السين :

يا وصل مالك لا تعاودْ ... يا هجر مالك لا تباعدْ

(١) تاريخ آداب العرب : ٣/٣٨٣ .

أين التصافح والتعا نق والقلائد والولائدْ

الى أن يقول في آخرها :

يا أيها الكوفيُّ هـ ذي غرّةٌ بين القصائدْ
أوردتُها ترمي النوا صبَ بالصوائب والصواردْ
ضحّتْ بهم في عيد أضـ حى إنهم نعمٌ شواردْ
وحذفت اخت الشين منـ ها عن طلاب أخ معاندْ

ومن شعره المتضمن لبعض مباحث اصول الدين قوله :

أتانا بذكرٍ محكم من كلامه هو الحجة العليا لمن يتسدّدُ
وإن قال أقوام : قديم لأنه كلام له فانظر الى أين صعّدوا
كذاك النصارى في المسيح مقالها وقد شردوا عن ديننا فتشرّدوا
فتبّاً لهم إذ عاندوا فتنصّروا وويلاً لهم إذ كايدوا فتهوّدوا
وإن سُقتُ ما قالوه في الجبر ضلّةً خشيت جبال الأرض منه تهدّدُ
يقولون : إن الله يخلق نسمة ليُشتم كلاّ فهو أعلى وأمجدُ
وأخلص مدحي للنبي محمدٍ وذريّةٍ منها النبيُّ محمدُ
نبيٌّ أقام الدينَ والدينُ مائل وأوهى قناة الكفر وهي تشدّدُ
وأوصى الى خير الرجال ابن عمه وإن ناصب الأعداء فيه فما هُدوا
هو البدر في هيجاء بدرٍ وغيرُه فرائصه من ذُكرة السيف ترعدُ
وكم خبرٍ في خيبرٍ قد رويتم ولكنكم مثل النعام تشرّدُ
وفي احدٍ ولّى رجال وسيفه يسوّد وجهَ الكفرِ وهو مسوّدُ

وبازاء هذا الشعر المتصنع المتكلف الذي مرّت الشواهد عليه نجد للصاحب من الشعر الجميل الرصين الرائع المعنى ، الصافي النبرات ، الحلو الجرس ، ما تداولته

الرواة وسارت به الركبان ، وزهت به كتب الأدب العربي ، كقوله :

وشمعةٍ قُدِّمتْ إلينـــا تجمع أوصــاف كل صبّ
صفرة لونٍ وذوب جسمٍ وفيض دمعٍ وحرُّ قلبِ

وقوله :

رقَّ الزجاج ورقَّت الخمرُ فتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمر ولا قدحٌ وكأنما قدح ولا خمرُ

وقوله :

يا خاطراً يخطِر في تيهه ذكرك موقوف على خاطري
إن لم تكن آثر من ناظري عندي فلا مُتِّعْتُ بالناظرِ

وقوله :

قال لي : إنَّ رقيبي سيء الخلــق فدارِهْ
قلت : دعني وجهك الجنـ ـنة حُفَّتْ بالمكارِهْ

وقوله :

تصدُّ اميمة لمــا رأتْ مشيباً على عارضي قد فرشْ
فقلت لها : الشيب نقش الشبا ب فقالت : ألا ليته ما نقشْ

وقوله :

دعتني عينــاكِ نحو الصبا دعاءاً تكرَّر في كل ساعهْ
فلولا ـ وحقِّك ـ عذر المشيـ ـب لقلت لعينيك: سمعاً وطاعهْ

وقوله :

وقائلةٍ لِمْ عرتْكَ الهمو مُ وأمركَ ممتثل في الأُممْ
فقلت : دعيني وما قد عرا فإن الهموم بقدر الهممْ

وقوله مخاطباً صديقاً له وقد أرسل له أبياتاً يشكو فيها من ابتلائه بداء النقرس :

عناني من الهم ما قد عَناني   فأعطيت صرف الليالي عِناني
ألفتُ الدموع وعفت الهجو   ع فعيناي عينان نضّاختان
لسقم ألحَّ على سيدٍ   به قد غفرت ذنوب الزمانِ
أحاط برجليه جوراً عليه   وأنّى ونعلاهما الفرقدانِ
وكيف سطا بهما واستطا   ل وأرض بساطهما النيّرانِ

الى أن يقول :

أتتني بالأمس أبياتُه   تعلّل روحي بروح الجنانِ
كبُرد الشباب وبَرد الشرا   ب وظل الأمان ونيل الأماني
وعهد الصِبا ونسيم الصَبا   وصفو الدنان ورجع القيان
فلو أنَّ ألفاظها جسمت   لكانت عقود نحور الغواني

وبالانتهاء الى هنا نقف بالقلم فنختم هذه الدراسة المتواضعة برجاء أن تكون وافية باعطاء صورة كافية للصاحب بن عباد وتاريخه الحافل وأثره الكبير في دنيا السياسة والعلم والأدب العربي .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين

فهرس الاعلام

البــاء

التــاء

الثــاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الذال

الراء

الزاى

السين

الشين

الصاد

الطاء

العين

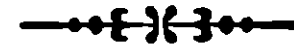
الفاء

القاف

الكاف

الميم

النون



فهرس المراجع

١ ـ آثار الشيعة الامامية : عبدالعزيز الجواهرى « فارسى »
٢ ـ الآداب السلطانية : ابن الطقطقى
٣ ـ الابانة : الصاحب بن عباد
٤ ـ ابن العميد : خليل مردم
٥ ـ أبو حيان التوحيدى : عبدالرزاق محى‌الدين
٦ ـ أحسن التقاسيم : المقدسى
٧ ـ أخبار اصبهان : أبو نعيم
٨ ـ الارشـــاد : أبو القاسم القوبائى
٩ ـ اصول النقد الأدبى : أحمد الشايب
١٠ ـ الأعلام : الزركلى
١١ ـ أعيان الشيعة : محسن الأمين
١٢ ـ الاقنـــاع : الصاحب بن عباد « مخطوط »

١٣	ـ الامتاع والمؤانسة	: أبو حيان التوحيدى
١٤	ـ الأمثال السائرة	: الصاحب بن عباد
١٥	ـ أمل الآمل	: الحر العاملى
١٦	ـ انباه الرواة	: القفطى
١٧	ـ الأنسـاب	: السـمعانى
١٨	ـ أنوار الربيع	: على (خان) بن أحمد بن معصوم
١٩	ـ بحار الأنوار	: المجلسى
٢٠	ـ البداية والنهاية	: ابن كثير
٢١	ـ بغية الوعاة	: السيوطى
٢٢	ـ تاريخ آداب العرب	: مصطفى صادق الرافعى
٢٣	ـ تاريخ آداب اللغة العربية	: جرجى زيدان
٢٤	ـ تاريخ ابن الشحنة	:
٢٥	ـ تاريخ ابى الفدا	:
٢٦	ـ تاريخ الأدب العربى	: أحمد حسن الزيات
٢٧	ـ تاريخ الأدب العربى	: بروكلمان « بالألمانية »
٢٨	ـ تاريخ أدبيات ايران	: ذبيح‌الله صفا « فارسى »
٢٩	ـ تاريخ بغـداد	: الخطيب البغدادى
٣٠	ـ تاريخ التربية الاسلامية	: أحمد شلبى
٣١	ـ تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى	: آدم متز « الترجمة العربية »
٣٢	ـ تاريخ قم	: الحسن القمى « فارسى »
٣٣	ـ تأسيس الشيعة	: حسن الصدر
٣٤	ـ تتمة المنتهى	: عباس القمى
٣٥	ـ تتمة اليتيمة	: الثعالبى
٣٦	ـ تجارب الأمم	: مسـكويه
٣٧	ـ التذكرة	: الصاحب بن عباد
٣٨	ـ ثقافة الهند	: مجلس الروابط الثقافية « مجلة »
٣٩	ـ الخطط والآثار	: المقريزى
٤٠	ـ دائرة المعارف	: البسـتانى
٤١	ـ دائرة المعارف الاسلامية	: لجنةمنالمستشرقين «الترجمة العربية»
٤٢	ـ ديوان الشريف الرضى	:
٤٣	ـ ديوان الصاحب بن عباد	: « مخطوط »
٤٤	ـ الذريعة	: آقا بزرك الطهرانى
٤٥	ـ ذيل تجارب الأمم	: أبو شجاع
٤٦	ـ الرجال	: أبو العباس النجاشى

٤٧ ـ الرسائل : أبو اسحاق الصابى
٤٨ ـ الرسائل : أبو بكر الخوارزمى
٤٩ ـ الرسائل : الصاحب بن عباد
٥٠ ـ رسالة فى أحوال عبدالعظيم : الصاحب بن عباد
٥١ ـ روضات الجنات : الخونسارى
٥٢ ـ شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلى
٥٣ ـ شرح المنظومة الفريدة : البهلولى « مخطوط »
٥٤ ـ الصاحبى : ابن فارس
٥٥ ـ الظرائف واللطائف : الثعالبى
٥٦ ـ ظهر الاسلام : أحمد أمين
٥٧ ـ العبر ـ تاريخ ـ : ابن خلدون
٥٨ ـ عمدة الطالب : الداوودى
٥٩ ـ عنوان المعارف : الصاحب بن عباد
٦٠ ـ عيون أخبار الرضا : الصدوق
٦١ ـ عيون الأنباء : ابن ابى اصيبعة
٦٢ ـ الغدير : عبدالحسين الأمينى
٦٣ ـ فرج المهموم : ابن طاووس
٦٤ ـ الفرق بين الضاد والظاء : الصاحب بن عباد « مخطوط »
٦٥ ـ فلسفة المعتزلة : البير نصرى نادر
٦٦ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر : شوقى ضيف
٦٧ ـ الفن ومذاهبه فى النثر : شوقى ضيف
٦٨ ـ الفهرست : ابن النديم
٦٩ ـ الكامل فى التاريخ : ابن الأثير
٧٠ ـ كشف الظنون : حاجى خليفة
٧١ ـ الكشف عن مساوى شعر المتنبى : الصاحب بن عباد
٧٢ ـ الكشكول : بهاءالدين العاملى
٧٣ ـ كمال البلاغة : قابوس بن وشمكير
٧٤ ـ إلكنى والألقاب : عباس القمى
٧٥ ـ اللباب : ابن الأثير
٧٦ ـ لسان العرب : ابن منظور
٧٧ ـ لسان الميزان : ابن حجر
٧٨ ـ مجمع البحرين : فخرالدين الطريحى
٧٩ ـ محاسن اصفهان : المافروخى
٨٠ ـ المحيط : الصاحب بن عباد « مخطوط »

٨١ ـ المزهر : السيوطى
٨٢ ـ معالم العلماء : ابن شهراشوب
٨٣ ـ معاهد التنصيص : عبدالرحيم العباسى
٨٤ ـ معجم الأدباء : ياقوت الحموى
٨٥ ـ معجم البلدان : ياقوت الحموى
٨٦ ـ المقتطف : فؤاد صروف « مجلة »
٨٧ ـ الملل والنحل : الشهرستانى
٨٨ ـ المنتظم : ابن الجوزى
٨٩ ـ منتهى المقال : أبو على محمد بن اسماعيل
٩٠ ـ المنظومة الفريدة : الصاحب بن عباد « مخطوط »
٩١ ـ المنية والأمل : ابن المرتضى
٩٢ ـ النثر الفنى فى القرن الرابع : زكى مبارك
٩٣ ـ النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى
٩٤ ـ نزهة الألباء : ابن الأنبارى
٩٥ ـ نفائس المخطوطات : محمد حسن آل ياسين
٩٦ ـ النقد المنهجى عند العرب : محمد مندور
٩٧ ـ نهاية الأرب : النويرى
٩٨ ـ الهداية والضلالة : الصاحب بن عباد
٩٩ ـ هدية الأحباب : عباس القمى
١٠٠ ـ هدية العارفين : اسماعيل البغدادى
١٠١ ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه : على بن عبدالعزيز الجرجانى
١٠٢ ـ الوسيط فى الأدب العربى : الاسكندرى وصاحبه
١٠٣ ـ وفيات الأعيان : ابن خلكان
١٠٤ ـ يتيمة الدهر : الثعالبى
١٠٥ ـ اليقين : ابن طاووس

